
مصطفى لطفي المنفلوطي
النظرات
٢
دار الثقافة - بيروت

مصطفى لطفي المنفلوطي



دار الثقافة - بيروت

البيــان

قال لي أحد الوزراء ذات يوم : « إني لتاتيني أحياناً رقاع الشكوى فما كاد أهملها لما تشتمل عليه من الأساليب المنفرة ، والكلمات الجارحة ، لولا أن الله تعـالى يلهمني نيـات كاتبيها وأين يذهبون ، ولولا ذلـك لكنت من الظالمين » .

ذلك مـا يراه القارىء في كثير من المخطوطات التي يخطها اليوم كاتبوها في الصحف ورقاع الشكوى والكتب الخاصة والمؤلفات العامة .

هزل في موضع الجـد ، وجـد في موضع الهزل ، وإسهاب في مكان الإيجـاز ، وإيجاز في مكان الإسهاب ، وجهل لا يفرق مـا بين العتاب والتانيب ، والانتقام والتاديب ، والاستعطاف والاستخفاف ، وقصور عن ادراك منـازل الخطاب ومواقفه بين السوقـة والامراء ، والعلماء والجهلاء ، حتى إن الكاتب ليقيم في الشوكة يشاكها مناحة لا يقيمها في في الفاجعة يفجع بها ، ويكتب في الحوادث الصغار مـا يعجز عن كتابة

مثله في الحوادث الكبار ، ويخاطب صديقه بما يخاطب به عدوه ويناجي أجيره بما يناجي به أميره .

ذهب الناس في معنى البيان مذاهب متشعبة ، واختلفوا في شأنه اختلافاً كثيراً ، ولا أدري علام يختلفون وأين يذهبون ؟ وهذا لفظه دال على معناه دلالة واضحة لا تشتبه وجوهها ولا تتشعب مسالكها ؟

ليس البيان إلا الإبانة عن المعنى القائم في النفس ، وتصويره في نظر القارىء أو مسمع السامع تصويراً صحيحاً لا يتجاوزه ، ولا يقصر عنه ، فإن علقت به آفة تينك الآفتين فهي العي والحصر .

جهل البيان قوم فظنوا أنه الاستكثار من غريب اللغة ونادر الأساليب فاغصوا بها صدور كتابتهم ، وحشوها في حلوقها حشواً يقبض أوداجها ويحبس أنفاسها ، فإذا قدّر لك أن تقرأها ، وكنت ممن وهبهم الله صدراً رحباً ، وفؤاداً جلداً ، وجناناً يحتمل ما حمل عليه من آفات الدهر وأرزائه ، قرأت متناً مشوشاً من متون اللغة ، أو كتاباً مضطرباً من كتب المترادفات .

وجهله آخرون فظنوا أنه الهذر في القول ، والتبسط في الحديث واقعاً ذلك من حال الكلام ومقتضاه حيث وقع ، فلا يزالون يجترون بالكلمة اجترار الناقة بجرّتها ، ويتمطقون بها تمطق الشفاه بريقها ، حتى تسف وتتبذل ، وحتى ما تكاد تسيغها الحلوق ولا تطرف عليها العيون، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

يخيل إليّ أن الكتّاب في هذا العصر يكتبون لأنفسهم أكثر مما يكتبون للناس ، وأن كتابتهم أشبه شيء بالأحاديث النفسية التي تتلجلج في صدر الإنسان حينما يخلو بنفسه ، ويأنس بوحدته ، فإني لا أكاد أرى بينهم من يحكم وضع فمه على أذن السامع ، وينفث في روعه ما يريد أن ينفث من خواطر قلبه ، وخوالج نفسه .

الكلام صلة بين متكلم يفهم ، وسامع يفهم ، فبمقدار تلك الصلة من القوة والضعف تكون منزلة الكاتب من العلو والإسفاف ، فإن أردت أن تكون كاتباً فاجعل هذه القاعدة في البيان قاعدتك ، واحرص الحرص كله على ألا يخدعك منها خادع فتسقط مع الساقطين .

ما أصيب البيان العربي بما أصيب به إلا من ناحية الجهل بأساليب اللغة ، ولا أدري كيف يستطيع الكاتب أن يكون كاتباً عربياً قبل أن يطلع على أساليب العرب في اوصافهم ونعوتهم ، وتصوراتهم وخيالاتهم ، ومحاوراتهم ومساجلاتهم ، وقبل أن يعرف كيف كانوا يعاقبون ويؤنبون ، ويعظون وينصحون ويتغزلون وينسبون ، ويستعطفون ويسترحمون ، وبأية لغة يحاول ان يكتب ما يريد إن لم يستمد تلك الروح العربية استمداداً يملأ ما بين جانحتيه حتى يتدفق مع المداد من انبوب يراعته على صفحات قرطاسه .

إني لأقرأ ما كتبه الجاحظ وابن المقفع والصاحب والصابىء والهمذاني والخوارزمي وأمثالهم من كتاب العربية الأولى ، ثم أقرأ ما خطه هؤلاء الكاتبون في هذه الصحف والأسفار فاشعر بما يشعر به المتنقل دفعة

واحدة من غرفة مُحكمة النوافذ، مُسبلة الستور ، الى جو يسيل قرآ وضرآ، ويترقرق ثلجاً وبرداً .

ذلك لأني أقرأ لغة لا هي بالعربية فاغتبط بها ، وهي بالعامية فالهو باحماضها ومجونها .

رأيت أكثر الكاتبين في هذا العصر بين رجلين : رجل يستمد روح كتابته من مطالعة الصحف وما يشاكلها في أساليبها من المؤلفات الحديثة والروايات المترجمة ، فإذا علقت بنفسه تلك الملكة الصحفية ألقى بها في روع قارىء كتابته أدون مما أخذها ، فيدلى آخذها كذلك الى غيره أسمج صورة وأكثر تشويهاً ، وهكذا حتى لا يبقى فيها من روح العربية إلا كما يبقى من الاطلال البالية بعد كر الغداة ومر العشيّ ، وطالب قصارى ما يأخذه من استاذه : نحو اللغة وصرفها ، وبديعها وبيانها ، ورسمها وإملاؤها ، ومترادفها ومتواردها ، وغير ذلك من آلاتها وأدواتها ، أما روحها وجوهرها فأكثر اساتذة البيان عنده علماء غير ادباء ، وحاجة طالب اللغة الى استاذ يفيض عليه روح اللغة ، ويوحي اليه بسرّها ، ويفضي له بلبها وجوهرها اكثر من حاجته الى استاذ يعلمه وسائلها وآلاتها ، وعندي أن لا فرق بين استاذ الاخلاق واستاذ البيان ، فكما ان طالب الاخلاق لا يستفيدها إلا من استاذ كملت أخلاقه وسمت آدابه . كذلك طالب البيان لا يستفيده إلا من استاذ مبين .

ولا يقذفن في روع القارىء أني أحاول استلاب فضل الفاضلين او

أني أريد ان انكر على شعراء الامة وكتابها ما وهبهم الله من نعمة البيان، فما هذا اردت ولا اليه ذهبت ، وإنما اقول إن عشرة من الكتاب الجيدين ، وخمسة من الشعراء البارعين ، قليل في بلد يقولون إنه مهد اللغة العربية اليوم ومرعاها الخصيب .

وبعد : فإني لا أرى لك يا طالب البيان العربي سبيلاً اليه إلا مزاولة المنشآت العربية منثورها ومنظومها ، والوقوف بها وقوف المتثبت المتفهم لا وقوف المتنزه المتفرج . فإن رأيت انك قد شغفت بها وكلفت بمعاودتها والاختلاف اليها ، وأن قد لذّ لك منها ما يلذ للعاشق من زورة الطيف في غرة الظلام ، فاعلم انك قد اخذت من البيان بنصيب ، فامض لشأنك ، ولا تلو على شيء مما وراءك ، تبلغ من طلبتك ما تريد .

ولا تحدثك نفسك اني أحملك على مطالعة المنشآت العربية لاسلوب تسترقه او تركيب تختلسه ، فإني لا احب ان تكون سارقاً او مختلساً ، فإن فعلت لم يكن دركك دركاً ، ولا بيانك بياناً ، وكان كل ما أفدته[1] ان تخرج للناس من البيان صورة مشوهة لا تناسب بين اجزائها ، وبردة مرقعة لا تلاؤم بين ألوانها وإنما اريد ان تحصل لنفسك ملكة في البيان راسخة تصدر عنها آثارها عفواً بلا تكلف ولا تعمل ، وإلا كان شأنك شأن اولئك القوم الذين علقت ذاكرتهم بطائفة من منثور العرب ومنظومها ، فقنعوا بها ، وظنوا انهم قد وصلوا من البيان الى صميمه . فإذا جد الجد وأرادوا انفسهم على الإفصاح عن شيء مما تختلج به نفوسهم،

(١) بمعنى : أفاد واستفاد .

رجعوا الى تلك المحفوظات ونبشوا دفائنها ، فإن وجدوا بينها قالباً لذلك المعنى الذي يريدونه انتزعوه من مكانه انتزاعاً وحشروه في كتابتهم حشراً . وإلا تبذلوا باستعمال التراكيب الساقطة المشنوعة او هجروا تلك المعاني الى معان أخرى غيرها ، لا علاقة بينها وبين سابقاتها ولاحقاتها ، فلا بد لهم من إحدى السوأتين : إما فساد المعاني واضطرابها، او هجنة التراكيب وبشاعتها .

فاحذر أن تكون واحداً منهم ، أو أن تصدق ما يقولونه في تلمس العذر لأنفسهم من أن اللغة العربية أضيق من أن تتسع لجميع المعاني المستحدثة ، وأنهم ما لجأوا الى التبذل في التراكيب إلا لاستحالة الترفع فيها . فاللغة العربية ارحب صدراً من أن تضيق بهذه المعاني العامة المطروقة بعدما احتملت من دقائق العلوم والمعارف ما لا قبل لغيرها باحتماله ، وقدرت من هواجس الصدور وخوالج النفوس على ما عيّت به اللغات القادرات .

وليس الشان في عجز اللغة وضيقها ، وإنما الشان في عجز المشتغلين بها عن الاضطراب في ارجائها ، والتغلغل في أعماقها ، واقتناعهم من بحرها بهذه البلة التي لا تثلج صدراً ، ولا تشفي أواما .

وكل ما يعد عليها من الذنوب انها لا تشتمل على أعلام لبعض هذه الهنات المستحدثة، وهو في مذهبي أهوَن الذنوب واضعفها شأناً ، ما دمنا نعرف وجه الحيلة في علاجه بالاشتقاق إن وجدنا السبيل اليه ، او التعريب إن عجزنا عن الاشتقاق ، فالامر اهوَن من ان نحار فيه ،

واحقر من ان نقضي اعمارنا في العراك ببابه ، والمناظرة في اختيار اقرب الطرق اليه ، واجداها عليه .

واعلم انه لا بد لك من حسن الاختيار فيما تريد ان تزاوله من المنشآت العربية ، فليس كل متقدم ينفعك ، ولا كل متأخر يضرك ، ولا احسبك إلا واقفاً بين يدي هذا الامر موقف الحيرة والاضطراب ، لان حسن الاختيار طلبة تتعثر بين يديها الآمال ، وتتقطع دونها أعناق الرجال ، فالجأ في ذلك إلى فطاحل الادباء الذين تعرف ويعرف الناس منهم ذوقاً سليماً ، وقريحة صافية ، وملكة في الادب كصفاة الذهب ، فإن فعلت وكنت ممن وهبهم الله ذكاء وفطنة وقريحة خصبة لينة صالحة لنماء ما يلقي اليها من البذور الطيبة ، عدت وبين جنبيك ملكة في البيان زاهرة ، يتناثر منها منثور الادب ومنظومه ، تناثر الورود والانوار من حديقة الازهار .

***

السريرة

لو كشف للإنسان عن سريرة الانسان لرأى منها مـا يرى الاعمى من غرائب هذا الكون وعجائبه حين تدركه رحمة الله بعد طول محنته فيرتد بصيراً .

تتراءى لك السريرة في ظاهرها كأنها أديم السماء او صفحة الماء ، فإن بدا لك ان تكتنه باطنها فانك غير بالغ من ذلك ماربك إلا إذا استطعت ان تخترق جلدة السماء ، فترى ما وراءها من بدائع الكائنات ، وتغوص في أعماق الماء فتشاهد ما في باطنه من عجائب المخلوقات .

يعجز المرء عن رؤية الهباء فيتريث ريثما تمج الشمس لعابها من نافذة غرفته فإذا هو مائـج وضاء يروح ويغدو رواح السانحـات وغـدو البارحات ، ويعجز عن رؤية الجراثيم فيستعين عليها بمنظار يجسمها له ويدنيها منه حتى ليكاد يلمسها بيمينه ، ويعجز عن اكتناه السريرة فلا يجد الى الوصول اليها سبيلاً .

وقف آدم أمـام باب السريرة يوم الشجرة يعالـج فتحه فاستعصى عليه ، ثم وقـف بنوه من بعده موقفه فحجزوا عجزه ، فلجّ بهم الشوق إليها لجاجاً طار بعقولهم وذهب بألبابهم ، فتراموا على أقدام المنجمين والعرّافين لثماً وتقبيلا ، وابتدروا النصب والتماثيل ركوعاً وسجوداً ، وهاموا بزاجرات الطير والضوارب بالحصى هيـام الابل العطاش بمنازل الماء ، يطلبون ما وراء السريرة والسريرة كنز مرصود لا تنجـع فيه النفثات ، ولا تجدي معه العزائم والرقي .

انك لترى الرجل يتلألأ جبينه تلألؤ الكواكب في جنح ليل مبرد ، ويفتر ثغره عن الأنوار افترار الأكمام عن الأزهار ، فتحسده عـلى نعمته وسعادته ، وتتمنى أن لو منحك الله ما منحه من هناء ورغد ، وان بـين جنبيه ـ لو علمت ـ هماً يعتلج ، وقلباً يدب فيه اليأس دبيب الآجال في الاعمار ، وكبداً مقروحة لو عرضها في سوق الهموم والاحزان ما وجـد من يبتاعها منه بأبخس الاثمان .

وانك لترى الصديق فيعجبك منـه حديثه الحلو ، وثغره المبتسم ، ويروقك منه كلفه بك واعظامه لك واعجابه بشمائلك ومحاسنك، وتشيعه لآرائك ، ولو كشف لك من نفسه ما كشف له منها لوددت أن لو تيسر لك أن تبتـاع أقدام السليك [1] بجميع مـا تملك يدك ففررت من وجهه فرارك من وجـه الاسود السالخ [2] ووددت بجدع الانف ان لا يصافح وجهه وجهك من بعدها حتى في جنات النعيم .

(١) السليك : رجل معروف بسرعة عدوه في العرب .   (٢) ذكر الحيات .

لولا ما أسدل الله على السرائر من الحجب لبدلت الارض غير الارض ، والسموات غير السموات ، وكان للكون نظام غير هذا النظام، وللتاريخ صفحات غير هذه الصفحات .

لو علم الجند أنهم لا يحاربون الا ليضعوا « نيشاناً » في صدر القائد ، او جوهرة في تاج الملك ، وأنهم كثيراً ما يكونون مخدوعين في مواقفهم باشراك الوطنية وحبائل الدين ، لما دالت الدول ، ولا انتقلت التيجان ، ولضعف ظهر الأرض عن حمل ما فوقه من بني الإنسان . ولو علم جهلة المتدينين ان أكثر زعماء الأديان إنما يشترون منهم عقولهم واموالهم بالقليل التافه من المدهشات الدينية والأحلام النفسية ، ويملأون قلوبهم بالمخاوف والمزعجات ليبيعوهم الأمن والسلام بثمن غال ، لضعفت اصوات النواقيس ، وقصرت قامات المنائر ، ولهلك أرباب الطياليس والقلانس جوعاً وسغباً ، ولأصبحت حبات السبح اكسد في سوق الاديان من بعد الآرام في سوق الأنعام ، ولو علم الابن ان أباه يحبه لما يرجوه من منفعته في شيخوخته ، وأنه إنما يعجب بنفسه في إعجابه به وثنائه عليه ، ويفخر بقوة عقله وحسن تدبيره في فخره بذكائه ونبوغه، لضعفت صلة الود بينه وبينه ، ولما كانت بين حلقات الأنساب هذه الوشائج وتلك الأواصر . ولو علمت الزوجة ان زوجها يحب منها جسمها اكثر مما يحب نفسها ، وأنه يتربص بها الدوائر ويعد ليومها الساعات والأيام ليستبدل بها خيراً منها ، لما وثقت بودّه ولا اطمانت لعهده ولما كان للمنازل سقوف تظل الأسرة والمهاد .

زيد وعمرو

أراد داود باشا ـــ أحد وزراء تركيا في العهد القديم ـــ ان يتعلم اللغة العربية ، فاحضر احد علمائه ، وأخذ يتلقى عنه علومه عهداً طويلا ، فكانت نتيجة عمله ما ستراه .

سأل شيخه يوماً : ما الذى جناه عمرو من الذنوب حتى استحق ان يضربه زيد كل يوم ويبرّح به هذا التبريح المؤلم ؟ وهل بلغ عمرو من الذل والعجز منزلة من يضعف عن الانتقام لنفسه ، وضرب ضاربه ضربة تقضي عليه القضاء الأخير ؟

سأل شيخه هذا السؤال وهو يتحرق غيظاً وحنقاً ،ويضرب الارض بقدميه ، فأجابه الشيخ : ليس هناك ضارب ولا مضروب يا مولاي ، وإنما هي أمثلة يأتي بها النحاة لتقريب القواعد من أذهان المتعلمين . فلم يعجبه هذا الجواب ، واكبر ان يعجز مثل هذا الشيخ عن معرفة الحقيقة في هذه القضية . فغضب عليه وأمر بسجنه ، ثم أرسل الى نحوى آخر

فسأله كما سأل الاول ، فأجابه بمثل جوابه ، فسجنه كذلك ، ثم ما زال يأتي بهم واحداً بعد واحد . حتى امتلأت السجون وأقفرت المدارس ، وأصبحت هذه القضية المشئومة الشغل الشاغل عن جميع قضايا الدولة ومصالحها ، ثم بدا له ان يستوفد علماء بغداد ،فأمر باحضارهم ، فحضروا وقد علموا قبل الوصول اليه ماذا يرادبهم ، وكان رئيس هؤلاء العلماء بمكانة من الفضل والحذق والبصر بموارد الامور ومصادرها،فلما اجتمعوا في حضرة الوزير أعاد عليهم ذلك السؤال بعينه ، فأجابه رئيس العلماء : ان الجناية التي جناها عمرو يا مولاي يستحق ان ينال لاجلها من العقوبة اكثر مما نال ، فانبسطت نفسه قليلا وبرقت أسارير وجه ، وأقبل على محدّثه يسأله : ما هي جنايته ؟ فقال له : انه هجم على اسم مولانا الوزير واغتصب منه الواو ، فسلط النحويون عليه زيداً يضربه كل يوم جزاء وقاحته وفضوله ـ يشير الى زيادة واو عمرو واسقاط الواو الثانية من داود ـ فأعجب الوزير بهذا الجواب كل الإعجاب ، وقال لرئيس العلماء : انت أعلم من أقلته الغبراء ، وأظلته الخضراء ، فاقترح عليّ ما تشاء ، فلم يقترح عليه سوى اطلاق سبيل العلماء المسجونين ، فأمر باطلاقهم ، وأنعم عليهم وعلى علماء بغداد بالجوائز والصلات .

أحسن داود باشا في الاولى وأساء في الاخرى ، ولو كنت مكانه لما اطلقت سبيل هؤلاءِ النحاة من سجنهم حتى آخذ عليهم عهداً وثيقاً ان يتركوا هذه الامثلة البالية الى أمثلة جديدة مستطرفة تؤنس نفوس المتعلمين وتذهب بوحشتهم ، وتحول بينهم وبين النفور من منظر هذه

الحوادث الدموية بين زيد وعمرو ، وخالد وبكر .

لا ينال المتعلم حظه من العلم الا اذا استطاع تطبيقه على العمل والانتفاع به في مواضعه ومواطنه التي وضع لأجلها ، ولن يستطيع ذلك الا اذا استكثر له معلمه من الأمثلة والشواهد الملائمة لقواعد ذلك العلم ، وافتن له في إيرادها افتناناً يقرّب الى ذهنه تلك الصلة من العلم والعمل ، ويسهل له الوصول الى القدرة على تلك المطابقة ، وان اكثر المتعلمين في مدرسة الأزهر أبعد الناس عن القدرة على المطابقة ، لما حال بينهم وبين ذلك من الوقوف عند المثل الواحد لكل قاعدة من قواعد العلم ! فلو أنك أردت أحدهم على ان يخرج في المنطق عن الحيوانية والناطقية ، وفي النحو عن ضرب زيد عمراً ، وقتل خالد بكراً ، وفي البيان عن تشبيه زيد بالبدر ، واستعارة الأظافر للمنية ، وفي الصرف عن فعلل وافعوعل لوجدت في نفسه من الجهد والمشقة ، وفي لسانه من العي والحصر ما يحزنك على اعوام طوال قضاها بين المحابر والدفاتر ، ثم لم يحصل من بعدها على طائل .

علام يتعلم الطالب النحو والصرف ان عجز عن ان يقرأ صحيحاً كل كتاب وكل صحيفة ؟ وعلام يتعلم علوم البلاغة ان عجز عن معرفة أسرار الكلام ، وأوجه بلاغته وفهم المراد من مختلفات أساليبه ، وعن الإبانة عما يدور في نفسه إبانة واضحة لا يشوبها قلق ولا اضطراب ؟ وعلام يتعلم المنطق ان عجز عن التمييز بين فاسد القضايا وصحيحها في كل ما يعرض عليه منها ، وان لم يكن الموضوع الإنسان ، والمحمول

الحيوان النّاطق ؟ !

عجيب جداً ان يفهم الصانع الأمي ان العلم للعمل ، فلا يتعلم النجارة الا ليصنع الأبواب والصناديق ، ولا الحداد الا ليصنع الاقفال والمفاتيح ، وان يجهل المتعلم هذه القضية الضرورية ، فلا يهمه من العلم الا الاستكثار من المعلومات والقواعد ، وان عجز بعد ذلك عن التصرف فيها ، والانتفاع بها في مواطنها .

ما دامت مدرسة الأزهر على هذه الحال من اسلوب التعليم العقيم فليس بمقدور لها في مستقبل الأيام ان ينبغ منها العلماء الذين تستطيع ان تنتفع بهم الأمة انتفاع امثالها بأمثالهم في مشارق الارض ومغاربها ، فويل للعلم من العلماء .

•

أبو الشمقمق [1]

ان كثيراً من الفقراء لم تمتد يد الفقر الى رؤوسهم ، كما امتدت الى جيوبهم ، فهم يدركون كما يدرك الأغنياء ، ويفهمون كما يفهمون . وكما ان في أغنياء الجيوب فقراء الرؤوس ، كذلك في فقراء الجيوب أغنياء الرؤوس .

ولقد جلست في منزلي صبيحة يوم مع قوم من الماديين الذاهبين الذين ملأ المال فراغ أذهانهم حتى أنساهم كل شيء وأنساهم أنفسهم قبل ذلك ، فأخذوا يتجاذبون أسلاك الأحاديث الذهبية : ما بين تاجر يعجب بصفقته الرابحة ، وزارع يفخر بقلة ما أعطى وكثرة ما أخذ . وآخر يعلل نفسه بكثرة الغلات وارتفاع الأسعار ، والكل متفقون على ان السعادة التي أظلتهم أجنحتها في هذا العهد الأخير : عهد العدل والانصاف ، عهد الحرية والمساواة ، عهد الرقي والعمران : هي أشبه شيء بسعادة

(١) هو في الأصل رجل أديب من أدباء المولدين كان شديد الفقر .

المتقين في جنات النعيم .

كل هـذا وأبو الشمقمق جالس ناحية يخزر طرفه ، ويهز رأسه ، ويصعد أنفاسه ، ويعضغ أضراسه ، ويئن من أعماق قلبه أنيناً يكاد يسمع فيه السامع قول الشاعر :

فيا لك بحراً لم أجد فيه مشربا على ان غيري واحد فيه مسبحا

فما هو الا ان قضوا لبانتهم من الكلام المملول ، والحديث المعاد حتى قاموا يطيرون الآمال وراء الأموال. فاشرت الى أبي الشمقمق ان يختلف ففعل . فسألته مالك لم تشترك معنا فيما كنا فيـه ؟ فأجاب إني أكره الفضول في الحديث وقد فرق المقدار بيني وبينكم في المال ، فلا اشترك في المقال ، فقلت : ألا يعجبك يا أبا الشمقمق حديث النهضة الحديثة التي نهضتها الأمـة المصرية في عهدها الأخـير وانت فرد من أفرادها ، وجزء من أجزاء جسمها ، فنهوضها نهوضك ، وسقوطها سقوطك ، والأمة ــ كما تعلم ــ هي الفرد المتكرر والواحد الدائر ، فانت الامة والامة انت ، فقال والله لا أدري أتكلمني بلسان الصوفية ؟ ولست بصوفي ، أم بلغـة الفلاسفة ؟ ولا أفهم للفلسفة معنى ، وكانك تقصدني بالفرد المتكرر ، فان كنت تريد أنني فرد متكرر كثير الأشباه والأمثال في العوز والفاقة، وواحد لا سند لي ولا عضد ، ودائر في مدارج الطرق ومعابر السبل ، فقد اصبت واحسنت ، وان كنت تريد معنى غير ذلك ، فانا لا أفهم الا كذلك ، فهل لك ان تعفيني من الجواب على هذه المعميات وتزن كلامك على مقدار عقلي وتحدثني فيما يتناوله سمعي وبصري ؟ فقلت : أنا لم اخرج

بك عن المالوف المعروف ، ولا أريد الا ان الامة ليست في الخارج شيئاً غير أفرادها ، فإذا سعدت او شقيت فالسعداء والاشقياء أبناؤها ، وحسبك ان ترى تقدم الامة المصرية في ثروتها وعمرانها ،وبذخها وترفها، وكثرة ناطقها وصامتها ، فتسعد بسعادتها وتهنأ بهنائها ، فقال : انى لم تبين لي سهمي من هذه السعادة ، ونصيبي من ذلك الارتقاء فلا أصدق سعادة ولا أتصور ارتقاء ، وما دمت أرى ان لي هوية مستقلة عن هوية سواي من السعداء ، ويداً تقصر عما تتناوله أيديهم ، وبطناً لا يمتلىء بما تمتلىء به بطونهم ، وما دمت لا أرى واحداً بينهم يلبس معي ردائي الممزق .. وقميصي المخرق .. ويقاسمني همي .. ويشاطرني فقري .. فهيهات ان أسعد بسعادتهم ، وأسر بسرورهم .. وهيهات ان افهم معنى قولك انت الامة والامة انت .. فقلت: ان الغيث اذا نزل يسقي الخصيب والجديب .. والنجد والوهد ، وينتظم من الارض الميت والحي . فقال : كل سماء فيها هذا الغيث الا سماء مصر فإني أراه :

كبدر أضاء الارض شرقاً ومغرباً وموضع رجلي منه أسود مظلم

مالي وللروض الذي لا أستنشق روحه وريحانه .. والقصر الذي لا ادخله مالكا ولا زائراً .. وهب ان الطرق مفروشة بالحرير والديباج .. لا بالحصى والمدر .. فهل أبقى لي الدهر من حاسة اللمس شيئاً فاستطيع ان اميز بين خشن الملمس وناعمه ، ومعوج الارض ومستقيمها ؟ وهبني اذا مشيت خضت في بحر مائج بانوار الكهرباء . فهل يغني ذلك عني شيئاً ؟ وهل يكون نصيبي منه الا انكشاف سوأتي ورثاثة حالتي لأعين

الناظرين ؟ ولقد حبب اليّ الظلام حتى تمنيت دوامه لألبس من ثوبه الطبيعي ما يكفيني مؤنة الرتق والفتق .. والتمزيق والترقيع .. وبعد: فما هو الارتقاء الذي تزعمه وتزعم أنه يعنيني ويشملني ؟هل ترقت غرائز الإحسان في نفوس المحسنين ؟ وهل خفقت قلوب الاغنياء رحمة بالفقراء؟ فقلت : نعم .. أما ترى الاموال التي يتبرع بها الاغنياء للجمعيات الخيرية ،والتي ينفقها المحسنون على بناء المدارس والمكاتب والمستشفيات؟ فقال : ان هذه التي تسميها مكارم ، لا يسميها اصحابها الا مغارم ، ألجاهم اليها التملق للكبراء ، وحب التقرب من الرؤساء ، والطمع في الزخرف الباطل والجاه الكاذب .

مالي وللمدارس والمستشفيات ، وانا جوعان خبز لا جوعان علم .. ولا مرض عندي الا مرض الفاقة ، فهل اجد في المدارس خبزاً او في المستشفيات دواء كذلك الدواء الذي وصفه احد الاطباء الكرماء لرجل جائع دخل عليه وشكا اليه مرضاً فعرف سر مرضه فاعطاه علبة وكتب على غطائها « يؤخذ منه عند اللزوم » فلما ذهب بها الفقير وفتحها وجد فيها عشرة دنانير .

أنا رجل ضعيف البصر ضعيف القوة كما ترى .. فلا قدرة لي على العمل وعندي صبية صغار ليس بينهم من يستطيع عملاً او يحسن صنعاً، ولقد كان لي في الزمن الذي تذمونه ، والعهد الذي تنقمون عليه ، منفسح عظيم في منازل المحسنين ومورد غمر من صدقاتهم وهباتهم ، وظل ظليل من تحنن الأغنياء ورحمتهم بالفقراء البائسين، أما اليوم فاني أبيت طاوياً،

واصبح شاكياً ، وأغدوا راجياً واروح يائساً .

وهنا ارسل من جفنيه دمعة ليست باول دمعة ارسلها على ردائه ، ولكنها أحر من سابقاتها ، لأنه لم يبك في غير خلوته غير هذه المرة .

ثم نهض ومد يده اليَّ مودعاً ، فمسحت بيميني دمعة واحدة من دموعه الكثيرات .

*

دورة الفلك[1]

أيها القصر :

أين الكوكب الزاهر الذي كان يتنقل في ابراجك ؟ اين النسر الطائر الذي كان يحلـق في اجوائك ؟ اين الملك القـادر الذي كان يطلع شمساً في صباحك وبدراً في مسائك ؟

اين الاعلام والبنود تخفق في شرفاتك ؟ والقوّاد والجنود تخطر في عرصاتك ؟ اين الشفاه التي كانت تلثم ترابك ؟ والافواه التي كانت تقبـل اعتابـك ؟ والرؤوس الـتي كانت تطرق لهيبتك ؟ والقلوب الـتي كانت تخفق لروعتك ؟

اين الصوت الذي كان يجلجل فيقرع أذن الجوزاء ؟ ويهدر فتلتفت عيون السماء ؟ اين الفلـك الذي كان يـدور بالسعـد والنحس ، والنعـيم والبؤس ، والرفع والخفض ، والإبرام والنقض ؟.

(١) كتبت بمناسبة سقوط السلطان عبد الحميد ملك تركيا .

كيف استطاع الدهر ان يمد يده الى شملك فيبدده ؟ وجمعك فيفرقه ؟ سمائك فيكور شموسها ؟ وأرضك فيزعج أنيسها ؟

اين كانت أسوارك وابوابك ، وحراسك وحجابك؟ وكيف عجزت ان تمتنع على القضاء ؟ وتصد عن نفسك عادية البلاء ؟

ولم أر مثل القصر إذ ريع سربه وإذ ذعرت أطلاؤه وجآذره
تحمل عنه ساكنوه وهتكت على عجل أستاره وستائره

أيها السجن :

حلّ بارجائك اليوم ملك تضيق به الدنيا ، فكيف وسعته ؟ وتعجز عن احتماله قلل الجبال الرواسي فكيف احتملته ؟ رفقاً به لا تزعجه ، ولا تحرج صدره ، وضم جانحتيك عليه كما تضم على القلب حنايا الضلوع ، واعطف عليه عطف المرضعات على الرضيع ، وارحم هذا الجلال الذاهب ، والعز الزائل ، والرأس الذي بيضته حوادث الدهور ، والظهر الذي قوسته ايدي المقدور .

ايها الدهر :

ألا تستطيع ان تنام عن الإنسان لحظة واحدة ؟ ألا تستطيع ان تسقيه كأس السرور خالصة ، لا يمازجها كدر ، ولا يشوبها عناء ؟

ان كنت تريد ان تسلبه فلم اعطيته ؟ وان كنت تريد ان تعطه فلم سلبته ؟ كان خيراً له ان لا تعطيه حتى لا تفجعه في تلك العطية ، وان لا تسقيه كأس السرور حتى لا يتجرّع ذلك السم الذي أودعته تلك الكاس

أيها الرجل المودع :

كان ارتفاعك عظيما ، فوجب ان يكون سقوطك عظيما .

إنك ذقت حلاوة الحياة خالصة ، فلما ذقت مرارتها جزعت وقطبت كما يجزع ويقطب كل من ذاق من الشراب ما لا عهد له بـه ولا قبـل له باحتماله .

لا تأس عـلى مـا فاتك ، فإنما كان وديعة من ودائع الدهر ، أعاركها برهة من الزمان ، ثم استردها .

إنك لا تدري ، لعلّ الله أراد بـك خيراً فمنحك قبـل حلول اجلك فرصة من الزمان تخلو فيها بنفسك ، وتراجع فها فهرس أعمالك ، فان رأيت خيراً اغتبطت او شراً استغفرت .

قضى الله ان يقيم في كل حين لهذا العالم الغافل عبرة من العبر تزعجه من رقدته ، وتوقظه من غفلته ، فكنت انت عبرة هذا الدهر وموعظته.

من بات بعدك في ملك يسر به فإنما بات بالاحلام مغرور

*

تأبين فولتير [1]

في مثل هذا اليوم ، منذ مائة عام ، مات الرجل العظيم ، مات الرجل الخالد ، مات فولتير .

ما مات « فولتير » حتى احدودب ظهره تحت اثقال السنين الطوال، واثقال جلائل الاعمال،وأثقال الامانة العظمى التي عرضت على السموات والارض،فابين ان يحملنها ،فحملها وحده وهي تهذيب السريرةالإنسانية فهذبها ، فاستنارت ، فاستقام أمرها .

مات فولتير مرذولاً محبوباً في آن واحد يبغضه الحاضر لأنه يجهله ، ويحبه المستقبل لانه عرفه .

ان في هاتين العاطفتين ــ البغض والحب ــ سراً عظيما من اسرار المجد العظيم ، لذلك الرجل العظيم .

(١) وهي ترجمة خطبة خطبها « فكتور هيجو » في باريس في حفلة تأبين فولتير الكاتب المشهور سنة ١٨٧٨ م بعد مرور قرن على وفاته ، مع بعض تصرف .

كان وهو على سرير الموت محفوفاً بعاطفتين مختلفتين شكلاً، متفقتين معنى ، لانها جميعاً في سبيل مجده وفخاره ، كان ينظر أمامه ، فيسرُّه منظر التبجيل والتعظيم من مستقبله ، ويلتفت وراءه فيطربه مشهد البغض والازدراء والحقد الذي يضمره الماضي في صدره لاولئك الرجال البواسل الذين حاربوه فانتصروا عليه .

كان « فولتير » رجلاً واكبر من رجل ، كان وحده أمة كاملة ، إنه عاهد نفسه على انجاز عمل عظيم فانجزه ولم يخلف وعده ، وكأن الإرادة الإلهية المتجلية في الشرائع تجليها في الطبائع ، نثرت كنانة هذا المجتمع الإنساني وعجمت عيدانه ، فوجدت فولتير اصلبها عوداً ، فاختارته للقيام بالعمل الذي قام به فاتمه .

إننا أتينا هنا لفصل الخطاب في المسالة الاجتماعية الكبرى ، جئنا لنرفع شان المدنية ونكرم الفلسفة اكراماً ينفعها ويفيدها ، جئنا لنتلو على القرن الثامن عشر رأى القرن التاسع عشر فيه، جئنا لنكرم المجاهدين والعاملين المخلصين ، اجتمعنا لنمجد الطريق للوحدة الإنسانية التي يسعى اليها العلماء والعاملون ، والكتاب المجدّون ، وجملة القول أننا ما اجتمعنا هنا الا لنمجد العاطفة الشريفة السامية ، عاطفة السلام العام .

إنا نمجد السلام حباً في المدنية ، وحرصاً على جمالها ورونقها ، فالسلام فضيلة المدنية ، والحرب رذيلتها .

نحن في هذه الساعة العظيمة ، في هذا الموقف الرهيب ، نجثو على الركب ، ونعفر جباهنا بين يدي الشريعة الأدبية ، ونقول للعالم الذي

ينصت لسماع صوت فرنسا « لا قوة الا قوة الضمير ، ولا مجد الا مجد الذكاء » هذا في سبيل العدل ، وهذا في سبيل الحق .

لقد كان شان المجتمع الإنساني قبل الثورة الفرنسية على هذا المنال : الشعب في المنزلة الدنيا ، وفوق الشعب الدين والقضاء ، وهذا يمثله « القضاة » وذاك يمثله « الإكليروس » .

أتدرون كيف كان الشعب ؟ وكيف كان الدين ؟ وكيف كان القضاء في ذلك العهد ؟ كان الشعب جهلاً ! والدين رياء ! والقضاء ظلماً !

ان كنت في شك مما اقول فاني أقص عليكم حادثتين من حوادث ذلك التاريخ أرى فيهما غناء ومقتنعاً .

في ١٣ اكتوبر سنة ١٧٦١ وجد شاب مصلوباً في الطبقة الارضية من بيت في مدينة « تولوز » فهاج الشعب ولغط « الإكليروس » وبحث القضاة ، فكانت النتيجة ان كان الشاب منتحراً ، فسمي قتيلاً ، وكان والده بريئاً ، فسمي قاتلاً .

هكذا أراد الدين وأرادت مصلحته ان يهلك والد الفتى لأنه كان بروتستانتياً ولأنه كان يمنع فتاه ان يتدين بالكثلكة ، إنها لجناية عظيمة جداً ينكرها الدين ، ويحيلها العقل ، ولكن هان أمرها ، ولم يحفلوا بالشريعتين : شريعة القلب ، وشريعة العقل ، فحكموا ان الشيخ الكبير قتل ولده الصغير .

هكذا قضى القضاء وهكذا كانت النتيجة فاستمعوها .

في شهر مارس سنة ١٧٦٢ سيق الى الميـدان العام شيخ ابيض الشعر هو « جان كالاس » ثم جرّد من ثيابه وطرح على دولاب العذاب وشدت اليه أطرافه وترك رأسه متدلياً .

ثلاثة رجال تلوثت ايديهم بدم القتيل : كاهن يحمل الصليب ، وجلاد يحمـل القضيب ، وقاض يحمـل في صدره عهـد القوم اليـه بالتنكيل والتعذيب .

لم يكن الشيـخ المسكين وقـد شق الخوف مرارته ، وتمشى قلبـه في صدره ، لينظر الى الصليب في يد الكاهن ، بل الى القضيب في يد الجلاد .

ورفع الجلاد القضيب ، وضرب ذراع الشيخ ضربة قاسية صاح على أثرها صيحة مؤلمة ثم أغمى عليه، فتقدم القاضي الرحيم وأمره له بالمنبهات فانتعش ، فضربه الجلاد الضربة الاخرى فوق الذراع الأخرى فعاد الى صرخته وإغمائه فعادوا الى تنبيهه وانعاشه ، وهكذا حتى تم لكل ذراع من ذراعيه ضربتان وصدعتان ، فكانما قتلوه قبل موته ثماني مرات .

في الإغماء الثامن بعد مرور ساعتين من العذاب تقـدم الكاهن ومدّ اليه الصليب ليقبله فحوّل وجهه عنه ، وكذلك تبلغ القسوة الدينية من نفوس المتدينـين ، فاقبـل الجـلاد وسدد الى صدره الطرف الغليظ من القضيب الحديد وضربه ضربة ألصقت صدره بظهره فكانت القاضية .

على هذه الصورة مات « جان كالاس » .

وما هي الا أيام قلائل حتى عرف الناس ان الفتى مات منتحراً ، لا

مقتولا فحكموا ببراءة الشيخ بعد ان نفذ فيه سهم القضاء ، وماذا يعنيه بعد الموت ، أمات ظالما أم مظلوماً !

أما الحادثة الاخرى فهي عبرة الشباب كما كانت الاولى موعظة الشيخوخة .

بعد مضي ثلاث سنوات من تاريخ الحادثة الاولى وجدوا في « ايفل » في ليلة عاصفة صليباً أكل السوس احشاءه حتى عاف البقاء فيه مطرحاً فوق الجسر بعد ان عاش فوق السور ثلاثة قرون .

من ألقى به من أعلى السور ؟ من أهانه ؟ من ذا الذي دنس هذا الأثر المقدس ؟ من ذا الذي اجرم هذا الجرم العظيم ؟

ربما عصفت به ريح ، او عبث به عابر طريق ، او هوى به ضعف الشيخوخة واعياء الهرم ، لا .. لا .. كل ذلك لم يكن ، لأن الدين أبى الا ان يوجد مجرماً .. هنالك اعلن مطران « اميان » براءة من غفران الله ورحمته لكل مؤمن علم او ظن أنه علم شيئاً عن هذه الحادثة فكتمه .

ان الحرمان في الكثلكة جريمة هائلة فظيعة قاتلة متى أوحى به التعصب الذميم ، الى الجهل العظيم ، كان هذا الحرمان سبباً في ان القضاء عرف او ظن أنه عرف ان ضابطين اسم احدهما « لابار » والآخر « ديتالون » مرا على جسر « ايفل » في تلك الليلة المشؤومة يترنحان سكراً ، وينشدان نشيداً عسكرياً ، مراً بالجسر وأنشدا النشيد ، فهما المجرمان ، وكانت المحكمة تقدس « ايفل » ولم تكن بأقل عدلا وانصافاً

من « مجلس الكابيتول » في « تولوز » فـأمرت بالقبض عـلى الرجلين ، فاختفى « ديـالون » وقبض على « لابار » .

وأسلم الى القضـاء ، فاعترف بالشبـد وانكر المرور عـلى الجسر ، فحكمت محكمة إبفـل بالاعدام ، وأيـد حكمها برلمان باريس ، فدنت الساعة المخيفة الهائلة .

لقـد تفننوا في تعذيب « لابار » وارهاقه ليكشفوا عن سر فعلتـه ، وعن شركائه في جريمته ، أي جريمة المرور على الجسر ، وانشاد النشيد .

لقد عذبوه عذاباً أليماً ، حتى ان الكاهن الذي جيء به ليسمع اعترافه أغمي عليه حينما سمع قرقعة عظام ركبتيه .

مضى هـذا اليوم وجـاء اليوم الثاني ، وهو يوم ٥ يونيه سنة ١٧٦٦ وجيء بالشاب المظلوم الى ساحـة « ايفـل » الكبرى حيث تشتعل نار العذاب وتضطرم اضراما ، فاسمعوه نص الحكم ، ثم بتروا يده ، ثم استلوا لسانه بقابض من الحديد فاستأصلوه ، ولكنهم رحموه بعد ذلك فقطعوا رأسه وألقوا بها في النار .

عـلى هـذه الصورة مات « الشيفاليه دي لابار » كما مـات من قبـله « جان كالاس » .

احزنك هذا المنظر يا فولتير ، وآلم نفسك ، وملك عليك عواطفك وشعورك ، فصحت صيحة الرعب والفزع ، فكانت تلك الصيحة الحجر الاول في بناء مجدك الخالد العظيم .

هنالك انبعثت نفسك الى النزول في ميدان المجتمع الانساني لتكف عادية الظالمين ، وتقلم أظفار الوحوش الضارية ، وجلست في منصة القضاء لتحاكم الماضي على جرائمه ، وتنتصف منه للمستقبل ، فانتصفت وانتصرت ، وكنت من المحسنين .

فيا أيها الرجل العظيم ! طبت حياً وميتاً .

حدثت تلك الحوادث التي ذكرتها على مشهد من المجتمع المهذب الراقي ، وفي حياة حافلة بالسعادة مغتبطة بالهناء ، يغدو اليها الانسان لاهياً ، ويروح ساهياً ، لا يرفع رأسه فيعلم ما فوقه ، ولا يخفضه فيرى ما تحته .

حدث ذلك وايام البلاط أعياد ، و « فرسايل » تتلألأ » حسناً وبهاء وورنقاً وماء ، وظرفاء الشعراء امثال « سان أولاير » و « بوفلير » و « جنتيل برنار » لاهون بالغزل الرقيق والوصف الجميل .

حدث ذلك وباريس تتجاهل ما يجري حولها ، فاستطاع القضاء الظالم بمعونة القسوة الدينية ان يمثل بالشيخ ذلك التمثيل الفظيع ، بذلك القضيب الحديد ، وان يستل لسان الفتى لأنه انشد الاناشيد .

كان المجتمع في ذلك التاريخ مؤلفاً من قوى عظيمة هائلة ، قوة البلاد وقوة الاشراف، وقوة المال ، وقوة الشعب المائج المتدفع ،وقوة الحكومة التي كانت أسداً على الرعية ، ونعامة بين يدي الملك ، تجثو أمامه خاضعة صاغرة ، الا ان جثيها كان على جثة الشعب .. وقوة « الاكليروس » المؤلف من الرياء الكاذب والتعصب الأعمى .

تقدم فولتير وحده وأثار حرباً عواناً على هذا العالم المؤلف من تلك القوى المختلفة .. ولم يره اكبر من ان ينخذل .. ولم ير نفسه اصغر من ان ينتصر .

أتدرون ما كان سلاحه ؟ ما كان له سلاح غير تلك الأداة التي تجاري العاصفة في هبوبها .. وتسبق الصاعقة في انقضاضها.. ما كان له سلاح غير القلم ، فبالقلم حارب ، وبالقلم انتصر .

انتصر فولتير ، فولتير وقف وحده تلك المواقف المشهودة ، فولتير أدار وحده رحى تلك الحرب الهائلة ، حرب العلم والجهل ، والعدل والظلم ، والعقل والهوى ، والصلاح والفساد ، فتم على يديه الغلب للخير على الشر ، وفاز فوزاً مبيناً .

وكان « فولتير » قلباً وعقلا .. كان له رقة الفتاة في غلالتها [1] وشدة الاسد في لبدته .

« فولتير » محا الخرافات الدينية والعادات الفاسدة ، وارغم انف الكبرياء وأذل عز الرؤساء ،ورفع السوقى الى حيث لا يصل ظلم القاضي ولا تنطع الكاهن .

علم ومدن وهذب ، ولقي في سبيل ذلك من الشدائد والمحن والنفي والقهر ما يكسر سورة النفس ، فلم تنكسر سورته ، ولم تفتر عزيمته . بل كان يلقى الاستبداد بالسخرية ، والغضب بالاستخفاف ، والقوة القاهرة بالابتسامة المؤثرة .

(١) الغلالة : شعار يلبس تحت الثوب .

اقف هنا قليلا اجلالا لابتسامة « فولتير » .

« فولتير » هو الابتسامة ، والابتسامة هي فولتير .

أفضل مزايا الرجل الحكيم ان يملك نفسه عند الغضب ، وكذلك كان فولتير .. كان عقله ميزان اعماله ، فما غلبه حتى الغضب للحق .

كنت تراه عابساً مقطبا ، فما هي الا كرة الطرف ان ترى فولتير الضاحك المبتسم في مكان فولتير العابس المقطب .

تكاد تكون ابتسامته ضحكا ، لولا حزن الحكيم ، وهم العاقل .

كانت ابتسامته كبارقة السيف يرتاع لها الاعداء، ويرتاح لها الاولياء.

كان يبتسم للقوي فيخجله بتهكمه واستخفافه ، وللضعيف فيسره بتحننه وانعطافه .

فلنمجد تلك الابتسامة التي كانت اشعتها كاشعة الفجر ، تمحو الظلام وتبعث الانوار .

نعم الابتسام ، ابتسام أنار الطريق للعدل والحق والصلاح ، وبدد ظلمات التقليد .

ان ابتسامة فولتير أنشات هذه الهيئة الاجتماعية وزينتها بالاخاء والمودة والحرية والمساواة ، فنال العقل منزلته من الاجلال والاعظام ، سواء أسكن القصر الكبير ، أم الكوخ الحقير ، ولبس المعلم تاج الملك فتصرف في العقائد الباطلة والعادات الفاسدة ، والخرافات الدينية تصرف الحاكم القدير ، ونشر السلام اجنحته البيضاء على المجتمع الانساني

فقرّت السيوف في الاغماد ، وهدأت الدماء في العروق ، والارواح في الاجسام ، كل ذلك بفضل ابتسامة فولتير ، ولسوف يأتي ذلك اليوم العظيم يوم الرحمة بالضعفاء ، والعفو عن الخاطئين ، فيبتسم فولتير في السماء ابتسامة تتلألأ بين لألاء النجوم .

فلنمجد ابتسامة فولتير كل التمجيد ولنكبرها كل الاكبار .

هل كان « فولتير » يحلم دائماً فلا يستخف حلمه الغضب ؟ كلا : بل كان يغضب احياناً في سبيل الحق .

ان التوسط وحفظ الموازنة بين الاخلاق هو القانون العقلي للإنسان، حتى لا تهبط به كفة وتعلو به أخرى ، وحتى لا يهلك بين عاطفتي الحب والبغض ، وان الفلسفة هي الاعتدال وامتلاك ازمة النفس في جميع مواقفها ومذاهبها ، الا ان حب الحق يجب ان يكون دائماً في مرتبة الغلو حتى تهب عاصفته قوية هائلة على الشرور والآثام فتذهب بها .

يعيش المرء بين سعادتين من حاضره ومستقبله ، أما الاولى فيكفلها العدل وأما الثانية فيحرسها الامل ، لذلك يحب الناس القاضي العادل ، والكاهن الصالح : لأن الاول صورة العدل ، والثاني مثال الرجاء ، فاذا انقلب العدل ظلماً ، والامل يأساً ، عافهما الانسان ولوى وجهه عنهما ، وقال للقاضي « لا أحب قانونك » وللكاهن « لا أؤمن بك » وهنا يهب الفيلسوف الغيور غاضباً ، فيحاكم القضاء امام العدل والكهنوت امام الله ، وكذلك فعل فولتير ، فكان من المحسنين .

ان الرجل العظيم لا يظهر في المجتمع وحيداً الا قليلا ، وكلما كثر

العظماء حوله ارتفع شأنه وعلا ذكره ، فهو كالشجرة الباسقة تكون في الغابة الشجراء أطول منها في التربة الجرداء ، لانها تكون بين لداتها واترابها ، وكان فولتير في غابة من العقول الكبيرة : روسو وديدور وبوفون وبورماشيه ومونتسكيو ، اولئك القوم المفكرون المخلصون هم الذين علموا الناس النظر في حقائق الاشياء ، والتفكر الصحيح الموصل الى اتقان الاعمال ، وعلموهم ان صلاح القلب أثر من آثار صلاح العقل ، فاجادوا وأفادوا .

مات اولئك القوم العظماء ، وهوت من أفقها كواكبهم ، ولقد كانوا في حياتهم جسداً وروحاً ، اما الجسد فقد طواه القبر ، واما الروح فهي الثورة التي تركوها من بعدهم .

اجل ، ان الثورة روحهم ، والمظهر الساطع المتلالىء بحكمتهم ومبادئهم .

هم في الحقيقة ابطال الثورة المقدسة ، التي هي خاتمة الماضي ، وفاتحة المستقبل .

انك تراهم بعين بصيرتك ، في كل مواقفها ومواقعها ، واذا استطعت ان تنفذ بعين بصيرتك في مواطن الاشياء،رأيت على نور الثورة الساطع ان ديدور كان واقفاً وراء دانتون ، وروسو وراء روبسبير ، وفولتير وراء ميرابو ، ووجدت ابطال الثورة صنيعة ابطال الفلسفة [1] .

ان الكلمة الاخيرة التي انطق بها في هذا الموقف العظيم ، هي دعاء

(١) دانتون ، وروبسبير ، وميرابو : أبطال الثورة الفرنساوية .

المجتمع البشري الى التقدّم بهدوء وسكون ، وثبات ووقار .

ولقد وجد الحق ضالته التي كان ينشدها ، وهي الاخاء الانساني والتعارف النفسي ، فمن العبث ان تشغل القوة بعد ذلك مكاناً في هذا المجتمع ، فان فعلت كان أليق الاسماء بها اسم الاستبداد .

ان المجتمع الانساني انكر على القوة حقها المزعوم ، وضاق صدره بجرائمها وآثامها ، فقضاها بين يدي الحق ، وأتى بالتاريخ شاهداً على دعواه ، فقضي عليها « وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً » .

شف ثوب الرياء عما تحته ، وظهرت الحقيقة بيضاء ناصعة لا غبار عليها فاصبح الابطال والمجرمون في نظر الانسانية سواء لانهم جميعاً يسفكون الدماء.

هدم التمدين تلك القاعدة الفاسدة : وهي ان الجرم العظيم اصغر من الجرم الصغير، فادرك الإنسان ان قتل الشعوب اكبر إثماً، واعظم جريرة من قتل الافراد ، واستكبر ان يعتبر الحرب مجداً وهو يعتبر السرقة عاراً ، وبالجملة : عرف ان الجريمة جريمة ، حيثما حلت ، وفي أي مظهر ظهرت ، وان القاتل لا يغني عنه من الله شيئاً ان يسمى القيصر او يدعى الامبراطور . ولا يخفى على الله من أمره شيء سواء ألبس تاج الملك ، او قلنسوة الاعدام ! .

فلنصرح بالحقيقة المقررة الثابتة ، ولنحتقر الحرب اشد الاحتقار ، ان الحرب المباركة لا أثر لها في الوجود .

ان منظر الدماء والأشلاء افظع منظر .

لا يعقل ان يكون الشر طريق الخير ، وان يكون الموت وظيفة الحياة .

أيتها الأمهات الجالسات حولي : خففن من احزانكن فقد اوشكت يد الحرب ان تكف عن اختلاس أفلاذ اكبادكن .

أنشقى المرأة فتلد ، ويغرس الزارع فيكسو الارض بساطها الاخضر ، ويجد العامل فيملأ الخزائن فضة وذهباً ، ويأتي الصانع بعجائب المصنوعات وغرائب المدهشات ، حتى اذا اخذت الارض زخرفها ، وفاخرت السماء بنجومها وكواكبها ، وذهبنا لرؤية معرضها العام وجدناه ساحة القتال ؟ !

آه ... اننا لا نستطيع مع الاسف ان نخدع أنفسنا ، وننكر ان الساعة التي نحن فيها تشتمل على بضع دقائق محزنة تكدر صفوها ، وتنقص من سرورها .

لا تزال في مرآة السماء الصافية سحابة سوداء .

ان الشعب لم يقض كل أربه من السعادة لأن الحرب لا تزال باقية .

فلنذكر عند ملوك الحرب : فولتير وجان جاك وديدور ومونتسكيو ملوك السلام ، ولنوجه وجوهنا الى تلك الروح العالية ، الى تلك الحياة العظيمة ، الى ذلك الدفين المقدس ، الى فولتير ، ولنجث امام قبره ضارعين متوسلين ، عسى ان يمدنا بروح من عنده ، ويهدينا الى

حظيرة السلام المقدسة ، فانــه وان مر قرن عـلى موته لم يزل في الأحياء الخالدين .

لنقف في طريق الدماء المتدفقة لنقول للسفاكين بصوت عال : كفى كفى انها همجية ، انها وحشية ، انها تشوه وجه المدنية الجميل .

ان أسلافنا من الفلاسفة رسل الحق الى البشر .

فلنضرع اليهم في تذكارهم هـذا ان يتداركوا الفتنة قبـل وقوعها ، وينادوا : ان الحياة ملك الإنسان ، وعزيز عليه ان تسلب منه ، وان التمتع بالحرية حـق من حقوق العقول والافكار ، فـلا يعترض سبيلها معترض .

ان النور لا أثر له بين اضواء القصور ، فلنطلبه بين ظلمات القبور .

العلماء والجهلاء

لا تحسبن ان الفلسفة الاصطلاحية مطلب من المطالب التي لا ترام، او ان بين من نسميهم العلماء ومن نسميهم الجهلاء ذلك الفرق العظيم الذي يتصوره الناس عندما يرون التفريق بينهما، وانزالهما منازلهما، فالعلماء والجهلاء – ان دققت النظر – سواء لا فرق بينهما الا ان هؤلاء يعلمون المعلومات منظمة، واولئك يعلمونها مبعثرة، وان هؤلاء يحسنون البيان عنها واولئك لا يبينون.

ومن نظر الى الاشياء نظراً نافذاً وجد ان المعاني الصحيحة، والقضايا الكونية المتعلقة بالخير والشر والنفع والضرر، والمسائل المنوطة بالإنسان في حياتيه المادية والمعنوية، يشترك في العلم بها الناس جميعاً عامتهم وخاصتهم، كبارهم وصغارهم، من نشا تحت سقوف الجامعات ومن عاش تحت سقوف السموات، لأن العلم ينبوع يفور من الداخل، لا سيل يتدفق من الخارج، ولأن المعلومات كامنة في النفوس

كمون النار في الزند ، والقوة في المادة ، وما وظيفة العلم الا استثارتها من مكانها ، وبعثها من مراقدها .

وآية ذلك أنك لا تجد حكمة من الحكم ا'- يفخر بها العلماء ويعدونها مظهر علمهم وآيـة فضلهم ، الا وترى في ألسنة الـ.امـة وشوارد أقوالهـا وأمثالها ما يرادفها ويشاكلها ، كما أنك لا تجد قاعدة من قواعد الأدب ، ولا قضيـة من قضايا الاخلاق الـتي تعـدها من ذخائر الأسفار ونفائس الأعلاق ، الا وهي ملقاة تحت أقـدام العامة ، ومذلة بـين أيدي الغوغاء والأميين .

وعندي أنه لولا عجز العامة عن بيان ما يجول في خواطرهم ويهجس في ضمائرهم من .المعلومات عـلى صورة مرتبة منظمة لما خيـل اليهم أنهم يسمعون من الخاصة كلاماً عجيباً ، او معنى غريباً .

ليس هذه الغبطة التي نراها تعلق بنفوسهم عندما يتلقون احاديث الخاصة من أجل أنهم علموا ما لم يكونوا يعلمون ، او أدركوا ما لا عهد لهم بـه من قبـل ، بـل لأنهم ظفروا بمن يترجم عن أفكارهم ، ويجمع لهم شتات المعـاني المبعثرة في أنحـاء أدمغتهم ، ولأنهم وجدوا في أنفسهم لذة الأنس بافكار تشابه أفكارهم ، وآراءهم .

ولا أخشى باساً ان قلت : ان علم العامة أفضل من علم الخاصة ، لانه أولاً علم خالص من شائبة التكلف والتعمل ، حتى إنك لتجـد في بعض الاحايين بـين معلومات الخاصة ومذاهبهم وآرائهم مـا يضحك الثكلى لغرابته وشذوذه ، وما يترفع أضيق العامة ذهناً وأضعفهم فهماً ان يحمل

له شأناً ، او يقيم له وزناً ؛ وثانياً : لان يعلق بالنفس ويتغلغل بين أطوائها تغلغلاً تظهر آثاره على الجوارح ، وكثيراً ما تجد بين الجهلاء من تعجبك استقامته وبين العلماء من يدهشك اعوجاجه ، وان كان صحيحاً ما يقولون من ان العلم ما ينتفع به صاحبه فكثير من الجهلاء أعلم من كثير من العلماء .

فلا تبالغ في تقدير فلسفة الفلاسفة وعلم العلماء ،ولا تنظر اليهم نظراً يملأ قلبك رهبة ولا تغل في احتقار الجهلاء وازدراء العامة والدهماء ولا تكن ممن يقضون حياتهم أسرى العناوين وعبيد الالقاب .

ان في اختفاء الحقائق الكونية وتنكرها ، وضلال هذا العالم في مذاهبه ومراميه ، وتفرقه مذاهب وشيعاً ، وركوب كل فريق رأسه ، وهيامه على وجهه ، ووقوف طلاب الحقيقة في كل دهر وعصر في مفارق الطرق ورؤوس المسالك حيارى – ينشدون فلا يجدون ويجدُّون فلا يصلون – لدليلاً على ان الفلاسفة والحكماء والعلماء كلمات غير مفهومات وأسماء بلا مسميات ، وان حقائق الاشياء واسرار الكائنات قد استأثر الله بعلمها واحتجنها من دون عباده ، ولم يمنحهم الا بلة تزيدهم وجداً كلما وجدوا بردها وتملأ قلوبهم شوقاً كلما تذوقوا طعمها :

ضريبك في بني الدنيا كثير وعز الله ربك من ضريب
وما العلماء والجهلاء إلا قريب حين تنظر من قريب

الرجل والمرأة

سيدي المحترم :

لا تعجب ان رأيت إعجابي بك ظاهراً في كل سطر من سطور كتابي هـذا فإنما أنطق بلسان كثير من العقـلاء ، الذين يحبونك حبـاً جمـاً ، ويعتقدون أنـك فريد في أدبـك ، فريد في قلمـك ، فريـد في تسامحك وتساهلك ، لذلك أردنا ان نوجه اليك السؤال الآتي راجين منك الاجابة عليـه :

لماذا نرى الهيئة الاجتماعية تحـكم عـلى المرأة الفاسقة حكماً صارماً فتنبذها وتحتقرها ، ولا تحكم على الرجل الفاسق مع ان جريمتهما واحدة ؟

هذا ما أردنا ان نسترشد برأيك فيه ، والسلام ؟

« سائل »

يعتقد كثـير من الناس ان الرجل والمرأة سواء في الذكاء والعقـل ، وعندي أنهم أصابوا في الأولى وأخطأوا في الاخرى .

تستطيع المرأة ان تجاري الرجل في سرعة الفهم وحضور البديهة ، ولا تستطيع ان تجاريه في الاناة والرفق وامتلاك هوى النفس ، والاخذ بفضيلة الصبر على ما تكره وعما تحب .

تستطيع المرأة ان تدرك ما يدركه الرجل من الشؤون والاطوار ، وان تستخرج كما يستخرج المجهولات من المعلومات ، ولكنها لا تستطيع ان تنتفع بمعلوماتها كما ينتفع ، لان بين جنبيها نفساً غير نفسه ، وهوى غير هواه ، ولان لها قلباً صغيراً لا يقوى على احتمال ما يحتمله عقله الكبير .

يمشي الرجل وراء عقله فيهديه .. وتمشي المرأة وراء قلبها فيضلها ، فما وقفت معه في موقف الا سقطت بين يديه عجزاً وضعفاً .. لانه يعرف السبيل الى قلبها .. ولا تعرف السبيل الى عقله .

لا تعجب ان قلت لك : ان الذكاء غير العقل ، فاللصوص والمحتالون والمزوّرون والكاذبون والفاسقون والمنافقون أذكياء .. وليس بينهم عاقل واحد .. لانهم يوردون أنفسهم موارد التلف والهلاك ، من حيث لا يغني عنهم ذكاؤهم شيئاً .. وكثيراً ما يكون الذكاء السديد داعية الجنون ، حتى انك لا تكاد ترى ذكياً من الاذكياء ، الا وترى له في شؤونه وأطواره احوالاً شاذة لا تنطبق على قانون من قوانين العقل .. ولا قاعدة من قواعد الطبيعة . وعندي ان اكثر ما يصيب النوابغ والاذكياء من بؤس العيش وسوء الحال عائد الى ضعف في عقولهم .. ونقص في تصوراتهم ، وبعد . فالذكاء في رأس الإنسان كالسيف في يد

الشجاع .. وكثيراً ما يضرب الشجاع عنق نفسه بسيفه اذا كان طائشاً أهوج لا يملك نفسه في مواقف الحزن او الغضب .

فما يغني المرأة ذكاؤها اذا لم يكن وراءه عقل يملكها ويصرفها ويمسك بيدها ان تعثر في عدوها واشتدادها بعقبة من عقبات هذه الحياة .

سيثقل هذا الحكم على نفوس النساء ونفوس الرجال الذين يجاملونهن .. ولكن ماذا أعمل وبين يدي برهان قاطع ليس في استطاعتهن ان ينازعني فيه مع شدة ذكائهن .. ولا في استطاعة انصارهن من الرجال ان ينقضوه .. ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

لولا ان الرجل أعقل من المرأة ما كان له عليها هذا السلطان .. وذلك الغلب .. ولا استطاع ان يقودها وراءه كما يقاد الجنيب [1] ولا ان يملك عليها أمر فقرها وغناها وحبسها وإطلاقها وحجابها وسفورها ويستأثر من دونها بوضع القوانين والشرائع الخاصة بها من حيث لا ترى في نفسها قوة لدفعها ، والخروج عليها .

القويّ يملك على الضعيف بحكم الطبيعة كل شيء حتى نفسه وهواه ، وكذلك كان شأن الإنسان مع الحيوان ، وشأن الرجل مع المرأة .

الإنسان نوع من أنواع الحيوان ، لم يكن في مبدأ خليقته خيراً منها في شأن من شؤون الحياة ، ولكنه كان أوفر منها عقلاً وأوسع حيلة ، فما زال يطلب لنفسه الغاية التي تناسب استعداده وفطرته ، حتى اصبح سيد الحيوان فمدّن المدن ومصّر الامصار ، وشاد وبنى ،وتأنق وترفه ،

(١) الجنيب : المهر الذي يقاد الى مهر آخر .

ثم طرد صاحبه الى الصحارى والرمال ، ورؤوس الجبال ، يأكل بعضه بعضاً ، ويتفانى شقاء وجهلاً ، والرجل أخو المرأة وقسيمها في الرحم والمهد، والابوة والامومة ، والقومة والقعدة ، والنومة واليقظة ، ولكنه وجد في نفسه فضلاً عليها في قوة العقل والتدبير .. وكان ظالماً خشن النفس قاسي القلب فابى الا ان يأسرها ويغلبها على أمرها ويملك عليها جسمها ونفسها ، فتم له ما أراد .

ملك عليها جسمها لانه حجبها عن النور والهواء فأذعنت .. وملك عليها نفسها لأنه ألقى في روعها ان ذنبها في جريمة الفسق المشتركة بينه وبينها اكبر من ذنبه ، وان جنايتها ضعف جنايته فصدقت ، وطلب منها ان تسلم اليه الأمر في تدبير شؤونها والتصرف بأموالها .فسلمت .. واصبحت تنظر الى هذه القوانين الجائرة التي وضعها لها ، والاعتبارات الفاسدة التي اعتبرها معها ، كما ينظر اليها هو بعين الإجلال والإعظام .

يخدع الرجل المرأة عن شرفها فيسلبها إياه ، فاذا سقطت هاج المجتمع الإنساني عليها رجاله ونساؤه .. وملأ قلبها هولاً ورعباً واوسع نفسها تقريعاً وتأنيباً من حيث لا تصبر على شرارة واحدة من هذه النار المتأججة .. لأنه هو الذي وضع هذا القانون وشرع تلك الشريعة .. وما كان له ان يقصر في ممالأة نفسه ومحاباتها ، لأنه شره طماع محب لذاته ، ولا ان يعدل في القضاء في قضية هو الخصم فيها والحكم ، لأنه ظالم جبار .

ولو كان للمرأة ما للرجل من قوة العقل ، لاستطاعت هي ان تحجبه في المنزل ، وان تتولى التصرف في شانه ، وان تعبث بعقله ما شاءت ،

فتعظم جريمته وتصغر جريمتها في عينه ، وان تنفذ الى قلبه فتلعب به لعب الصبي بالكرة ، وان تحدثه فيصدق ، وتامره فياتمر .. وان تسن له القوانين الجائرة والشرائع الفاسدة فيؤمن بها إيمانه بالإله المعبود كما صنع هو بها في جميع ذلك فبلغ منها ما أراد .

لا أريد ان أقول : ان هذا الفرق في القوة العقلية بين الرجل والمرأة يمنحه هذا الحق في ظلمها وغلبتها على حقها ، بل أريد ان اقول : ان هذا الفرق بينهما هو سبب ذلك السلطان القاهر . والحكم الجائر .

وجملة القول : ان حكم المجتمع الإنساني بإدانة المرأة الزانية وبراءة الرجل الزاني حكم ظالم ، ولو أنه أنصفها لعرف فرق ما بينهما في القوة العقلية ، فجعل عقاب الرجل القوي المهاجم فوق عقاب المرأة الضعيفة المدافعة .. ولكنه لم يفعل ذلك لأن رجاله ظلمة جائرون ، ولان نساء ساذجات بسيطات ، يصدقن الرجال في أقوالهم ، وينظرون الى المستحسنات والمستهجنات بانظارهم ، فإن أردنا ان تنال المرأة حقها من الرجل ، وان تنتصف منه . فليس سبيلها الى ذلك المغالبة والمصارعة . فانها اضعف منه جسما وعقلاً . بل السبيل اليه ان نعلمها لتعرف كيف تستعطفه وتسترحمه ، وكيف تحمله على إجلالها واعظامها ، وان تعلمه ليستطيع ان يكون شخصاً كريماً ، وإنساناً رحيماً .

الدعوة

ما من قائم يقوم في مجتمع من هذه المجتمعات البشرية داعياً الى ترك ضلالة من الضلالات او بدعة من البدع ، الا وقد آذن نفسه بحرب لا تخمد نارها ، ولا يخبو أوارها حتى تهلك ، او يهلك دونها .

ليس موقف الجندي في معترك الحرب باحرج من موقف المرشد في معترك الدعوة ، وليس سلب الاجسام ارواحها ، باقرب منالاً من سلب النفوس غرائزها وميولها .. ولا يضن الإنسان بشيء مما تملك يمينه ضنه بما تنطوي عليه جوانحه من المعتقدات ، وأنه ليبذل دمه صيانة لعقيدته ، ولا يبذل عقيدته صيانة لدمه ، وما سالت الدماء ولا تمزقت الأشلاء في موقف الحروب البشرية من عهد آدم الى اليوم الا حماية للمذاهب وذوداً عن العقائد .

لذلك كان الدعاة في كل أمة أعداءها وخصومها ، لأنهم يحاولون ان يرزءوها في ذخائر نفوسها ، ويفجعونها في أعلاق قلوبها .

الدعاة احوج الناس الى عزائم ثابتة ، وقلوب صابرة على احتمال المصائب والمحن التي يلاقونها في سبيل الدعوة ، حتى يبلغوا الغاية التي يريدونها او يموتوا في طريقها .

الدعاة الصادقون لا يبالون ان يسميهم الناس خونة او جهلة او زنادقة او ملحدين ، او ضالين، او كافرين، لأن ذلك ما لا بد ان يكون .

الدعاة الصادقون يعلمون ان محمداً صلى الله عليه وسلم عاش بين أعدائه ساحراً كذاباً ، ومات سيد المرسلين ، وان الإمام الغزالي عاش بالكفر والالحاد ومات حجة الاسلام ، وان ابن رشد عاش ذليلاً مهاناً حتى كان الناس يبصقون عليه اذا رأوه ، ومات فيلسوف الشرق ؛ فهم يحبون ان يكونوا امثال هؤلاء العظماء احياءاً وامواتاً .

سيقول كثير من الناس : وما يغني الداعي دعاؤه في أمة لا تحسن به ظناً ، ولا تسمع له قولاً ، إنه يضر نفسه من حيث لا ينفع أمته ، فيكون أجهل الناس واحمق الناس .

هذا ما يوسوس به الشيطان للعاجزين الجاهلين ، وهذا هو الداء الذي ألمّ بنفوس كثير من العلماء فامسك ألسنتهم عن قول الحق ، وحبس نفوسهم عن الانطلاق في سبيل الهداية والارشاد ، فاصبحوا لا عمل لهم الا ان يكرروا للناس ما يعلمون ، ويعيدوا عليهم ما يحفظون ، فجمدت الاذهان ، وتبلدت المدارك ، واصبحت العقول في سجن مظلم لا تطلع عليه الشمس ، ولا ينفذ اليه الهواء .

الجهل غشاء سميك يغشى العقل ، والعلم نار متاججة تلامس ذلك الغشاء فتحرقه رويداً رويداً . فلا يزال العقل يتالم لحرارتها ما دام الغشاء بينه وبينها ، حتى اذا أتت عليه انكشف له الغطاء فرأى النار نوراً ، والألم لذة وسروراً .

لا يستطيع الباطل ان يصرع الحق في ميدان ، لأن الحق وجود ، والباطل عدم ، إنما يصرعه جهل العلماء بقوته ، ويأسهم من غلبته ، واغفالهم النداء به والدعاء اليه .

محال ان يهدم بناء الباطل فرد واحد في عصر واحد ، وإنما يهدمه افراد متعددون ، في عصور متعددة ، فيهزه الاول هزة تباعد ما بين احجاره ، ثم ينقض الثاني منه حجراً ، والثالث آخر ، وهكذا حتى لا يبقى منه حجر على حجر .

الجهلاء مرضى والعلماء اطباء ، ولا يجمل بالطبيب ان يحجم عن العمل الجراحي فراراً من ازعاج المريض، او خوفاً من صياحه وعويله ، او اتقاء لسبه وشتمه ، فانه سيكون غداً اصدق اصدقائه واحب الناس اليه .

وبعد : فقليل ان يكون الداعي في الأمة الجاهلة حبيباً اليها الا اذا كان خائناً في دعوته ، سالكا سبيل الرياء والمداهنة في دعوته ، وقليل ان ينال حظه من اكرامها واجلالها الا بعد ان تتجرع مرارة الدواء ثم تشعر بحلاوة الشفاء .

الدعاة في هذه الأمة كثيرون ملء الفضاء ، وكظة[1] الارض والسماء ، ولكن لا يكاد يوجد بينهم داع واحد ، لأنه لا يوجد بينهم شجاع واحد.

اصحاب الصحف وكتاب الرسائل والمؤلفون وخطباء الجامع وخطباء المنابر كلهم يدعون الى الحق ، وكلهم يعظون وينصحون ، ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ولكن لا يوجد بينهم من يستطيع ان يحمل في سبيل الدعوة ضراً ، او يلاقي في طريقها شراً .

رأيت الدعاة في هذه الامة اربعة : رجلا يعرف الحق ويكتمه عجزاً وجبناً ، فهو ساكت طول حياته لا ينطق بخير ولا شر ، ورجلا يعرف الحق وينطق به ولكنه يجهل طريق الحكمة والسياسة في دعوته ، فيهجم على النفوس بما يزعجها وينفرها ، وكان خيراً له لو صنع ما يصنعه الطبيب الماهر الذي يضع الدواء المر في «برشامة» ليسهل تناوله وازدراده، ورجلا لا يعرف حقاً ولا باطلا،فهو يخبط في دعوته خبط الناقة العشواء في بيدائها ، فيدعو الى الخير والشر والحق والباطل ، والضار والنافع ، في موقف واحد . فكأنه جواد امرىء القيس الذي يقول فيه :

* مكَرٍّ مفَرٍّ مُقبِلٍ مُدبِرٍ مَعاً *

ورجلا يعرف الحق ويدعو الأمة الى الباطل دعوة المجد المجتهد ، وهو أخبث الاربعة واكثرهم غائلة ، لأنه صاحب هوى يرى أنه لا يبلغ غايته منه الا اذا أهلك الأمة في سبيله ، فهو عدوّها في ثياب صديقها ،

(١) الكظة : البطنة .

لأنه يوردها موارد التلف والهلاك باسم الهداية والإرشاد . فليت شعري من أي واحد من هؤلاء الاربعة تستفيد الأمة رشدها وهداها ؟ !

ما اعظم شقاء هذه الأمة وأشد بلاءها ؛ فقد اصبح دعاتها في حاجة الى دعاة ، ينيرون لهم طريق الدعوة ، ويعلمونهم كيف يكون الصبر والاحتمال في سبيلها . فليت شعري متى يتعلمون ، ثم يرشدون ؟

●

الحياة الذاتية

اكثر الناس يعيشون في نفوس الناس اكثر مما يعيشون في نفوس أنفسهم أي أنهم لا يتحركون ولا يسكنون ، ولا يأخذون ولا يدعون الا لأن الناس هكذا يريدون .

حياة الإنسان في هذا العالم حياة ضمنية مدّخلة في حياة الآخرين ، فلو فتش عنها لا يجد لها أثراً الا في عيون الناظرين، وآذان السامعين ، وأفواه المتكلمين .

يخيل اليّ ان الانسان لو علم ان سيصبح في يوم من أيام حياته وحيداً في هذا العالم لا يجد بجانبه أذناً تسمع صوته ، ولا عيناً تنظر شكله ، ولا لساناً يردد ذكره ؛ لآثر الموت على الحياة عله يجد في عالم غير هذا العالم ـ من آذان الملائكة او عيون الجنة ـ مقاعد يقتعدها فيطيب له العيش فيها.

اذا كانت حياة كل إنسان متلاشية في حياة الآخرين ، فاي مانع يمنعني من القول بأن تلك الحياة التي نحسبها متكثرة متعددة ، إنما هي

حياة واحدة يتفق جوهرها ، وتتعدد صورها ، كالبحر المائج نراه على البعد فنحسبه طرائق قددا ، ونحسب كل موجة من امواجه قسماً من اقسامه ، فاذا دنونا منه لا نرى غيره ، ولا نجد لجزء من اجزائه حيزاً مستقلا ، ولا وصفاً ثابتاً .

لا يحيا في هذا العالم حياة حقيقية ، الا ذلك الشاذ الغريب في شؤونه واطواره وآرائه واعماله ، الذي كثيراً ما نسميه مجنوناً ، فان رضينا عنه بعض الرضا سميناه فيلسوفاً ، ونريد بذلك أنه نصف مجنون ، فهو الذي يتولى شأن الانسان ، وتغيير نظاماته وقوانينه ، وينتقل به من حال الى حال بما يغير من عاداته ويحول من افكاره .

أية قيمة لحياة امرىء ، لا عمل له فيها الا معالجة نفسه على الرضا بما يرضى به الناس ، فيأكل ما لا يشتهي ، ويصدف نفسه عما تشتهي ، ويسهر حيث لا يستعذب طعم السهر ، وينام حيث لا يطيب له المنام ، ويلبس من اللباس ما يحرج صدره ، ويقصم ظهره ، ويشرب من الشراب ما يحرق امعاءه ، ويأكل احشاءه ، ويضحك لما يبكي ويبكي لما يضحك ، ويبتسم لعدوه ، ويقطب في وجه صديقه ، وينفق في دراسة ما يسمونه علم السلوك – أي علم المداهنة والملق – زمناً لو انفق عشر مشعاره في دراسة علم من العلوم النابغة لكان نابغته المبرّز فيه حرصاً على رضاء الناس ، وازدلافاً الى قلوبهم .

ليست شهوة الخمر من الشهوات الطبيعية المركبة في غرائز الناس فلو لم يذوقوها لما طلبوها ولا كلفوا بها ، وما جناها عليهم الا كلف

تاركيها برضاء شاربيها ، وما كان الترف خلقاً من الاخلاق الفطرية في الانسان ولكن كلف المتقشفون برضاء المترفين فترفوا ، فحملوا في ذلك السبيل من شقاء العيش وبلائه واثقال الحياة وأعبائها ، ما نغص عليهم عيشهم وافسد عليهم حياتهم ، وإنك لترى الرجل العاقل الذي يعرف ما يجب ويعلم ما يأخذ وما يدع ، يبيع منزله في نفقة عرس ولده او ابنته ، فلا تجد لفعله تأويلا الا خوفه من سخط الناس واتقاءه مذمتهم ، وكثيراً ما قتل الخوف من سخط الناس والكلف برضاهم ذكاء الاذكياء ، وأطفأ عقول العقلاء ، وكم رأينا من ذكي يظل طول حياته خاملا متلففاً لا يجرؤ على اظهار أثر من آثار فطنته وذكائه مخافةهزء الناس وسخريتهم، وعاقل لا يمنعه من الاقدام على اصلاح شأن أمته وتقويمها الا سخط الساخطين ونقمة الناقمين .

وما اعجبت برجل في حياتي إعجابي باديب من أدباء هذه الأمة يكتب الرسالة التي يريد كتابتها بينه وبين نفسه ثم يدلي بها الى صحيفة من الصحف أية كانت ثم يمضي لسبيله كأنه ما صنع شيئاً ، فلا يسير وراءها سير المتسمع المتجسس ليعلم ما رأى الناس فيها ، وما حديثهم عنها ، وهل سخطوا عليها ، او رضوا بها ؟ ولا يمسي متنقلا في المجامع والاندية ، مسائلا عنها كل غاد ورائح ، ليجد خيراً فيضحك ويستبشر ، او شراً فيبكي ويبتئس ، بل كثيراً ما رأيته يسمع حديث الناس عنه في حالي رضاهم وسخطهم ساكناً هادئاً ، كأنما يتحدثون عن غيره ، ويعنون شخصاً سواه ، حتى كدت أتخيل ألا فرق عنده بين : احسنت واجدت ،

وأسات وأخطات ، بل قلما رأيته على كثرة لصوقي به ، وتفقدي مواقع سمعه وبصره يقرأ ما تكتبه الصحف عنه، وما تعلقه غلو آرائه وافكاره، من مدح او ذم ، حتى كدت احمل تلك الحال الغريبة من أمره على البله والغفلة ، او العظمة والكبرياء ، لولا أني فاتحته مرة في ذلك وسألته : لم لا تحفل برأي الكتاب فيك ، ولمَ لا تقرأ ما يكتبون عنك ؟ فأجاب : إنني ما اقدمت على الكتابة للناس في اصلاح شؤونهم ، وتقويم معوجهم ، الا بعد ان عرفت أني استطيع ان انزل منهم منزلة المعلم من المتعلم ، للناس خاصة وعامة ، أما خاصتهم فلا شأن لي معهم ، ولا علاقة لي بهم ، ولا دخل لكلمة من كلماتي في شان من شؤونهم ، فلا افرح برضاهم ، ولا اجزع لسخطهم ، ولأني لم أكتب لهم ، ولم أتحدث اليهم ، ولم أشهدهم أمري ، ولم أحضرهم عملي ، بل أنا أتجنب جهد المستطيع ان أستمع منهم كل ما يتعلق بي من خير او شر ، لأني راض عن طريقتي التي اكتب بها رسائلي ، فلا أحب ان يكدرها عليَّ مكدر ، وعن آرائي التي أودعها إياها ، فلا أحب ان يشككني فيها مشكك ،ولم يهبني الله من قوة الفراسة ما استطيع ان أميز بين مخلصهم ومشوبهم ، فأقبل على الاول لأستفيد علمه ، وأعرض عن الثاني لأتقي غشه ؛ فأنا أسير بينهم مسير رجل بدأ يقطع مرحلة لا بد له ان يفرغ منها في ساعة محدودة ، ثم علم ان على يمين الطريق الذي يسلكه روضة غناء تعتنق أغصانها وتشتجر أفنانها وتغرد أطيارها وتتالق ازهارها ، وان على يساره غاباً تزأر أسوده ، وتعوي ذئابه ، وتفح أفاعيه وصلاله ، فمشى قدماً لا يلتفت يمنة مخافة ان يلهو

عن غايته بشهوات سمعه وبصره ؛ ولا يسرة مخافة ان يهيج بنظراته فضول تلك السباع المقعية والصلال الناشرة فتعترض دون طريقه ، وأما عامتهم : فهم بين ذكيّ قد وهبه الله من سلامة الفطرة وصفاء القلب وسلامة الوجدان ما يعدّه لاستماع القول واتباع أحسنه ؛ فانا أحمد الله في أمره ؛ وضعيف قد حيل بينه وبين نفسه فهو لا يرضى إلا عما يعجبه ، ولا يسمع الا ما يطربه ، فاكل أمره الى الله واستلهمه صواب الرأي فيه حتى يجعل له من بعد عسر يسراً ؛ فانا إنما اكتب للناس لا لأعجبهم ، بل لأنفعهم ، ولا لأسمع منهم انت أحسنت ، بل لأجد في نفوسهم أثراً مما كتبت ، فلو ان هذه الملايين الاثنى عشر التي يحتضنها هذان الجبلان أجمعت أمرها على الإعجاب بي والرضا عني ، ثم رأيت من بينها رجلاً واحداً ينتفع بما أقول ، لكان الواحد المستفيد آثر في نفسي من الملايين المعجبين ، أتدري لمَ عجز كتاب هذه الأمة عن إصلاحها ؟ لأنهم يظنون أنهم لا يزالون حتى اليوم طلبة يتعلمون في مدارسهم وأنهم جالسون بين يدي أساتذة اللغة يتلقون عنهم دروس البيان ؛ فترى واحداً منهم يكتب وهمه المالىء قلبه ان يعجب اللغويين ، او يروق المنشئين ، او يطرب الادباء ،او يضحك الظرفاء ،ولا يدخل باب أغراضه ومقاصده ان يتفقد المسلك الذي يجب ان يسلكه الى قلوب الذين يقول إنه يعظهم او ينصحهم او يهذبهم او يثقفهم ، ليعلم كيف ينفذ الى نفوسهم ؛ وكيف يهجم على قلوبهم وكيف يملك ناصية عقولهم؛ فيعدل بها عن ضلالها الى هداها ،وعن فسادها الى صلاحها،فمثله كمثل الفارس الكذاب الذي تراه حاملاً سيفه كل

يوم الى الجوهري ليرصع له قبضته او الحداد ليشحذ له حدّه ، او الصقيل ليجلو له صفحته ، ولا تراه يوماً في ساحة الحرب ضارباً به .

نعم قد يكون الولع برضاء الناس والخوف من سخطهم مذهباً من مذاهب الخير وطريقاً من طرق الهداية للضال عنها لو ان الفضيلة هي الخلق المنتشر فيهم ، والغالب على أمرهم ، ولو كان الأمر كذلك لآثرت ان يعرض المرء نفسه على الفضيلة ذاتها من حيث هي ، لا من حيث تشخيصها في أذهان الناس وقولهم، فاذا استوثق منها وعلم أنها قد خالطت قلبه وأخذت مستقرها من نفسه جعلها ميزاناً يزن به أقواله وأفعاله كما يزن به أقوال الناس وافعالهم، ثم لا يبالي بعد ذلك أرضوا عنه أم سخطوا عليه ، أحبوه أم أبغضوه ، فإنما يبكي على الحب النساء .

العبرات

كنت أغبط نفسي على التجلد والصبر ، واحسبني قادراً على الاستمساك في كل رزء مهما جلّ شانه ، وعظم وقته ، فلما مات «مصطفى كامل» علمت ان من الرزايا ما لا يطاق احتماله ، ولا يستطاع تجرعه .

كل يوم نرى الموت ، ولا نزال نعد الموت غريباً ، هيهات ! لا غرابة في الموت ، ولكن الغريب موت الرجل الغريب .

كل يوم تمر بنا قوافل الموتى فلا نابه لها ، واكبر نصيبها منا الحوقلة والاسترجاع ، فلما مرت قافلة «مصطفى كامل» دهشنا وجزعنا ، لانه كان غريباً في حياته ، فأحرى ان يكون غريباً في مماته .

مات «مصطفى كامل» فعرفنا الموت ، وما كنا نعرفه قبل ذلك ، لاننا ما كنا نرى الا أمواتاً ينقلون من ظهر الارض الى بطنها . أما «مصطفى كامل» فكان حياً حياة حقيقية ، فكان موته كذلك .

لا يحسب الكاتبون أنهم صنعوا شيئاً اذا بذلوا لذلك الرجل العظيم

قطرة من المداد ، ولا الباكون أنهم أبلوا بلاء حسناً اذا بذلوا له قطرة من الدمع ، فانه كان يبذل لهم ماء حياته قطرة فقطرة حتى أفناه ،ومضى لسبيله وشتان ما بين صنيعهم وصنيعه .

اين قطرات الدموع التي يريح بها الباكون أنفسهم ، او قطرات المداد التي يرصع بها الكتاب بياض صحائفهم ، من قطرات الحياة التي أراقها « مصطفى كامل » في سبيل وطنه وأمته ؟

كان « مصطفى كامل » سراجاً كبير الشعلة ،وكل سراج تكبر شعلته يفرغ زيته وشيكاً ، وتحترق ذبالته ، فينطفىء نوره .

كان « مصطفى كامل » نشيطاً سريع الحركة فقطع جسر الحياة في لحظة واحدة .

كان الوطنيون قبل اليوم يتكلمون ، فلما صاح « مصطفى كامل » وأسمع في صياحه عرفوا ان آذان السياسة لا يخترقها الا الصوت الجهوري، ولولاه ما كانوا يعرفون .

كان الوطنيون يحتقرون أنفسهم ويسيئون الظن به ، فلا يصدقون ان تربة مصر تنبت أمثال «فولتير» وهوجو ،وغاريبالدي» وواشنطون» فلما نبغ بينهم « مصطفى كامل » عرفوا ان تربة الشرق لا تختلف كثيراً عن تربة الغرب لو تعهدها الزارعون .

كان لمصطفى كامل أنامل أشبه شيء بريشة الموسيقار يضرب بها على اوتار القلوب ، وكانما كان بينه وبينها سلك كهربائي ، فهي تتحرك

بحركته وتسكن بسكونه .

ما كان « مصطفى كامل » أذكى الناس ، ولا أعلم الناس ، ولا أعقل الناس ولكنه كان اشجع الناس .

كان يفكر فيقتنع فيصمم فيمضي فلا ينثني حتى الموت، كان يخطىء احياناً في اتخاذ الوسائل الى آماله ، ولكنه كان اذا اتخذها لا يتمهل ريثما يتبين أي طريق يأخذ ، ولا أي مسلك يسلك ، مخافة ان تفتر همته بين الاخذ والرد ، فيكون خطؤه في تردده اكثر من خطئه في جهاده .

كان له منافسون يرمونه بالخفة والطيش ويقولون له : إنك مخطىء او مضر ، او غير محسن ، او غير عظيم ، فما كان يصدق من ذلك شيئاً كأنما كان ينظر بعين الغيب الى هذا اليوم الذي اتفق فيه اصدقاؤه وأعداؤه ، وخصومه واولياؤه ، على أنه رجل عظيم .

ما كان « مصطفى كامل » من الاغنياء ، ولا من بيت المُلك ، وما كان آمراً ولا ناهياً . ولا رافعاً ولا خافضاً . ولكنه لقي من إجلال الناس لموته وإعظامهم لمصيبته .. ما لم يلق واحد من هؤلاء ، ولا فضل لهم في ذلك عليه ، فهو الذي علمهم كيف يحترمون العقول ، ويجلون المناقب والمزايا .

فيا أيها القارىء الكريم : ان كان لك ولد تحب ان تجعله رجلا فاجعل بين يديه حياة « مصطفى كامل » ليتعلم منها الشجاعة والإقدام .

ويا أيها المصري : كن احرص الناس على وطنيتك .. ولا تبغ بها

بدلاً من عرض الدنيا وزخرفها .. فانك ان فعلت كنت « مصطفى كامل » .

ويا أيها الإنسان : أقدم على عظائم الامور ،ولا تلتفت يمنة ولا يسرة واخترق بسيف شجاعتك صفوف المعترضين والناقمين والهازئين والساخرين فانهم سيعترفون بفضلك ، ويسمونك عظيماً كما سموا « مصطفى كامل » .

ويا أيها الراحل المودع : ان بين جنبي لوعة تعتلج لفراقك لا اعرف سبيلا الى التعبير عنها الا القلم .

وهانذا اعالج القلم علاجاً شديداً على ان يسعفني بحاجتي ، وأقلبه ظهراً لبطن ، واكثر من استمداده ، واضغط به على القرطاس ضغطاً شديداً ، فلا أراه يغني عني شيئاً .

خطر لي ان الحزن سويداء القلب ، وأنه بعيد الغور ولا تبلغه هذه الأداة القصيرة التي في يدي ، فاستبدلت بها أداة اطول منها ، فكان حكمها حكم سابقتها .

إذن كيف أعبر عن وجدي أيها الفقيد الكريم ، وقد خرس القلم وعي اللسان ؟

الآن عرفت السبيل ووصلت الى ما أريد .

انت الآن في عالم الأرواح .. وقد إنكشف لك كل شيء من أسرار النفوس ودخائل القلوب ،ولا بد ان يكون قد انكشف لك ما يكن قلبي

من الوجد عليك .. والأسف على فراقك .. فما حاجتي بعد ذلك الى ترجمة القلم او تعبير اللسان .

أيها الراحل المودع : طبت حياً وميتاً ، خدمت أمتك في حياتك وبعد مماتك ، ولولا حياتك ما نمت العاطفة الوطنية في نفوس المصريين ، ولولا مماتك ما عرف العالم أجمع ان الأمة المصرية على اختلاف مشاربها ومذاهبها تجمعها كلمة واحدة هي حب الوطن وحب رجاله العاملين .

●

دمعة على الاسلام

كتب إليّ أحد علماء الهند كتاباً يقول فيه: إنه اطلع على مؤلف ظهر حديثاً بلغة «التاميل»، وهي لغة الهنود الساكنين بناقور وملحقاتها بجنوب مدراس.. موضوعه: تاريخ حياة السيد عبد القادر الجيلاني، وذكر مناقبه وكراماته، فرأى فيه من الصفات والالقاب التي وصف بها الكاتب السيد عبد القادر ولقبه بها صفاتاً وألقاباً هي بمقام الالوهية أليق منها بمقام النبوّة.. فضلا عن مقام الولاية كقوله «سيد السموات والارض» و «النفاع الضرار» و «المتصرف في الاكوان» و «المطلع على اسرار الخليقة» و «محيي الموتى» و «مبرىء الاعمى والابرص والاكمة» و «أمره من أمر الله» و «ماحي الذنوب» و «دافع البلاء» و «الرافع الواضع» و «صاحب الشريعة» و «صاحب الوجود التام» الى كثير من امثال هذه النعوت والالقاب!

ويقول الكاتب: إنه رأى في ذلك الكتاب فصلا يشرح فيه المؤلف

الكيفية التي يجب ان يتكيف بها الزائر لقبر السيد عبد القادر الجيلاني يقول فيه : « أول ما يجب على الزائر : يتوضأ وضوءاً سابغاً ، ثم يصلي ركعتين بخشوع واستحضار ، ثم يتوجه الى تلك الكعبة المشرفة .. وبعد السلام على صاحب الضريح المعظم يقول :

« يا صاحب الثقلين .. أغثني وأمدني بقضاء حاجتي .. وتفريج كربتي . أغثني يا محي الدين عبد القادر .. أغثني يا ولي عبد القادر .. أغثني يا سلطان عبد القادر .. أغثني يا بادشاه عبد القادر .. أغثني يا خوجة عبد القادر » .

« يا حضرة الغوث الصمداني ، يا سيدي عبد القادر الجيلاني ، عبدك ومريدك مظلوم عاجز محتاج اليك في جميع الأمور في الدين والدنيا والآخرة » .

ويقول الكاتب ايضاً : ان في بلدة (ناقور) في الهند قبراً يسمى « شاه الحميد » ، وهو أحد اولاد السيد عبد القادر - كما يزعمون - وان الهنود يسجدون بين يدي ذلك القبر سجودهم بين يدي الله .. وان في كل بلدة من بلدان الهنود وقراها مزاراً يمثل مزار السيد عبد القادر .. فيكون القبلة التي يتوجه اليها المسلمون في تلك البلاد والملجأ الذي يلجأون في حاجاتهم وشدائدهم اليه .. وينفقون من الاموال على خدمته وسدنته .. وفي موالده وحضراته ما لو أنفق على فقراء الارض جميعاً لصاروا اغنياء.

هذا ما كتبه اليّ ذلك الكاتب .. ويعلم الله أني ما أتممت قراءة رسالته حتى دارت بي الارض الفضاء ، وأظلمت الدنيا في عيني .. فما أبصر مما

حولي شيئاً .. حزناً واسفاً على ما آلت اليه حالة الإسلام بين اقوام أنكروه بعد ما عرفوه ، ووضعوه بعد ما رفعوه .. وذهبوا به مذاهب لا يعرفها .. ولا شان له بها .

أي عين يجمل بها ان تستبقي في محاجرها قطرة واحدة من الدمع فلا تريقها أمام هذا المنظر المؤثر المحزن ، منظر اولئك المسلمين ، وهم ركع سجد على اعتاب قبر ربما كان بينهم من هو خير من ساكنه في حياته . فاحرى ان يكون كذلك بعد مماته !

أي قلب يستطيع ان يستقر بين جنبي صاحبه ساعة واحدة فلا يطير جزعاً حينما يرى المسلمين اصحاب دين التوحيد اكثر من المشركين اشراكاً بالله ، واوسعهم دائرة في تعدد الآلهة وكثرة المعبودات !

لم ينقم المسلمون التثليث من المسيحيين .. لم يحملون لهم في صدورهم تلك الموجدة وذلك الضغن ، وعلام يحاربونهم ، وفيم يقاتلونهم وهم لم يبلغوا من الشرك بالله مبلغهم ، ولم يغرقوا فيه إغراقهم ! ؟

يدين المسيحيون بآلهة ثلاثة ، ولكنهم يشعرون بغرابة هذا التعدد وبعده عن العقل . فيتأولون فيه ويقولون ان الثلاثة في حكم الواحد ، أما المسلمون فيدينون بالاف من الآلهة اكثرها جذوع اشجار ، وجثث اموات ، وقطع احجار ، من حيث لا يشعرون ! .

كثيراً ما يضمر الإنسان في نفسه أمراً وهو لا يشعر به ، وكثيراً ما تشتمل نفسه على عقيدة خفية لا يحس باشتمال نفسه عليها ، ولا أرى مثلاً

لذلك اقرب من المسلمين الذين يلتجئون في حاجاتهم ومطالبهم الى سكان القبور ويتضرعون اليهم تضرعهم للإله المعبود فاذا عتب عليهم في ذلك عاتب ، قالوا : إنا لا نعبدهم ، وإنما نتوسل بهم الى الله ، كأنهم يشعرون ان العبادة ما هم فيه ، وان اكبر مظهر لألوهية الإله المعبود ان يقف عباده بين يديه ضارعين خاشعين ، يلتمسون إمداده ومعونته ، فهم في الحقيقة عابدون لأولئك الاموات من حيث لا يشعرون .

جاء الإسلام بعقيدة التوحيد ليرفع نفوس المسلمين ، ويغرس في قلوبهم الشرف والعزة والأنفة والحمية ، وليعتق رقابهم من رق العبودية، فلا يذل صغيرهم لكبيرهم ولا يهاب ضعيفهم قويهم،ولا يكون لذى سلطان بينهم سلطان إلا بالحق والعدل . وقد ترك الإسلام بفضل عقيدة التوحيد ذلك الأثر الصالح في نفوس المسلمين في العصور الأولى ، فكانوا ذوي أنفة وعزة ،وإباء وغيرة ، يضربون على يد الظالم اذا ظلم ،ويقولون للسلطان اذا جاوز حده غيرها سلطانه : قف مكانك، ولا تغل في تقدير مقدار نفسك ، فإنما انت عبد مخلوق لا رب معبود ، واعلم أنه لا إله إلا الله .

هذه صورة من صور نفوس المسلمين في عصر التوحيد ، أما اليوم وقد داخل عقيدتهم ما داخلها من الشرك الباطن تارة والظاهر أخرى ، فقد ذلت رقابهم ، وخفقت رؤوسهم ، وضرعت نفوسهم ، وفترت حميتهم ، فرضوا بخطة الخسف ، واستناموا الى المنزلة الدنيا ، فوجد اعداؤهم السبيل اليهم ، فغلبوهم على أمرهم ، وملكوا عليهم نفوسهم واموالهم ومواطنهم وديارهم فاصبحوا من الخاسرين .

والله لن يسترجع المسلمون سالف مجدهم ، ولن يبلغوا ما يريدون لأنفسهم من سعادة الحياة وهناءتها الا اذا استرجعوا قبل ذلك ما اضاعوه من عقيدة التوحيد ، وان طلوع الشمس من مغربها ، وانصباب ماء النهر في منبعه ، اقرب من رجوع الإسلام الى سالف مجده ، ما دام المسلمون يقفون بين يدي الجيلاني كما يقفون بين يدي الله ، ويقولون للأول كما يقولون للثاني : « انت المتصرف في الكائنات ، وانت سيد الأرضين والسموات » .

ان الله أغير على نفسه من ان يسعد أقواماً يزدرونه ويحتقرونه ويتخذونه وراءهم ظهرياً ، فاذا نزلت بهم جائحة ، او ألمت بهم ملمة . ذكروا الحجر قبل ان يذكروه ، ونادوا الجذع قبل ان ينادوه .

بمن أستغيث ؟ وبمن أستنجد ؟ ومن الذي أدعوه لهذه الملمة الفادحة ! أأدعو علماء مصر وهم الذين يتهافتون على « يوم الكنسة [1] » تهافت الذباب على الشراب؟أم علماء الآستانة وهم الذين قتلوا جمال الدين الأفغاني فيلسوف الإسلام ليحيوا أبا الهدى الصيادي شيخ الطريقة الرفاعية ! أم علماء العجم وهم الذين يحجون الى قبر الإمام كما يحجون الى البيت الحرم ، أم علماء الهند وبينهم امثال مؤلف هذا الكتاب .

يا قادة الامة ورؤساءها ، عذرنا العامة في إشراكها وفساد عقائدها ، وقلنا ان العامي اقصر نظراً واضعف بصيرة من ان يتصور الألوهية إلا اذا رآها ماثلة في النصب والتماثيل والاضرحة والقبور ، فما عذركم أنتم

(١) يوم يذهب فيه علماء الدين الى ضريح الإمام الشافعي للتبرك بكنس ترابه .

وأنتم تتلون كتاب الله ، وتقرؤون صفاته ونعوته ، وتفهمون معنى قوله تعالى « قل لا يعلم من في السموات والارض الغيب الا الله » وقوله مخاطباً نبيه : « قل لا املك لنفسي نفعاً ولا ضراً » وقوله « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » .

إنكم تقولون في صباحكم ومسائكم وغدوكم ورواحكم : « كل خير في اتباع من سلف ، وكل شر في ابتداع من خلف » فهل تعلمون ان السلف الصالح كانوا يخصصون قبراً ، او يتوسلون بضريح ؟ وهل تعلمون ان واحداً منهم وقف عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، او قبر احد من اصحابه وآل بيته ، يساله قضاء حاجة ، او تفريج هم ؟ وهل تعلمون ان الرفاعي والدسوقي والجيلاني والبدوي أكرم عند الله واعظم وسيلة اليه من الأنبياء والمرسلين ، والصحابة والتابعين؟ وهل تعلمون ان النبي صلى الله عليه وسلم حينما نهى عن إقامة الصور والتماثيل نهى عنها عبثاً ولعباً ؟ أم مخافة ان تعيد للمسلمين جاهليتهم الأولى ؟ وأي فرق بين الصور والتماثيل وبين الاضرحة والقبور ، ما دام كل منهما يجر الى الشرك ، ويفسد عقيدة التوحيد ؟

والله ما جهلتم شيئاً من هذا ، ولكنكم آثرتم الحياة الدنيا على الآخرة فعاقبكم الله على ذلك بسلب نعمتكم ، وانتقاض أمركم ، وسلط عليكم اعداءكم يسلبون اوطانكم ، ويستعبدون رقابكم ، ويخربون دياركم ، والله شديد العقاب .

السياسية

حضرة السيد الفاضل :

ما لـك لا تكثر من الكتابة في الشؤون السياسية ، إكثارك منهـا في الشؤون الأخلاقية والاجتماعية ؟ وكيف يضيـق بالسياسة قلمك ، وقـد وسع ما هو أدق مذهباً منهـا ، فاكتب لنـا في السياسة ، فأمتك تحب ان تراك سياسياً ، والسلام .

« فلان »

أيها الكاتب :

يعلم الله أني ابغض السياسة واهلها بغضي للكذب والغش ، والخيانة والغدر .

أنـا لا أحب ان اكون سياسياً ، لأني لا احب ان اكون جـلاداً ، لا فرق عنـدي بـين السياسيين والجلادين ، الا ان هؤلاء يقتلون الافراد ، واولئك يقتلون الامم والشعوب .

هل السياسي الا رجل قد عرفت أمته أنه لا يوجد بين افرادها من هو أقسى منه قلباً ، ولا اعظم كيداً ، ولا اكثر دهاء ومكراً ، فنصبته للقضاء على الامم الضعيفة ، وسلبها ما وهبها الله من الحسنات ، واجزل لها من الخيرات ؟

أليس اكبر السياسيين مقاماً ، واعظمهم فخراً ، واسيرهم ذكراً ، ذلك الذي نقرأ صفحات تاريخه فنرى حروفها أشلاء القتلى ، ونقطها قطرات الدماء ؟

أيستطيع الرجل ان يكون سياسياً الا اذا كان كاذباً في اقواله وافعاله ، يبطن ما لا يظهر ويظهر ما لا يبطن، ويبسم في موطن البكاء ، ويبكي في مواطن الابتسام ؟

أيستطيع الرجل ان يكون سياسياً .. الا اذا عرف ان بين جنبيه قلباً متحجراً لا يقلقه بؤس البائسين ولا ترعجه نكبات المنكوبين ؟

كثيراً ما يسرق السارق ، فاذا قضى ماربه من عمله .. رفع يديه الى السماء متضرعاً الى الله تعالى ان يرزقه المال حلالاً حتى لا يتناوله حراماً ، وكثيراً ما يقتل القاتل ، فاذا فرغ من أمره ، جلس بجانب قتيله يبكي عليه بكاء الثاكل وحيدها ،ويتمنى بجدع الأنف لو رد اليه حياته ،وافتداه بنفسه . أما السياسي فلا يرى يوماً في حياته اسعد من اليوم الذي يعلم فيه ان قد تم له تدبيره في هلاك شعب . وقتل أمة ، وآية ذلك أنه في يوم انتصاره ــ كما يسميه هو ــ او في يوم جريمته ــ كما اسميه انا وتسميه العدالة الإنسانية ــ يسمع هتاف الهاتفين باسمه ، واسم الجريمة التي ارتكبها

مطمئن القلب ، مثلج الصدر ، حتى ليخيل اليه ان الفضاء بارضه وسمائه اضيق من ان يسع قلبه الطائر المحلق فرحاً وسروراً .

يقولون : ان السياسة ليست علماً من العلوم التي يتلقاها الإنسان في مدرسة او يدرسها في كتاب ، وإنما هي مجموعة افكار قانونها التجارب ، وقاعدتها العمل .. اتدري لماذا ؟

لأن العلماء اشرف من ان يدونوا المكايد والحيل في كتاب .. ولأن المدارس اجل من ان تجعل بجانب دروس الاخلاق والآداب ، دروس الاكاذيب والاباطيل ، والا فكل طائفة من المعلومات المتشابهة تدخل بطبيعتها تحت نظام عام يؤلفها ، ويجمع شتاتها ، ويسمى علماً .

هؤلاء هم السياسيون ، وهذه هي اخلاقهم وغرائزهم ، فهل تظن يا سيدي ان رجلا نصب نفسه لخدمة الحقيقة ، ومناصرتها على الباطل ، واستنقاذ الفضيلة من مخالب الرذيلة ، ووقف قلمه على تهذيب النفوس وترقية الاخلاق ..وملأ في رسائله فضاء الارض والسماء بكاء على الضعفاء والمساكين والمظلومين والمضطهدين ، يستطيع ان يكون سياسياً ، او محاسباً للسياسيين ؟

*

خداع العناوين

لقد جهل الذين قالوا : ان الكتاب يعرف بعنوانه .. فاني لم أرى بين كتب التاريخ اكذب من كتاب « بدائع الزهور » ولا اعذب من عنوانه ، ولا بين كتب الأدب اسخف من كتاب « جواهر الأدب » ولا أر من اسمه ، كما لم أر بين الشعراء اعذب إسماً ، واحط شعراً من « ابن مليك » و « وابن النبيه » و « الشاب الظريف » .

لقد كثر الاختلاف بين العناوين وبين الكتب حتى كدنا نقول : ان العناوين أدل على نقائضها منها على مفهوماتها .. وألصق بأضدادها منها بمنطوقاتها ، وان العنوان الكبير حيث الكتاب الصغير ، والكتاب الجليل حيث العنوان الضئيل .

الأتقيـــاء :

لولا خداع العناوين مـا سمعنا صالحاً تقياً كل من حرك سبحته .. واطال لحيته ، ووسع جبته ، وكور عمامته ، ولقد نعلم ان وراء هذا

العنوان كتاباً اسود الصفحات كثير السقطات ، وان تحت هذا الستار الحريري الرقيق نفساً سوداء مظلمة ، لا ينفذ اليها شعاع من اشعة الرحمة ، ولا تهب عليها نسمة من نسمات الإحسان .

لن يؤمن المؤمن حتى يبذل في سبيل الله ، او في سبيل الجماعة من ذات نفسه ، او ذات يده ، ما يشق على مثله الجود بمثله ، أما الجود بالشفاه للهمهمة ، والانامل للمسبحة ، فعمل لا يتكلف صاحبه له اكثر مما يتكلف لتقليب ناظريه ، وتحريك هدبيه ، وهل خلقت الشفاه الا للتحريك ، والانامل الا للتقليب .

ان للإيمان مواقف يمتحن الله فيها عباده ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين ، فان بذل الضنين بماله في مواقف الرحمة والشفقة ، والشحيح بنفسه نفسه في سبيل الذود عن حوضه .. والذب عن عشيرته وقومه .. وضعيف العزيمة ما يملك من قوة وأيد في مغالبة شهوات نفسه ومقاومة نزواتها . فذلك المؤمن الذي لا يشوب إيمانه رياء ولا دهان ، ولا يخالط يقينه خداع ولا كذب او لا فاهون بهمهمته ومسواكه ومسبحته ، وهو بعنوان المنافق الكاذب اجدر منه بعنوان التقي الصالح « احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » .

الأمجاد :

يقولون ان الولد سر أبيه ، ويريدون بذلك أنه المرآة التي ترتسم فيها صورته ، والبذرة التي تكمن فيها حقيقته ، وعلى هذه القاعدة بنى البانون قاعدة المجد ، فاعظموا شأن الرجل الذي يمسك بطرف سلسلة في

النسب يتصل طرفها الأعلى بعظيم من عظماء النفوس ، او شريف من شرفاء الاخلاق .

ثم ما زال الناس يعبثون بعنوان الشرف ، ويتوسعون في معناه ، حتى نظموا في سلكه الجبابرة الذين يسمونهم أمراء ، والظلمة الذين يسمونهم ملوكا ، والسفاحين الذين يسمونهم قواداً ، واللصوص الذين يسمونهم أغنياء ، فساقهم الخطأ في فهم الشرف الى الخطأ في فهم المجد فسموا ماجداً كل من ولد في فراش ملك وان كان الحاكم بأمر الله ، او امير وان كان الحجاج ، او وزير وان كان ابن الزيات ، او قائد وان كان تيمورلنك ، او غني وان كان قارون .

لا مجد الا مجد العلم ولا شرف الا شرف التقوى ، ولا عظمة الا عظمة الآخذين بيد الإنسانية المعذبة ، رحمة بها وحناناً عليها .

اولئك هم الأمجاد، واولئك الذي يفخر الفاخر بالاتصال بهم، والانتماء اليهم ، واولئك هم المفلحون .

الأغنياء :

لم أر بين جماعة المتسولين الذين يضربون في الارض وراء لقمة يتبلغون بها او خرقة يتقون بها لفحة الرمضاء ، وهبة النكباء ، ولا بين البؤساء الذين يحرقون فحمة الليل بكاء ونحيباً على صغار كفراخ القطا يتلوون في مضاجعهم من الجوع تلوى الافاعي المضطربة فوق الرمال الملتهبة وتحت الشمس المحرقة ، اسوأ حالاً ولا أنكد عيشاً ، ولا اعظم

شقاء من هؤلاء الفقراء الذين يسميهم الناس اغنياء .

يأكل الموسر الباخل كما يأكل الفقير ، ويجلس كما يجلس ، وينام كما ينام ، ويشتهي كما يتشهى حتى لتكاد تثب امعاؤه من جوفه وتسيل احشاؤه من بين أشداقه . شوقاً الى ما حرم على نفسه من اطايب العيش ولذائذه ؛ ويستن [1] استنان الجواد الضامر في ميدان السبق وراء الدرهم البعيد مناله ، حتى تنبهر أنفاسه ، وتتخاذل اوصاله ، حتى لو تخيل ان نجوم السماء دنانير منثورة ، لطار اليها بغير جناح ، فسقط هاوياً ؛ او ان في بطن الارض كنزاً مذخوراً ، لتمنى ان لو انفجر بركانها تحت قدميه فابتلعته فأصبح من الهالكين .

الغني هو الغني بما في يده عما في أيدي الناس ، والفقير هو الذي لا يقنعه في هذه الحياة مقنع ؛ ولا تقف به نفسه عند مطمع .

فانظر تحت أي عنوان من هذين العنوانين تضع البخلاء الموسرين؟!

المجرمون :

حضرت مجلساً من مجالس الاحكام ، حكم فيه قاض مرتش على متهم سرق رغيفاً ، فوضعت يدي على فمي مخافة ان يخرج أمر نفسي من يدي فاهتف صارخاً لما ألم بقلبي من الرعب والفزع ،صرخة تدوي بها جوانب القاعة دوي الموج الثائر ، في البحر الزاخر قائلاً فيها : مهلاً رويداً أيها الحاكم الظالم، فانت الى قاض عادل تقف بين يديه، احوج منك الى كرسي

(١) استن الجواد : عدا عدواً شديداً ..

فخم تجلس عليه ، ولو عدل القانون بينك وبين هذا الماثل بين يديك لبت؛ وأعلا كما الاسفل .

إنـك ترتزق في كل شهر ثلاثـين ديناراً ، فـلم ترتش الا لأنك شره طماع ، ولم يسرق ذلك السارق الرغيف الا لأنه جائع مرتاع ، ولو ملك ثلاثين درهماً فقط ما فعل فعلته التي فعل ، فانت مجرم الا أنك في وشاح شريف ، وهو شريف الا أنه في شملة مجرم .

فيا لله للحقيقة التي عبثت بها القوانين ، ولعبت بعقول الناس فيها العناوين .

ربّ نفس بين جدران السجون اطهر قلباً ، وأنقى ردناً ، وابيض عرضاً ، من مثلها بين جدران القصور ، ورب طريدة من طرائد المجتمع الإنساني ساقها القدر الذي لا مفر منه الى وقفة بـين اعواد المشنقة ، كان أجدر بها ذلك المرابي الذي ينصب حبالة ماله لخراب البيوت العامرة ، وقتل النفوس الطاهرة ، او ذلك القائد الذي يسفك في موقف واحد من مواقفه دم مائة الف او يزيدون ، في غير سبيل سوى سبيل المجد المصنوع والفخر الموضوع ، او ذلك السياسي الذي يدبر المكيدة للقضاء على أمة ضعيفة آمنة في سربها ، سعيدة في عيشها ؛ فيستعبد احرارها ، ويستذل اعزاءها ، ثم يسلبها أثمن ما تملك يمينها من حريتها واستقلالها ، وسعادتها وهناءتها .

المتمدينون :

ليس بين المصري وبين ان يأخذ من إخوانه المصريين لقب الشاب

العصري او الإنسان الراقي الا ان يصقل جبهته ، ويصفف طرته ،ويفتح فمه للابتسام المتصنع ويقوّس يده للسلام المتعمل ، ويكثر في حديثه من ذكر المدنيــة الغربية وشؤونها ، وسرد اسمــاء نسائها ورجالها . وطرفها ونوادرها ، ويستحسن مــا تستحسنه ــ وان كانــ البراز والانتحار ــ ويستطرف ما تستطرفه ــ وان كان الزندقة والإلحاد ــ ثم يزعم أنه أرقى الناس أدباً ، وأحسنهم أخلاقاً ، وأدقهم نظراً في إدراك سقطات الناس وعثراتهم ، وتحليل طبائعهم وغرائزهم . ثم لا يحول تمدينه هذا بينه وبين ان يكون فاسقاً ينتهك الحرمات او مدمناً يترامى على اعتاب الحانات ، او احمق لا يصفح عن ذنوب ، ولا يغضى عن هفوة . وسفيهاً يشتم حتى أميره وسلطانه ، ووالده واستاذه ، او وقاح الوجه لا يستحي لمكرمة ، ولا يستخــذى لمــروءة ، وشحيحــاً لا يشرك صاحبــه في مطعم ولا في مشرب ، ولا يفتح بابه لضيف زائر او طارق حائر ، زاعماً ان التمدين شيء وذاك شيء آخر . ان كان حقاً مــا يقولون من ان التمدين يصقــل الطباع الخشنة ، وينير النفوس المظلمة ، ويهذب الاخلاق الجافية ويوسع الصدور الحرجة ، فكثير ممن ندعوهم متمدينين متوحشون ، وكثير ممن نسميهم همجيين مهذبون .

لو كانــ بي ان اكتب لمحو الفساد من المجتمع الانساني والقضاء عــلى شروره وآثامه لما حركت يــداً ، ولا جردت قلمــا ، لأني أعــلم ان طلب المحال عثرة من عثرات النفوس ، وضــلة من ضلالات العقول ، ولكنني

اطلب مطلباً واحداً ـ لا أرى في عقول الناس وأفهامهم ما يحول بينهم وبين تصوره وإدراكه ـ هو ان يهذبوا قليلاً من هذه المصطلحات التي أنسوا بها والعناوين التي جمدوا عليها ، فلا يسمون المنافق تقياً ، ولا المتمجد ماجداً ، ولا البخيل غنياً ، ولا الفقير مجرماً ، ولا المتوحش متمدينا ، حتى لا ينزع محسن عن إحسانه ، ولا يستمر مسيء في إساءته .

***

الاغراق

بين الإغراق في المدح والإغراق في الذم تموت الحقيقة موتاً لا حياة لها من بعده الى يوم يبعثون .

يسمع السامع ان زيداً ملك كريم ، ثم يسمع أنه شيطان رجيم ، فيخرج منه صفر اليدين ، لا يعلم اين مكانه من هذين الطرفين .

يقولون ان المشعوذين اذا أرادوا ان يسحروا أعين الناس علقوا في سقف من السقوف قطعة من المغناطيس ووضعوا مقابلها في الارض قطعة أخرى ثم يتركون في الفضاء قطعة من الحديد لا تزال تضطرب بين هذين الجاذبين .

هكذا تضطرب الحقيقة في أيدي المغرقين اضطراب الحديد في أيدي المشعوذين .

الحقيقة بين الكاذب والكاذب ، كالجبل بين الجاذب والجاذب ، كلاهما ينتهي به الأمر الى الانقطاع .

لو علم الذي ينصب نفسه للموازنة بين الاشخاص أنه جالس على كرسي القضاء ، وان الناس سيسالونه عما قال ، كما يسالون القاضي عما حكم ، ما طاش سهمه في حكمه ، ولا ركب متن الغلو في تقديره .

كما أنه يجب على القاضي ان يقدر لكل جريمة ما يناسبها من العقوبة، كذلك يجب على الكاتب ان يضع كل شخص في المنزلة التي وضعته فطرته فيها ، وان لا يعلو به فوق قدره ، ولا ينزل به دون منزلته .

ليس بين كتاب هذا العصر من لم يقرأ في التاريخ القديم متناقضات الحكم على الاشخاص ، وليس بينهم من لم يتمن ان يكون في موضع اولئك المؤرخين المتطرفين ، حتى لا يغلو غلوهم ، ولا يتطرف تطرفهم في أحكامهم .

أيها الكتاب المحزونون : لا يحزنكم ما كان ، فقضى ذلك الزمان بخيره وشره ، ولا سبيل الى رجوعه ، ولئن فاتكم ان تكونوا مؤرخي العصر الماضي ، فلن يفوتكم ان تكونوا مؤرخي العصر الحاضر ، وكما ان للماضي مستقبلاً وهو حاضركم هذا ، فسيكون لهذا الحاضر مستقبل آت يحاسبكم فيه رجاله على إغراقكم في أحكامكم ، كما تحاسبون اليوم رجال الماضي على غلوهم في أحكامهم ، وتطرفهم في آرائهم .

ان من المتناقض بين أقوالكم وأعمالكم ان تنقموا من المؤرخين المتقدمين ما أنتم فاعلون اليوم ، وتاخذوا عليهم ما أنتم به آخذون .

كل كاتب عندكم أكتب الكتاب وكل شاعر أشعر الشعراء ، وكل

مؤلف أعلم العلماء ، وكل خطيب رئيس الأمة ؛ وكل فقيه إمام الدين ، فاين الفاضل والمفضول ؟ واين الرئيس والمرؤوس ، وكيف يكون زيد اليوم أفضل من عمرو ، ويكون عمرو غداً أفضل منه ؛ واين ملكة التمييز التي وهبكم الله إياها لتميزوا بها بين درجات الناس ومنازلهم ؟ وهل بلغ التفاوت بينكم في عقولكم وأذواقكم ان يكون الرجل الواحد في نظر بعضكم خير الناس وفي نظر البعض الآخر شر الناس ؟ !

إني حبست الآن قلمي عن الكتابة لأتجرد من نفسي ساعة من الزمان، فتخيلت كأني رجل من رجال العصور الآتية ، وأني ذهبت الى دار من دور الكتب القديمة لأراجع تاريخ أحد عظماء عصركم هذا ، فقرأت ما كتبتموه عنه في كتبكم وجرائدكم ، فرأيته تارة عظيما وأخرى حقيراً ، ومرة شريفاً ، ومرة وضيعاً ، ورأيته عالماً وجاهلاً ، وذكياً وغبياً ، وعاقلاً وممروراً [1] في آن واحد فخرجت أضل مما دخلت ، لا أعرف من تاريخ الرجل اكثر من أنه رجل ، أي أنه ذكر بالغ من بني آدم !

أيها القوم : إنكم لا تستطيعون ان تكونوا رجالاً عادلين في احكامكم وآرائكم ، الا اذا اصلحتم نفوسكم أولاً ، وتعلمتم كيف تستطيعون ان تتجردوا من أهوائكم واغراضكم قبل ان تتناولوا اقلامكم .

---

(١) الممرور : المصاب بخبل في عقله .

أيها القوم : ان عجزتم عن ان تكونوا عادلين ، فكونوا راحمين ، فارحموا أنفسكم واعفوها من الدخول في مآزق أنتم عاجزون عنها ، وارحمونا فقد ضاقت صدورنا بهذه المتناقضات ، وسئمت نفوسنا تلك المبالغات .

اللقيطة

مر عظيم من عظماء هـذه المدينة بزقاق من أزقـة الأحياء الوطنية في ليلة من ليـالي الشتاء ضرير نجمهـا ، حالك ظلامها ، فرأى تحت جدار متداع فتاة صغيرة في الرابعة عشرة من عمرها جالسة القرفصاء [1] وقـد وضعت رأسها بين ركبتيها اتقاء للبرد الذي كان يعبث بها عبث النكباء بالعود ، وليس في يدها ما تتقيه به الا أسمال تتراءى مزقها [2] في جسمها العاري كأنها آثار سياط المستبدين ، في أجسام المستعبدين .

وقف الرجل أمام هذا المشهد المحزن المؤثر وقفة الكريم الذي تؤلمـه مناظر البؤس ، وتزعج نفسه مواقف الشقاء ، ثم تقدم نحوها ووضع يده على عاتقها برفق فرفعت رأسها مرتاعة مذعورة وهمت بالفرار من بين يديـه وهي تصيح « لا أعود .. لا أعود » فـلم يزل يمسحهـا [3] ويروضها

(١) القرفصاء : ان يحتني الرجل بيديه فيضمها على ساقيه وهو جالس .
(٢) المزق : القطع . (٣) مسحة : أمر يده عليه .

حتى هدأ روعها وعاد اليها رشدها وعلمت أنها ليست بين يدي الرجل الذي تخافه ، فنظرت اليه نظرة لو أنها اتصلت بلسان ناطق وفم لحدثت عما وراءها من لواعج الأحزان وكوامن الأشجان .

ـ ما اسمك أيتها الفتاة ؟

ـ لا أعلم يا سيدي .

ـ بماذا ينادونك ؟

ـ يدعونني اللقيطة .

ـ وهل انت لقيطة كما يقولون ؟

ـ نعم يا سيدي ، لأنني لا أعرف لي أباً ولا أماً ، في الأحياء ولا في الاموات ، سوى رجل يتولى شاني ، ويضمني اليه في منزله ، وكنت أحسبه أبي فيمتلىء قلبي سروراً به ، وعطفاً عليه ، فلما رأيت أنه يعذبني عذاباً أليماً ويحملني من أثقال الحياة وأعبائها ما لا يحمله أبناءهم علمت أني وحيدة في هذا العالم ، وفهمت معنى الكلمة التي يناديني بها ، فالم بنفسي من الحزن والألم ما الله عالم به ، وكنت كلما مشيت في الطريق ، ورأيت فتاة صغيرة سالتها ألك أم ؟ فتجيبني : نعم ، ثم تقص عليّ من قصص نعمتها ورفاهيتها ، وعطف أمها عليها ، ورأفتها بها ما يزيدني هماً ، ويملأ قلبي ياساً ، حتى كان يخيل اليّ أنني اذنبت قبل وجودي في هذا العالم ذنباً عاقبني الله عليه بهذا الوجود ، بيد أني صبرت على هذا الرجل ، وعلى ما كان يكلفني به من التسول على قارعة الطريق، إبقاء على نفسي ، وضناً بحياتي ، ان تغتالها غوائل الدهر ، وكان كلما

رأى حاجتي اليه والى ماواه ، اشتط في ظلمي ، ولؤم في معاملتي ، حتى صار يضربني ضرباً مبرحاً كلما عدت اليه عشاء بأقل من المبلغ الذي فرض عليّ تقديمه في كل يوم ، ولم أزل اصابره واحتمل منه ما يعجز عن احتماله مثلي برهة من الزمان: حتى جاءني الليلة بداهية الدواهي ،ومصيبة المصائب ، فقد حاول ان يسلب من بين جنبي جوهرة العفاف التي لم يبق في يدي ما يعزيني عما فقدته من هناءة الحياة ونعيمها سواها ، فلم أر بدأ من ان أفر من بين يديه متسللة تحت جنح الظلام من حيث لا يراني . وما زلت امشي على غير هدى ، لا اعرف لي مذهباً ولا مضطرباً ، حتى أويت الى هذا الزقاق كما تراني . فهل لك يا سيدي ان تحسن اليّ كما احسن الله اليك ؟ وان تبتاع لي رغيفا من الخبز اتبلغ به ، فقد مر بي يومان لم اذق طعاما ولا شرابا ؟

لم يسمع الرجل من الفتاة هذه القصة المحزنة حتى استقبلها بدموع حارة تنحدر على خديه انحدار العقد وهي سلكه فانتثر ، ثم أخذ بيدها ، ومشى بها صامتاً واجماً يكاد لا يهتدي لسبيله حتى بلغ قصره ، وهناك صنع بها صنع الكريم باهله ، وأبلغها من دهرها ما لم تكن تمني نفسها بالوشل القليل منه ، وما هي إلا أيام قلائل حتى ظهرت في ذلك القصر العظيم فتاة جديدة من اجمل الفتيات وجهاً، وأرقهن شمائل .. وأكرمهن اخلاقاً ، واكملهن آداباً . . لا يعرف الناس عنها سوى أنها ابنة قريب لصاحب القصر مات عنها وخلفها يتيمة ، فكان الى هذا القصر مصيرها .

وكان لصاحب القصر فتاة من الفتيات اللواتي ربين التربية الحديثة

التي يسمونها « التربية العصرية » ويريدون منها التربية الأفرنجية فكانت كل ما حصلت من العلوم والمعارف والفنون الآتية :

(١) الرطانة الأعجمية حتى مع خادمها الزنجي ، وكلبها الرومي .
(٢) الولوع بمطالعة الروايات الغرامية الفاسدة .
(٣) البراعة في معرفة أي الأزياء أعلق بالقلوب وأجذب للنفوس .
(٤) الكبرياء والعظمة ، واحتقار كل مخلوق سواها حتى ابويها .
(٥) الأثرة وحب الذات حباً يملأ قلبها غيرة وحسداً ، حتى إنها لا تستطيع ان تسمع وصفاً من اوصاف الحسن يوصف به سواها.

رأت هذه الفتاة اللقيطة قد اصبحت تقاسمها قلب ابيها وقلوب زائراتها من النساء بما وهبها الله من جمال في الخلق ، وحلاوة في الطبع . وعذوبة في النفس ، فاضمرت لها في قلبها من البغض والموجدة ما يضمره دائماً امثالها من اللواتي ربين تربيتها ، ونهجن في الحياة منهجها ، فكانت تتعمد اساءتها وازدراءها ، وتغري بتبكيتها وتانيبها ، والفتاة لا تبالي بشيء من هذا وفاء لسيدها وولي نعمتها ، وذهاباً بنفسها عن النزول الى منزلة من يغضب لمثل هذه الهنات ، حتى حدثت ذات يوم الحادثة الآتية:

دخل صاحب القصر قصره ليلة من الليالي ، فبينما هو صاعد في السلم اذ عثر برقعة ملقاة ، فتناولها فقرأ فيها هذه الكلمة :

سيدتي :

انا منتظرك عند منتصف الليل في بستان القصر تحت شجرة السرو المعهودة . «حبيبك»

فما أتم الرجل قراءة الرقعة حتى دارت بـه الارض الفضاء ، وحتى لمس قلبه بيمينه ليعلم هل طار من مكانه ام لا يزال باقياً فيه ، ثم كأنه اراد ان يخفف ما الم بنفسه من الحزن والقلق فقال : لعل ذلك الموعد مع تلك الفتاة اللقيطة ، ومن الظلم ان اتعجل باتهام ابنتي قبل ان اقف على الحقيقة ، فنظر في ساعته فإذا الساعة قريبة ، فرجع ادراجه ، ومـا زال يترفق في مشيته ويتنقل في الحديقة من شجرة الى شجرة حتى وصل الى شجرة اللقاء فكمن وراءهـا ينتظر ما خبأ له الدهر من حدثانه ، ومـا اضمر له الغيب في طياته .

لم تكن الرسالة رسالة الفتاة الوضيعة ، بـل رسالة السيدة الشريفة . وبينما كانت الثانية واقفة في غرفتها امام مرآتها تختار لنفسها اجمل الأزياء واليقها بموقف اللقاء ، كانت الاولى نائمة في غرفتها نوماً هادئا مطمئنا لا تزعجه زورة الطيف ، ولا تروعه احلام الشباب ، حتى سمعت وقع اقدام سيدها على سلم القصر فاستيقظت، ثم رابها موقفه فاشرفت عليه من حيث لا يشعر بمكانها فعرفت كل شيء .. وعرفت ان سيدها سيقف عـلى سر ابنته الذي كانت تعالج كتمانه زمنـاً طويلاً . . وانه لا بد قـاتل نفسه في ذلك الموقف حزناً ويأساً .. فعناها من امره ما عناها ، ثم اطرقت برأسها لحظة تتلمس وجه الحياة في دفع هـذه النازلة ، وتتطلب المخرج منها ، ثم رفعت رأسها ، وقد قررت في نفسها امراً .

نزلت مسرعة من سلم القصر، فرأت الفتاة قد خرجت من باب القصر الى ذلك الموعد فادركتها ، وامسكت بطرف ثوبها فارتاعت الفتاة والتفتت اليها وقالت لها : ماذا تريدين مني ؟ أتتجسسين عليّ ! ! قالت لها : لا يا سيدتي . . وأفضت اليها بالقصة من مبدئها الى منتهاها ، فسقط في يدها ، وعلمت ان اباها قد وقف على سرها ، فقالت لها : لا تزعجي نفسك ، فإن اباك لا يعلم أيتنا صاحبة الكتاب فعودي الى غرفتك ، وساذهب الى الموعد مكانك ، حتى إذا رآني هناك ذهب من نفسه ما كان يخالجها من الشك في امرك .

ثم استمرت ادراجها حتى وصلت الى تلك الشجرة ، وهنالك برز الرجل من مكمنه ، واقترب منها حتى عرفها ، فحمد الله على سلامة شرفه وشرف ابنته ، ثم قال لها :

ايتها الفتاة : إني احسنت اليك، واستنقذتك من يد البؤس والشقاء، فاسأت إليّ بما فعلت ، حتى كدت الليلة اهلك حزناً وكمداً ، وألصق بابنتي ذنبك واحمل عليها عارك ، فاخرجي من منزلي ، فاللئيم ليس اهلا للإحسان .

فخرجت خائبة تتعثر في اذيالها ، حتى وصلت الى شاطىء النهر ، وهنالك اخرجت مذكرتها من محفظتها ، وكتبت فيها آخر كلمة خطتها اناملها :

« احمد الله اني قدرت على مكافاة الرجل الذي احسن إليّ بستر عاره ، وإزالة همه وحزنه » .

ثم ألقت بنفسها في النهر ، وما هي الا دورة او دورتان حتى افترق ذانك الصديقان الوفيان، جسمها وروحها ، فطفا منها ما طفا ، ورسب ما رسب .

وفي صباح تلك الليلة عثر رجال الشرطة بجثة الفتاة الشهيدة فعرفوها ، وعادوا بها الى منزل سيدها . . فبكاها بكاء كثيراً وندم على ما اساء به اليها من طردها وازعاجها ، ثم امر بدفنها ، ولم يبق في يده من آثارها غير حقيبتها .

مرت الأيام تلو الأيام ، وجاءت الحوادث إثر الحوادث ، وظهر للرجل من اخلاق ابنته وطباعها ، وتهتكها واستهتارها ، ما لم يكن يعرفه من قبل ، حتى ضاق بامرها ذرعاً ، وجلس في غرفته في إحدى الليالي يفكر فيما ساق اليه الدهر من خطوبه ورزاياه ، ثم ألم به الضجر ، فقام الى صندوقه يفتش عن شيء يتلهى به ، فعثر بتلك الحقيبة ، ولم يكن قد فتحها قبل اليوم ، فإنه ليقرأ إذ عثر بتلك الكلمة الأخيرة التي كتبتها الفتاة على شاطىء النهر قبل موتها، فما اتى على آخرها حتى عرف كل شيء فسقط مغشياً عليه يعالج من الحزن والألم ما يعالج المحتضر من سكرات الموت .

وما استفاق من غشيته حتى صار يهذي هذيان المحموم ، ولبث على هذه الحال بضعة اشهر ، يمرض ثم يبل ، ثم يمرض ثم يبل ، حتى ادركته رحمة الله فمرض مرضاً لم ينقض الا بانقضاء اجله .

فيا ايها الوالد المجهول ، الذي قذف بتلك الفتاة البائسة في بحر هذا

الوجود الزاخر ، اعلمت قبل ان تفعل فعلتك التي فعلت انك ستبرز الى هذا العالم فتاة تلاقي شقاءه وآلامه ما لا قبل لها باحتماله ؟

ويا ايها الآباء العظماء : ان كنتم تريدون ان تسلموا بناتكم الى هذه المدنية الغربية تتولى شانهن ، وتكفل لكم تربيتهن ، فانتزعوا من جنوبكم قبل ذلك غرائز الشهامة والعزة والإباء والأنفة ، حتى اذا رزأكم الدهر فيهن . وفجعكم في اعراضهن وقفتم امام ذلك المشهد هادئين مطمئنين ، لا تتعذبون ولا تتألمون .

ويا ايها الناس جميعاً : لا تحلفوا بعد اليوم بالأنساب والأحساب ، ولا تفرّقوا بين تربية الأكواخ وتربية القصور ، ولا تعتقدوا ان الفضيلة وقف على الأغنياء وحبائس على العظماء ، فقد علمتم ما اضمر الدهر في طيات احداثه من رذائل الشرفاء وفضائل اللقطاء .

*

الصندوق

حضرة السيد الفاضل :

يوجد في ضريح السيد البدوي صندوق توضع فيه النذور ، ويبلغ مجموعها في العام نحو ستة آلاف جنيه ، فإذا فتح ذلك الصندوق يختص بعض الخلفاء باخذ نحو الربع مما فيه، والباقي يوزع على اصحاب الأنصبة الكثيرين الذين يعدّون بالمئات ، فهل ترون ان هذه القسمة شرعية ، مع ان الذين ياخذ الألوف أغنياء والذين ياخذون الآحاد فقراء ؟

افتنا ايها السيد الفاضل بما يوجبه الإنصاف والعدل الديني في هذه المسألة التي اصبحت الشغل الشاغل للكثير من الناس ؟

« ابن جلا »

ايها السائل : اراك تسألني عن القسمة الشرعية في هذا المال كأنك تعتقد انه ميراث شرعي ، وأن لهؤلاء الذين تسميهم اصحاب الأنصبة من الحق في هذا المال مثل ما للوارثين في مال المورّثين .

ان الذي اعلمه ان هـذا الحق المزعوم حق موهوب ، لا يستطيع ان يحمله الحامل على وجه من الوجوه الشرعية ، لأن الذين يضعون المـال في هذا الصندوق وأمثاله لا يريدون بذلك ان يهبوه احداً من السدنة والخدم ولو ان ذلك كان غرضهم لوضعوه في أيديهم بدلاً من الصندوق ، ولكنهم لما تصوروا ان ذلك الميت حي في قبره يسمع نجواهم ، ويفهم حديثهم ، ويلبي دعـاءهم ، تجسم في نظرهم هـذا الخيال ، فارادوا ان يعطوه جميع احكام الأحيـاء وصفاتهم حتى حب المـال وادخاره ، فخيل اليهم ان ان الصندوق من الميت بمنزلة الكيس من الحي ، فهم يهبونه المـال ويضعونه في صندوقه ، لأنهم يعجزون عن وضعه في يده .

اما كيفية تصرف الميت بهذا المال ، وكيف ينفقه وفي أي شيء ينتفع به ، فذلك أمر لا يخطر ببالهم ، ولا يدخل في باب مقصدهم وأغراضهم .

فإن وجـد بينهم من يعلم ان مرجع هـذا المـال الى سدنة الضريح ، وخدمته فعلمه هـذا لا يستفاد منه ان يهبه لهم ، او يمنحه إيـاهم ، لأنهم لو ارادوه عـلى ان يعطيهم ذلك المـال ، او يعطيهم بعضه ويستبقي لنفسه البعض الباقي ، لما وسعه ذلك ولا رأى ان فعله أن عمل عملاً صالحاً .

بل هو يعتقد ان اخذهم المـال من الصندوق بعد ان يضعه فيه أمر لا عـلاقة له به ولا شأن له فيه ، لأن المـال قد خرج من يده الى صاحب الضريح ، وصاحب الضريح يتصرف في ماله كيف يشاء .

فهو في جميع حـالاته وشؤونه لا يهب هبـة صحيحة ، ولا يتصرف

تصرفاً شرعياً ، ولا يضع صدقة في موضعها ، ولا يطرق باباً من أبواب البر المسنونة .

وعندي ان مثل هذا المال بعد ان خرج من يد صاحبه الى غير يد ، وانقطعت ملكيته الاولى من حيث لم تقم مقامها ملكية أخرى ، يعتبر مالاً مهملاً ، لا صاحب له ، ولا علاقة لاحد به .

وأحسن الحالات الشرعية والعقلية في هذا المال ان ينفق في مصارف الصدقات التي اعتبرها الشارع واعتمدها ، وافتتحها باداة الحصر التي تمنع غيرها من الاشتراك معها في حكمها في قوله تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل » .

فإن كان بين هؤلاء المتظامين من قلة انصبتهم في ذلك الصندوق ذو حاجة داخل في قسمه من الآية الشريفة ، فله الحق في ذلك المال من حيث كونه فقيراً معدماً ، كعامة فقراء المسلمين ، لا من حيث ان له صلة بصاحب الضريح تسوّغ له ان يكون من ذوي الانصبة والسهام في صندوقه ، فإن أمثال هذه الصلات والعلائق قد انقطعت بانقطاع الجاهلية الاولى . فلا هيا كل اليوم ولا سدنة ، ولا وسطاء ولا شفعاء ، ولا اقراط تعلق في آذان الاصنام ، ولا عقود تقلد بها اعناق الاوثان ، ولا مال يوضع مع الموتى في قبورهم لينتفعوا بـه بعد بعثهم من مراقدهم ، وانما الناس جميعاً سواء بين يدي الله سبحانه وتعالى ، لا فضل لاحد منهم على احد

إلا بالتقوى ، ولا زلفى لاحـد يزدلف بهـا اليه إلا يقينه وإيمانه ، وبره وإحسانه .

ذلك ما أراه في هذه المسالة وهـذا ما اعتقده فيهـا ، ولا اعلم ان كنت ارضيت الناس فيما كتبت او اغضبت ، وإنمـا أعلم أنني أرضيت ضميري وخالقي ، وحسبي ذلك وكفى .

* * *

الغناء العربي

الغناء بقية خواطر النفس التي عجز عن ابرازهـا اللسـان ، فابرزتها الألحان فهو افصح الناطقين لساناً ، وأوسعهم بياناً ، وأسرعهم نفاداً الى القلوب وامتزاجاً بالنفوس ، واستيلاء على العقول ، وأخذاً بمجـامع الأفئدة ، وبيان ذلك ان النطق ثلاث طبقـات تختلف درجاتها باختلاف درجات الإبلاغ والتأثير فيها ، فادناها النثر وأوسطها الشعر ، وأعلاهـا الغناء ، فلو أن عاشقاً برّح به الهجر مثلا فأراد ان يبلغك ما في نفسه من ذلك ، فإن قـال لك : إني مهجور ، فحسب ، فقد أبلغك بعض مـا في نفسه . وترك في قلبك من الاثر بمقدار ما تحتمله طبقة النثر من التأثير ، وإن انشدك قول الشاعر :

فوا كبدا من حب من لا يحبني ومن زفرات مـا لهن فنـاء

او قول الآخر :

كأن قطاة علقت بجناحها على كبدي من شدّة الخفقان

فقد سلك بك طريق الخيال ، وصوّر لك خواطر نفسه بصورة اوضح من الصورة الاولى ، وترك في نفسك أثراً اعظم من الاثر الاول ، وان رفع عقيرته وكان يجيد التوقيع يتغنى بقول القائل :

وارحمتا للغريب بالبلد النا زح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده وما انتفعا

فقد صوّر لك قلبه كما هو . وألمسك موضع الألم والحزن منه ، فبلغ بك التاثير منتهاه ، وربما بكيت عند سماعه حزناً ورحمة ، وما بكيت إذ بكيت الا لان الغناء لم يبق بقية من خواطر هذه النفس القريحة الا نطق بها لك واسمعك اياها ، وكما ان الابيات قيود المعاني كذلك الالحان قيود الابيات، فلا يزال المعنى مشرّداً ههنا وههنا حتى يحتويه بيت من الشعر. فإذا هو مستقر في مكانه ، ثم لا يزال البيت يتجانف عن الآذان ذات اليمين وذات الشمال ، حتى يقوده الصوت الحسن ، فإذا هو مستودع في الصدور .

والغناء فن من فنون الطبيعة ، تهتدي اليه الامم بالفطرة المترنمة في هدير الحمام وخرير المياه ، وحفيف الاشجار . فمن أبكاه الحمام غرد تغريده كلما أراد البكاء ، ومن أطربه صوت الناعورة رن رنينها ليطرب جمله او ناقته فينشطان للمسير ، وما زال هذا الفن مبتدياً ببداوة الامة العربية لا يكاد يتخطى فيها حداء الجمال ، ومناغاة الاطفال ، حتى اذا انتقلت من مضيق الحاجيات الى منفسح الكماليات ، وتوسعت فيه وزادت في أنغامه وضروبه ، وتفننت في آلاته وأدواته ، وكذلك كان

شان العرب في جاهليتهم ، ينظمون أشعارهم على نسب متوازية، وأنغام متوازنة . فالبيت يوازن البيت في ترتيب الحركات والسكنات وتعدادها ، والشطر والتفعيلة يوازنان الشطر والتفعيلة كذلك ، فكانما كانوا يهيئون لأنفسهم بمذهبهم هذا في الشعر ألحاناً موسيقية ، غير أن معارفهم لم تكن تتسع لأكثر من هذا النوع من الموسيقى . وهو نوع التناسب الشعري الذي هو قطرة من بحر هذا الفن الزاخر ، ثم استمر شأنهم على هذا حتى جاء الإسلام واختلطت الأمة العربية بالأمة الفارسية التي كان لها من حضارتها وتمدينه متسع للبراعة في هذا الفن ومنتدح في مناحيه ومقاصده ، ووفد الكثير من مغني الفرس والروم موالي في بيوت العرب وفي أيديهم العيدان والطنابير ، والمعازف والمزامير ، يلحنون بها اشعارهم الفارسية والرومية ، فسمعها منهم العرب فاقتبسوها ولحنوا بها اشعارهم تلحيناً بزوا فيه أساتذتهم ، وولدوا الحاناً وأنغاماً لم يات بها من قبلهم ، شأنهم في جميع الفنون والصناعات التي كانوا يقتبسونها من الأمم المتمدينة المعاصرة لهم ، وظهر فيهم رجال أذكياء كان لهم الفضل الباهر في تقديم الغناء واتساعه مثل ابن سريج ، ومخارق ، وطويس ، وابراهيم الموصلي ، وابنه اسحاق ، وابراهيم بن المهدي ، ومعبد – الذي طالما ضربت به وبحسن صوته الامثال على ألسنة فحول الشعراء . كقول أبي عبادة البحتري في وصف فرس كان اهداه اليه احد الامراء :

هزج الصهيل كأن في نبراته   نغمات معبد في الثقيل الاول

والثقيل والخفيف الاول والثاني اسماء اصطلح عليهاالعرب ومرجعها

الى حركات الاصابع الخمس في أوتـار العود الخمسة شدة وضعفـاً ، ومـا أحسن قول أبي العلاء المعري :

ولقد ذكرتك يا أميمة بعد ما نزل الدليـل الى التراب يسوفه[1]
وهواك عندي كالغنـاء لانه حسن لديّ ثقيـله وخفيفـه

وبالرغم من غضـارة الدين وغضاضته في ذلـك العهد ـ عهد الصدر الاول ـ وشدته في النهي والتلهي بالغناء والعزف والزمر وأمثالها ونعيه على من يحترف ذلك او يتخلقه، فقد كان للمغنين الشان الرفيع في مجالس الخلفاء والامراء ، والنصيب الاوفر من جوائزهم وصلاتهم ، ولا غرو في ذلك ، فسلطان الوجدان فوق سلطان الاديان ، ولقد بلغ من شان المغنين وإدلالهم على الخلفاء أن اسحاق الموصلي شتم ابراهيم بن المهدي في حضرة أخيه الرشيد غير هياب ولا وجل ، فما استطاع اخو الخليفة ان ينتصف لنفسه منه هيبة واجـلالا ، وكان ابن عـائشة المغني لا يغني الا للملك ، او ولي عهده ، حتى كان الخليفة اذا أراد ان يختـار من بين ابنائه من يعهد اليه بالامر من بعده لا يكتب له بذلك عهداً ، بل ياذن لابن عائشة ان يغني عنده ، فلا تطلع عليه شمس الغد حتى يفد الناس اليه يهنئونه بولاية العهد ، فإن دعاه الى الغناء لديه أمير او وزير وجد من قوة الدالة بنفسه مـا يدفع بـه الطلب عنه . ويروى أن ابن عتيق وهو من تعـلم في شرف البيت وجلال المحـل رأى ابن عائشة يومـاً وحلقه مخدوش ، فقال : من

(١) ساف التراب : اشتمه . يريد انه ذكر حبيبه في أعظم أوقات شدته وهو وقت ضلال الركوب ونزول الدليل ، اشتم التراب ليستدل منه على الأرض .

فعل بك هذا ؟ قال : فلان ، وأشار الى ضاربه . فمضى ونزع ثيابه وعاد فجلس للرجل على بابه ، فلما خرج أخذ بتلبيبه[1] وجعل يضربه ضرباً موجعاً ، والرجل يصيح : أي شيء صنعت ؟ وما ذنبي اليك ؟ وهو لا يجيبه حتى بلغ منه ، وأقبل الناس فحالوا بينه وبينه وسألوه عن ذنبه ، فقال : انه اراد ان يكسر مزماراً من مزامير داود ، يريد أنه خنق ابن عائشة وخدشه في حلقه . ومما يروى من حوادث تيهه وترفعه انه خرج من عند الوليد بن عبد الملك وقد غناه :

أبعدك معقلا أرجو وحصنا . قد اعيتني المعاقل والحصون

فاطربه وأمر له بثلاثين ألف درهم وكثير من الثياب ، فبينا هو يسير إذ نظر اليه رجل من اهل وادي القرى كان يشتهي الغناء فدنا من غلامه وقال : من هذا الراكب المختال ؟ قال : ابن عائشة المغني ، فدنا منه وقال: جعلت فداك انت ابن عائشة؟ قال نعم، قال: أم عائشة المؤمنين ؟ قال لا ، انا مولى لقريش وعائشة امي ، وحسبك هذا فلا تكثر ، قال : وما هذا الذي بين يديك ؟ قال غنيت امير المؤمنين صوتاً فاطربته فأمر لي بهذا المال وهذه الكسوة ، قال : جعلت فداءك هل تمن عليّ بأن تسمعني ما اسمعته اياه ؟ فقال له : ويلك أمثلي يكلم بمثل هذا في الطريق؟ قال فما اصنع ؟ قال : الحقني الى المنزل ، يريد مخاتلته والنجاة منه وحرك بغلة شقراء تحته لينقطع عنه فعدا معه . حتى وافيا المنزل كفرسي رهان ، ودخل ابن عائشة فمكث طويلاً طمعاً في ان ينصرف فلم يفعل ،

(١) التلبيب : ما في موضع اللبب من الثياب ، أي ما يدور بالعنق من القميص ونحوه .

فلما اعياه قال لغلامه : ادخله فلما دخل قال له : من آين صبك الله عليّ ؟ قال : انا رجل من اهل وادي القرى اشتهي هذا الغناء ، قال له : هل لك فيا هو انفع لك منه ؟ قال : وماذاك : قال : مائتا دينار وعشرة اثواب تتصرف بهـا الى اهلك ، فقال له : جعلت فداءك والله ان لي لبنية مـا في اذنها علـم الله حلقه من الورق[1] وأن لي زوجـة عليها يشهد الله قميص ، ولو اعطيتني جميع ما أمر لك به امير المؤمنين على خلقي وحاجتي لكان الصوت اعجب إليّ منه ، ومـا زال بـه حتى رحمه ابن عـائشة وغنـاه الصوت بعد لأي[2] فطرب الرجـل له طرباً شديداً وجعـل يحرك رأسه وينطح بهـا الجـدار حتى خيف ان يندق عنقه ، ثم انصرف ولم يرزأه في ماله شيئاً .

وفي هذا الحديث فوق الغرض الذي سقناه له ما يدل عـلى ان الغنـاء العربي كان قريباً الى القلوب وأنـه كان منها بمنزلة الأصابع من الأوتار ، فإذا لمسها رنت رنين الثكلى والمرزوءة في واحدها . وان الوجدان العربي وجدان رائق شفاف تأخذ منه مختلفات الانغام ، فوق ما تأخذ الكهرباء من الاجسام ، كما تبلغ منه نظرات الغرام ، فوق مـا تبلغ من عقل شاربها المدام .

وكانت الاصوات عندهم تنسب الى واضعيها وتسمى بأسماء اصحابها كما هو الشان في الشعر ، فيقال : صوت اسحاق او معبد ، كما يقـال شعر مسلم او بشار ، وكان المغني احرص عـلى صوته من الكريم عـلى عرضه ،

(١) الورق : الفضة .   (٢) اللأي : الجهد .

فإذا صنع صوتاً لا يسمح لأحد من المغنين ان يأخذه عنه حتى يغنيه مراراً وتعرف نسبته اليه ، كما يفعل اليوم المخترعون والصانعون من أخذ الامتيازات بمخترعاتهم ومصنوعاتهم ، وكان لإسحاق الموصلي القدرة الغريبة على مخاتلة المغنين عن اصواته ، حتى صنع مرة صوتاً وأراد الفحول منهم ان يأخذوه بعدما سمعوه منه اكثر من سبعين مرة فما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، وكانت مجالس الغناء عندهم تشبه أن تكون مجالس علم لدراسة هذا الفن وتهذيبه ، فكان احدهم لا يحجم ان رأى في صوت صاحبه مأخذاً ان يفجاه بالانتقاد ويبين له مواضع الخطأ مهما عظم شان المجلس وشان صاحبه ، وكانت تقع بينهم المنافسات الشديدة في ذلك كما تقع بين العلماء في مجادلاتهم ومناظراتهم مما يدل على أن الغناء الغربي كان له عند العرب صبغة جدية فوق صبغة اللهو ، وان الغربيين في هذا العهد ليسوا باعلم بصناعة الغناء ولا اقوم على امرها من العرب في ذلك العهد ، ولو ان العرب توسعوا في فنونه وضروبه لبلغوا فيه الغاية التي لا غاية وراءها . ولكنهم كانوا قلما يحفلون بإدخاله في الاغراض العالية كالحروب والشؤون الوطنية وامثال ذلك من المناحي والمقاصد الا قليلا، كما ورد في تاريخ الدولة العباسية أن اعداء البرامكة لما أرادوا الإيقاع بهم وعلموا ان سبيل الوشاية بهم الى الرشيد سبيل وعر دسوا له من القيان من يغنيه بقول عمر بن أبي ربيعة :

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدّت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

فحرك ذكر العجز والاستبداد مـا كان كامناً في نفس الرشيد من شعوره بسلطان البرامكة عليه واستبدادهم بالامر من دونه ، فقال عنـد تمام الصوت : « نعم إني عاجز » ثم كان امره معهم بعد ذلك ما كان ، ولقد مضى الصدر الاول من الإسلام وشان فن الغناء العربي هـذا الشان العظيم خصوصاً في اواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية ، ثم اخـذت شمسه البـاهرة تنحدر الى الغروب بانحدار اللغة العربية وشعرهـا حتى اصبـح في حضـارة الأندلس قدوداً وموشحـات ، بعد ان كان قصائد ومقطعات ، فكان لا يسمع ابناء العرب في ذلك العهد الا الى قول المغني:

كحل الدجى يجري من مقـلة الفجر عـلى الصباح
ومعصم النهــر في حلل خضر من البطاح

او قوله :

كللي يا سحب تيجان الربى بالحلى
واجعلي سوارها منعطف الجدول

وليت الأمر وقف عند هذه الموشحات فانها وان لم تكن شعرية اللفظ فهي شعرية المعنى عالية الخيال ، وهي عـلى علاتها خير من شعر العـامة الذي قضى عليهم فساد اللغة وانحطاطها بانتهاجه والتغني بـه كالزجل ، والمواليا ، والقوما ، والدوبيت ، وكان ويكون ، غير ذلك مما يسمى في عهدنا هذه بالأدوار والتواشيح والأغصان والمذاهب وأمثالها .

فهـل لجماعة المغنين في عصرنا ان يعفونا من : « احب جميل طبعه

الدلال » ومن : « يا حلو صون عهد ودادي الله يصونك » ويأخذوا بنـا في مسلك اشرف من هذا المسلك ، ويعيدوا للغنـاء العربي عهده الأول كما صنـع شعراء العصر برفيقه الشعر ، فلقد كان الشعر والغنـاء اخوين أليفين،رضيعي ثدى وضجيعي مهد،ثم ضربها الدهر بضرباته فافترقا فماذا علينا لو قصرنا مسافة البعد بينهما، وماذا على المغنين والشعراء في مصر لو عقدوا بينهم عهداً ان يهذبوا اخلاق امتهم ويرفعوا شانها ليكون لهم من الفضل في نهضتها وارتقائها ما عجز عن دركه الفلاسفة والحكماء ، فينظم الشاعر المقطمات الرقيقة العذبة السائغة في فضائل الاعمـال ومكارم الاخلاق ، كالشجاعة والشهامة والشرف وحب الوطن والاتحاد والتزهيد في صغائر الامور ، والترغيب في عظائمها ، فيأخذهـا منـه المغني ولا يتكلف في تلحينها اكثر ما يتكلفه في تلحين سواها من الادوار والمواويل ثم يغنيها في الناس غير مبال بمـا يفاجئه به ضعفاء النفوس الجـامدون من الانتقاد الملازم لكل عمل شريف في مبدئه، وفي اعتقادي ان لهذه الطريقة من الاثر الحسن في نفوس العامة وتهذيب اخـلاقهم وطبـاعهم ، وتقويم ألسنتهم وعقولهم ، ما يخلد للملحنين والمغنين اجمل ذكر في تاريخ عظماء الرجال .

التوبة

علم فلان ، وكان شاباً من شبان الخلاعة واللهو ، وقاضياً من قضاة الحاكم ، ان المنزل الذي يجاور منزله يشتمل على فتاة حسناء من ذوات الثراء والنعمة والرفاهية والرغد ، فرنا اليها النظرة الأولى فتعلقها ، فكررها أخرى فبلغت منه ، فتراسلا ثم تزاورا ثم افترقا ، وقد ختمت روايتهما بما تختم به كل رواية غرامية يمثلها ابناء آدم وحواء على مسرح هذا الوجود .

عادت الفتاة الى اهلها تحمل بين جنبيها هما يضطرم في فؤادها ، وجنيناً يضطرب في احشائها ، وقد يكون لها الى كتمان الأول سبيل ، اما الثاني فسر مذاع ، وحديث مشاع ، إن اتسعت له الصدور ، لا تتسع له البطون ، وإن ضن به اليوم لا يضن به الغد .

ذلك ما اسهر ليلها وأقض مضجعها، وملك عليها وجدانها وشعورها، فلم تر لها بدأ من الفرار بنفسها ، والنجاة بحياتها ، فعمدت الى ليلة من

الليــالي السوداء فلبستها ، وتلفعت بردائها ، ثم ألقت بنفسها في بحرهـا الأسود ، فما زالت امواجها تترامى بهـا حتى ألقتها الى شاطىء الفجر ، فإذا هي في غرفة صغيرة في إحدى المنازل البالية، في بعض الاحياء الخاملة وذلك الجنين المضطرب .

كان لهـا أم تحنو عليها ، وتفتقد شانها ، وتجزع لجزعها . وتبكي لبكائها ففارقتها ، وكان لها أب لا هم له في حيـاته الا أن يراها سعيدة في آمالها ، مغتبطة بعيشها ، فهجرت منزله ، وكان لهـا خـدم يقمن عليها ويسهرن بجانبها ! فاصبحت لا تسامر غـير الوحـدة ، ولا تساهر غـير الوحشة ، وكان لهـا شرف يؤنسها ويمـلأ قلبها غبطة وسروراً ورأسها عظمة وافتخاراً . . ففقدته . . وكان لهـا امل في زواج سعيد من زوج محبوب فرزأتها الأيام في املها .

ذلك مـا كانت تناجي نفسها به . . صباحها ومساءها ، بكورها وأصائلها فاذا بدا لها أن تفكر في علة مصائبها وسبب احزانها علمت انـه ذلك الفتى الذي وعدها ان يتزوجها فخدعها عـن نفسها ، ولم يف بعهده لها ، فقذف بها وبكل ما تملك يدها في هذا المصير .

فلا يكاد يستقر ذلك الخـاطر في فؤادها ، ويأخـذ مكانه من نفسها حتى تشعر بجذوة نار تتقد بـين جنبيها من الحقد والموجدة عـلى ذلك الفتى لأنه قتلها ، وعلى المجتمع الإنساني لأنه لا يأخذ القاتل بجريمته ، ولا يسلكه في سلسلة المجرمين .

ومـا هي الا أيام قلائل حتى جـاءها المخاض . . فولدت وليدتها من

حيث لا ترى بين يديها من يأخذ بيدها أو يساعدها على خطبها غير عجوز من جاراتها ألمت بشأنها فمشت اليها وأعانتها على امرها بضع ساعات . . ثم فارقتها تكابد على فراش مرضها ما تكابد . . وتعاني من صروف دهرها ما تعاني .

ولقد ضاق صدرها ذرعاً بهذا الضيف الجديد ، وهو أحب المخلوقات اليها واكثرهم قرباً الى نفسها . . فجلست ذات ليلة ، وقد وضعت طفلتها النائمة على حجرها وأسندت رأسها الى كفها ، وظلت تقول :

ليت أمي لم تلدني ، وليتني لم اكن شيئاً .

لولا وجودي ما سعدت ، ولولا سعادتي ما شقيت ، وإن كان في العالم وجود أفضل منه العدم فهو وجودي .

لقد كان لي قبل اليوم سبيل الى النجاه من هذه الحياة ، اما اليوم ، وقد اصبحت أماً فلا سبيل .

أأقتل نفسي فاقتل طفلتي ؟ أم أحيا بجانبها هذه الحياة المريرة ؟

لا احسب ان الموت تاركي حتى يذهب بي الى قبري . فماذا يكون حال طفلتي من بعدي ؟

إنها ستعيش من بعدي ، وتشقى في الحياة شقائي ، لا لذنب جنته ولا لجريمة اجرمتها ، سوى أنني أمها .

هل تعيشين ايتها الفتاة حتى تغفري لي ذنب أمومتي حينما تسممين

قصتي وتسمعين شكاتي ؟

لم يبق في يدي يا بنيتي من حلاي الا قليـل سابيعه كما بعت سابقه ، فماذا يكون شاني وشانك بعد اليوم ؟

محال أن اعود الى أبي فاقص عليه قصتي ، لأنه لم يبق لي مما يعزيني عن شقاء العيش وبلائه ، الا ان اهلي لا يعرفون شيئاً عن جريمتي ، فهم يبكونني كما يبكون موتاهم الاعزاء ، ولان يبكوا مماتي ، خير لي ولهم من ان يبكوا حياتي .

وكذلك ظلت تلك البـائسة المسكينة تحدث نفسها تارة ، وطفلتها أخرى بمثـل هذا الحديث المحزن الاليم ، حتى غلبها صبرها عـلى أمرها ، فارسلت من جفنيها قطرات حارة من الدموع هي كل مـا يملك الضعفاء العاجزون ، ويقدر عليه القانطون اليائسون .

دارت الايام دورتها وباعت الفتاة جميع مـا تملك يدها ، ومـا يحمل بدنها وما تشتمل عليه غرفتها من حلى وثياب ، وأثاث ورياش ، ولم يبق لها الا قميصها الخلق وملاءتها وبرقعها ، ولم يبق لطفلتها الا أسمال باليات تنم عن جسمها نميمة الوجه عن السريرة ، فكانت تقضي ليلهـا شر قضاء حتى اذا طـار غراب الظلام عن مجثمه اسبلت برقعها عـلى وجهها ، واتزرت بمئزرها ، وانشأت تطوف شوارع المدينة ، وتقطع طرقها ، لا تبغي مقصداً ولا تريد غاية سوى الفرار بنفسها من همها ، وهمها لا يزال يسايرها ويترسم مواقع اقدامها .

وأحسب ان عجوزاً من عجائز المواخير رأتها فالمت ببعض شانها فاقتفت اثرها حتى دخلت غرفتها ، فوغلت عليها ، وسالتها ما خطبها ؟ فانست الفتاة عند رؤيتها ، وكذا يانس المصدور بنفثاته ، والبائس بشكاته ، فاصرحت لها بسرها وألقت اليها بخبيئة صدرها ، ولم تترك خبراً من اخبار نعيمها ، ولا حادثا من حوادث بؤسها لم تحدثها به ، فعرفت الفاجرة محنتها ، ورأت بعينها ذلك الماء من الحسن الذي يجول في أديم وجهها جولان الراح في زجاجتها ، وعلمت أنها ان احرزتها في منزلها فقد احرزت غنى الدهر ، وسعادة العمر ، وما هو الا ان ارسلت اليها بعض عقاربها ونفثت في نفسها بعض رقاها ، حتى غلبتها على امرها وقادتها الى منزلها ، وما هي الا عشية او ضحاها حتى بلغت بها الغاية التي لا مفر لها ولا لامثالها من بلوغها .

عاشت تلك البائسة في منزلها الجديد ، عيشاً أشقى من عيشها الاول في منزلها القديم لانها ما كانت تستطيع ان تصل الى لقمتها – وهي كل ما حصلت عليه في حياتها الجديدة – الا اذا بذلت راحتها وشرّدت نومها ، وأحرقت دماغها بالسهر ، وأحشاءها بالشراب ، وصبرت على كل من يسوقه اليها حظها من سباع الرجال وذئابهم ، على اختلاف طبائعهم ، وتنوّع أخلاقهم ، لانها لم تر بداً من ذلك . . فاستسلمت استسلام اليائس الذي لم تترك له ضائقة العيش الى الرجاء سبيلا .

ولو ان الدهر وقف معها عند هذا الحد لهان الامر ولألفت الشقاء ومرنت عليه كما يألفه ويمرن عليه كل من سار في الطريق التي سارت فيها ،

ولكنه أبى إلا أن يسقيها الكاس الأخيرة من كؤوس شقائه ، فساق اليها ذئباً من ذئاب الرجـال كان ينقم عليها شأناً من شؤون شهواته ولذاته ، فزعم أنها سرقت كيسه في إحدى لياليه التي قضاها عندها ، ورفـع أمرها الى القضاء ، واستعان عليها ببعض أترابها الساقطات اللواتي كن يحسدنها وينفسن عليها حسنها وبهاءها حتى أدانها .

جاء يوم الفصل في أمرها فسيقت الى المحكمة ، وفي يدها فتاتها ، وقد بلغت السابعة من عمرها ، فأخذ القاضي ينظر في القضايا ويحكم فيها بما يشاء حتى أتى دور الفتاة ، فما وقفت بين يديه ، ووقع بصرها عليه ، حتى شدهت عن نفسها وألم بهـا من الحيرة والدهشة مـا كاد يذهب برشدها ، ذلك انها عرفته وعرفت أنـه ذلك الفتى الذي كان سبب شقائها وعلة بلائها ، فنظرت اليه نظرة شزراء ، ثم صرخت في وجهه صرخة دوى بها المكان دوياً وقالت :

رويدك يا مولاي القاضي ، ليس لك أن تكون قاضياً في قضيتي ! فكلانا سارق وكلانا خائن ، والخائن لا يقضي عـلى الخـائن ، واللص لا يصلح ان يكون قاضياً بين اللصوص .

فعجب القاضي والحاضرون لهذا المنظر الغريب ، وغضب لهـذه الجرأة العجيبة ، وهمّ ان يدعو الشرطي لإخراجها ، فحسرت قناعها عن وجهها ، فنظر اليها نظرة ألم فيها بكل شيء ، فشعر بالرعدة تتمشى في أعضائه ، وسكن في كرسيه سكون المحتضر في سرير الموت ، وعـادت

الفتاة الى اتمام حديثها فقالت :

أنا سارقة المال ، وأنت سارق العرض ، والعرض أثمن من المال ، فانت اكبر مني جناية ، وأعظم جرماً .

إن الرجل الذي سرقت ماله يستطيع ان يعزي نفسه عنه باسترداده او الاعتياض عنه ، اما الفتاة التي سرقت عرضها فلا عزاء لها ، لأن العرض الذاهب لا يعود .

لولاك ما سرقت ، وما وصلت الى ما اليه وصلت ، فاترك كرسيك لغيرك ، وقف بجانبي ليحاكمنا القضاء العادل على جريمة واحدة أنت مدبرها ، وأنا المسخرة فيها .

إن شريعة تعلم أننا شركاء في جريمة واحدة ، ثم تاتي بنا الى هذا المكان ، فتقف أحدنا في أشرف المواقف ، وتقف الآخر في أدناها ، لشريعة ظالمة ليس بينها وبين العدل نسب موصول ، او زمام غير منقضب .

رأيتك حين دخلت هذه القاعة وسمعت الحاجب يصرخ لمقدمك ويستنهض الصفوف للقيام لك ، ورأيت نفسي حين دخلت والعيون تتخطاني والقلوب تقتحمني فقلت : يا للعجب ! ! كم تكذب العناوين ، وكم تخدع الألقاب ، وكم يعيش هذا العالم في ضلالة عمياء ، وجهالة جهلاء!!

بخ بخ لأولئك الذين منحوك هذه الشهادة ، شهادة العلم والفضل والاخلاق والآداب . ومرحى مرحى لأولئك الذين أقعدوك هذا المقعد،

ووضعوا بين يديك هـذا القانون ، وأوقفوا امـامك هـذا الشرطي يأتمر بأمرك وينزل على حكمك .

إن تحت هذه الثياب التي تلبسونها معشر القضـاة نفوساً ليست بأقل من نفوسنا شراً ، ولا أخبث منهـا مذهبـاً ، وربما لا يكون بيننا وبـين الكثير منكم فرق الا في العناوين والألقاب ، والشمائل والأزياء .

أتيت بي الى هنا لتحكم عليّ بالسجن ، كأن لم يكفك ما أسلفت إليّ من الشقاء حتى اردت ان تجيء بلاحق لذلك السابق .

ألم أحسن إليك بساعة من ساعات السرور فترعاها؟ ألست إنساناً ذا شعور وإحساس فترثي لشقائي وبلائي ؟

إن لم تكن عندي وسيلة أمتُّ بهـا اليك ، فوسيلتي عندك ابنتك هذه ، فهي الصلة الباقية بيني وبينك .

فرفع القاضي رأسه ونظر الى ابنته الصغيرة نظرة رحمـة واشفاق وقد قرر في نفسه ألا بد له من أن ينصف تلك البائسة وينتصف لهـا من نفسه ، غير انه أراد ان يخلص من هذا الموقف خلوصاً جميلاً ، فاعلن ان المرأة قد أصيبت بدخل في عقلها ، وأن لا بد من إحالتها على الطبيب . فصدق الناس قوله . ثم قام من مجلسه بنفس غير نفسه ، وقلب غير قلبه ، ومـا هي إلا أيام قلائـل حتى استقال من منصبه بحجة المرض ، ولم يزل يسعى سعيه حتى ضم اليه ابنته واستخلص أمها من قرارتها وهاجر بهـا

الى بلد لا يعرفهما فيه أحـد ، فتزوج منها وأنس بعشرتها ، واحترف في دار هجرته حرفة لولا مخافة ان ادل عليه اذا ذكرتها لذكرتها ، ولا يزال حتى اليوم يكفّـر عن سيئاته الى زوجته بكل مـا يستطيعه من صنوف الرعـاية ، وأنواع الكرامة ، حتى نسيا ما فـات . ولم يبق أمامهما إلا ما هو آت .

* * *

الحسد

لو عرف المحسود ما للحاسد عنده من يد ، وما أسدى اليه من نعمة لأنزله من نفسه منزلة الأوفياء المخلصين ، ولوقف بين يديه تلك الوقفة التي يقفها الشاكرون بين أيدي المحسنين .

لا يزال صاحب النعمة ضالاً عن نعمته ، لا يعرف لها شأناً ، ولا يقيم لها وزناً ، حتى يدله الحاسد عليها بنكرانها ، ويرشده اليها بتحقيرها ، والغض منها ، فهو الصديق في ثياب العدو ، والمحسن في ثياب المسيء

أنا لا أعجب لشيء عجبي لهذا الحاسد ، ينقم على محسوده نعم الله عليه ، ويتمنى لو لم تبق له واحدة منها وهو لا يعلم أنه في هذه النقمة ، وفي تلك الأمنية قد أضاف الى محسوده نعمة هي أفضل من كل ما في يديه من النعم .

وجه الحاسد ميزان النعمة ومقياسها ، فإن أردت أن تزن نعمة وافتك فارم بخبرها في فؤاد الحاسد ، ثم خالسه نظرة خفيفة ، فحيث

ترى الكآبة والهم فهناك جمال النعمة وسناؤها .

ليس بين النعم التي ينعم بها الله على عباده نعمة أصغر شأناً ، وأهون خطراً من نعمة ليس لها حاسد ، فإن كنت تريد أن تصفو لك النعم فقف بها في سبيل الحاسدين ، وألقها في طريق الناقمين ، فإن حاولوا تحقيرها وازدراءها، فاعلم انهم قد منحوك لقب « المحسد » فليهنأ عيشك وليعذب موردك .

إن أردت أن تعرف أي الرجلين أفضل ، فانظر الى أكثرهما نقمة على صاحبه ، وكلفاً بالغض منه ، والنيل من كرامته ، فاعلم أنه أصغرهما شأناً وأقلهما فضلاً .

قد جعل الله لكل ذنب عقوبة مستقلة يتألم لها المذنب عند حلول أجلها ، فالشارب يتألم عند حلول المرض، والمقامر يتألم يوم نزول الفقر ، والسارق يتألم يوم دخول السجن .

أما الحاسد فعقوبته حاضرة دائمة ، لا تفارقه ساعة واحدة .

إنه يتألم لمنظر النعمة كلما رآها ، والنعمة موجود من الموجودات الثابتة التي لا يلم بها الا التنقل من مظهر الى مظهر ، والتحول من موقف الى موقف فهيهات أن يفنى ألمه ، أو ينقضي عذابه ، حتى تقر عينه التي تبصر ، ويسكن قلبه الذي ينبض .

الحسد مرض من الامراض القلبية الفاتكة ، ولكل داء دواء ، ودواء الحسد أن يسلك الحاسد سبيل المحسود ، ليبلغ مبلغه من تلك النعمة التي

يحسده عليها ، ولا أحسب أنـه ينفق من وقته ومجهوده في هـذه السبيل أكثر ممـا ينفق من ذلك الغض من شان محسوده ، والنيل منه ، فإن كان يحسده على المال ، فلينظر أي طريق سلك اليه فيسلكه، وإن كان يحسده عـلى العلم فليتعلم أو الادب فليتأدب ، فإن بلـغ من ذلك مـأربه فذاك ، وإلا فحسبه أنه ملأ فراغ حياته بشؤون لولاها لقضاها بين الغيظ الفاتك، والكمد القاتل .

الوفاء

يا صاحب النظرات :

تزوجت منذ سنة من زوج صالحة طيبة القلب والسريرة، فاغتبطت بعشرتها برهة من الزمـان ، وقد عرض لها في هـذه الايام رمد في عينيها فذهب ببصرهـا فاصبحت عمياء ، وأصبحت أعمى بجانبها ، وقـد بدا لي أن أطلقها وأتزوج من غيرها . . فماذا ترى ؟

« انسان »

أيها الإنسان : لا تفعل ، فانك ان فعلت كان عليك اثم الخائنين وجرم الغـادرين ، وكن اليوم أحرص عـلى بقائها بجانبك منك قبـل اليوم ، لتستطيـع أن تدخر لنفسك عند الله من المثوبة والأجر ما يدخر أمثالك من الصابرين المحسنين .

لا تقل انها عمياء فلا خير لي فيها ، ولا غبطة لي بها ، فانك ستجد بين جنبيك من لذة المروءة والإحسان والجود والإيثار مـا يحسدك عليه

الناعمون بالحور الحسان ، في مقاصير الجنان .

اجلس اليها صباحك ومساءك ، وحادثها محادثة الصديق صديقه ، بل الزوج زوجه ، وتلطف بها جهدك وروّح عن نفسها ما يساورها من الهموم والكروب وقل لها : لا تجزعي ولا تحزني ؟ فانما أنا بصرك الذي به تبصرين ونورك الذي به تهتدين .

أعيذك أيها الإنسان بالله ورحمته ، والعهد وزمامه ، ألا تجعل لهذا الخاطر السيء – خاطر الطلاق والفراق – سبيلا الى نفسك ، فانها لم تسيء اليك فتسيء اليها ، ولم تنقض عهدك فتنقض عهدها ، فان كنت لا بد ثائراً لنفسك فاثار من القدر ان استطعت اليه سبيلا .

ان عجزاً من الرجل وضعفاً أن يغضب فيمد يده بالعقوبة الى غير من أذنب اليه ، ويعتدي عليه .

ان لم يكن احتفاظك بزوجك وابقاؤك عليها عدلاً يسالك الله عنه فليكن احساناً تحاسبك الإنسانية فيه .

انك قد خسرت بصرها ، ولكنك ستربح قلبها ، وحسب الإنسان من لذة العيش وهناءته في هذه الحياة قلب يخفق بحبه ، ولسان يهتف بذكره .

انها أسعدتك برهة من الزمان ، فليخفق قلبك رحمة بها ، بقدر ما خفق سروراً بعشرتها .

لا أحسب أنها كانت تاركتك ، أو غادرة بك ، لو أن هذا السهم

الذي أصابها قد أصابك من دونها ، فاحرص الحرص كله على ألا تكون امرأة ضعيفة أسبق منك الى فضيلة الصدق والوفاء .

الى من تعهد بها بعد فراقك اياهـا ؟ وأي موطن من المواطن هيأته لمقامها؟ وماذا أعددت لها من الوسائل التي تستعين بها على عيشها؟ وتأنس بها في وحشتها ووحدتها ؟

كيف يهنا لك عيش، او يغمض لك جفن ، اذا أظلك الليل فذكرتها وذكرت انها تقاسي في وحدتها من الوحشة ما لا قبل لها باحتماله ، وأنها ربما طلبت جرعة ماء فلا تجد من يقدمها اليها ، او كسرة خبز فلا تجـد من يدلها عليها ، او ربمـا قـامت من مضجعها في سكون الليل وهدوئه تتلمس الطريق الى حاجة من حاجاتها فاخطأ تقديرها فصدمها الجدار في جبينها صدمة أسالت دمها حتى امتزج بدمعها ؟

أيها الأنسان : إن لم تكن عادلاً ولا وفياً ولا محسناً فارحم نفسك من هـذا الخيـال الذي لا بد ان سيساورك ، يفت في عضدك ويزعجك من مرقدك ، فان لم تكن هـذا ولا ذاك ، فغيرك أخاطب لاني لا أحسن الا مخاطبة الإنسان .

إني محدثك عن صديق لي من كرام النـاس وأوفيائهم تزوج امرأة حسناء فاغتبط بها برهـة من الزمان ، ثم أصابها الدهر بمثل ما أصاب به زوجـك ، ولم يترك لها من ذلك النور الذاهب إلا كما تترك الشمس من الشفق الأحمر في حـاشية الأفق ، فـلم يقنعه من الوفـاء لها أن استبقاها واستمسك بها ، بل كان يحرص جهده على ألا تعلم أنه ينكر من أمرها .

شيئاً ، فكان يعتب عليها في بعض الأحايين في أشياء لا يؤاخذ بها عـادة إلا الناظرون المبصرون ، يريد بذلك أن يلقي في روعها انـه لا يزال يعدها ناظرة مبصرة ، وأنه لا يرى شيئاً جديداً طرأ عليها ، رحمـة بها وابقاء عـلى ما كانت تحب ان تحـاوله من الاعتداد بنفسها والإذلال بمزاياها .

ولقد قرأت جملة صالحـة من نوادر العرب في آدابهم ، ومـكارم أخـلاقهم ورقة شعورهم ولطف وجدانهم ، فلم أر بينها نادرة اوقـع في النفس ، ولا اجمل اثراً في القلب ، مـن قول أبي عيينة الكاتب المعروف في عهد الدولة العباسية ، وكان كفيف البصر : اختلفت الى القاضي احمد بن أبي دؤاد أربعين عاماً فما سمعته مرة يقول لغلامه عند تشييعي ، خـذ بيده يا غلام ، بل يقول أخرج معه يا غلام .

فان كنت تريد أن يسجل لك من الوفـاء في صفحات القلوب ، مـا سجل لأحمد بن أبي دؤاد في صفحات التاريـخ ، فلا تطلق زوجك ، ولا تنقم منها أمراً قد خرج حكمه من يدها ، وإن أبيت إلا أن تأخذ لنفسك حظها من لذائذ العيش ، فاعلم انه ما من لذة يتمتع بها الإنسان في حيـاته الا ويشوبها الكدر ، او يعقبها الألم ، الا لذة البر والإحسان .

خبايا الزوايا

جلس قاضي التحقيق ليلة أمس على كرسي قضائه ، ووقف عن يمينه رجل من ذوي الأسنان[1] قذر « دميم » المنظر ، تسنح شعراته البيض في بادية رأسه ولحيته سنوح الشرر الابيض في الدخان الاسود ، وتتمشى في أديم وجهه غبرة قاتمة من رآها علم أنها نسيج دخان الحشيشة ، الذي ينفثه من فيه صباحه ومساءه وغدوه ورواحه ، ووقف عن يساره صبية ستة نحل الأبدان جوع الاكباد ، لم يترك لهم الدهر – آكل الناس وشاربهم – إلا هيكلاً من العظم تلمع في رأسه عينان جائلتان ، لا يستقران في محجريهما إلا اذا استقر الزئبق الرجراج في قرار مكين .

نظر اليهم قاضي التحقيق نظرات تمازجها الرحمة ، وتخالطها الشفقة ، والقضاة لا يرحمون ولا يشفقون ، لولا ان من المناظر مناظر تستهوي القلوب القاسية ، وتذيب الأفئدة المتحجرة ، وأنشأ يسائلهم

(١) جمع سن ؛ وهو العمر .

واحداً فواحداً ما شأنهم ؟ وما خطبهم ؟ وما مصيرهم ! فكان جوابهم جواباً واحداً خلاصته أن هذا النمر اللابس ملابس الإنسان رأى خلتهم[1] من حيث يخفي مكانها فثغر[2] فيها ثغرة انحدر منها الى أعراضهم ، فبعث بها ما شاء وشاء العابثون ، فكانوا في داره الضروع التي يحتلبها ، حتى اذا استنفد درتها[3] ألح على دمائها فاستنزفها ، ثم قالوا إنه كان يديم مطال الجوع في بطونهم فاذا علم انهم هلكوا او كادوا طفق يعللهم باللقمة بعد اللقمة، والمضغة بعد المضغة ، ويرمقهم[4] العيش ترميقاً لا ابقاء عليهم ، بل على ما يصل الى يده من المال من طريقهم ، وزعموا انه كان يريبه منهم في بعض الاحيان تمردهم عليه واحتفاظهم باعراضهم من دونه فيملأ ادمغتهم بدخان الحشيشة ليسرق عقولهم ، ويحل عقدة إبائهم ، ويتركهم لا يدرون ما ياتون وما يدعون .

وما وصلوا من شكواهم الى هذا الحد حتى سقط منهم اثنان بين يدي القاضي فراعه من أمرهم ما راعه ، ثم علم انه الجوع ، فامر لهم بخبز وأدم فازدحموا عليه يتناهبونه ويزدردونه ازدراد الوحش فريسته . وقد وقف ذلك الذئب المستأنس ينظر اليهم نظرة شزراء كتلك النظرة التي يرمي بها الصائد صيده اذا أفلت من حبالته .

بذلك حدثني من رأى هذا المنظر بعينه ، فارتعت لسماع حديثه الارتياع كله ، وحسبت انه يحدثني عن حادثة وقعت في مبدأ الخليقة في

(١) الخلة : الحاجة .
(٢) ثغر الشيء : ثلمه وفتحه .
(٣) الدرة : اللبن .
(٤) رمقه الشراب : أعطاه إياه حسوة حسوة.

مغارة من مغاور الجن او شفعة[١] من شفعات الجبـال ، وقلت له : أتعلم أيها الرجل أنك تحدثني عن انسان ؟ قـال : لا تعجل فما حدثتك الا عن رجل حمّـار لا يفارق وجهه صورة حماره ليله ونهاره ، وربما سرت اليه تلك النتيجة من هـذه المقدمة فكيف بك لو علمت أن هـذه الرذيلة لا يترفـع عنها في هـذا البلد كثير من الاتقيـاء والصالحين ، والاشراف والمستورين ؟

قلت : لا تحدثين عن شيء ، فلم يبق في قلبي متسع ، لاحتماله أكثر مما احتملت والامر لله وحده .

ليست مسألة الزوايا وخباياهـا أمراً يستهان به ، أو تغضي العيون عليه فاننا نريد ان نعد لوطننا رجالاً ذوي شجاعة واقدام، وعزة وأنفة، من الذين اذا عظم الخطب كانوا حماة الديار ، واذا اشتد البأس لا يولون الادبار .

(١) الشفعة : رأس [illegible] .

القمار

لا أستطيع أن أعتقد ما يسمونه الجنون الفرعي ، ويريدون منه أن يكون الانسان مجنوناً في شان واحد من شؤونه ، عاقلاً في باقيها ، وعندي أن الرجل اما أن يكون عاقلاً او مجنوناً ، ولا ثالث لهما .

العقل قوة يقتدر بها المرء على ضبط نفسه عن شهواتها ، فموقفه أمامها موقف واحد ، فإما ان يغلبها جميعاً أو تغلبه جميعها .

أما ما يراه الرائي أحياناً من استهتار الرجل في بعض الشهوات استهتاراً يستهلك نفسه وعقله ، وزهده في بعضها زهد الاعفاء القانعين ، فذلك لأنه رغب في الاولى فاسترسل وراء رغبته ، ولم يدعه الى الاخرى داع من شهوات قلبه ونزعات نفسه ، ولو دعاه لخف اليه ولباه ، ولن يسمى الرجل زاهداً أو عفيفاً إلا اذا أمسك نفسه من شهوة تدعوه اليها فيدفعها ، وتثور ثائرتها بين جنبيه فيقمعها .

لا تقل ان السكير عاقل ان رأيته غير فاسق ولا عاهر ، واعلم انه

يؤثر الفسق ولا تجذبه اليه جواذبه ، ولو آثره لكان موقفه من المواخير موقفه من الحانات ، ولا تقل ان الفاسق عاقل ان رأيته غير سارق ولا مختلس ، فإنه لا يحب السرقة ولا الاختلاس ، ولو أنه احبها لكان في التسلل الى اعماق الدور والقصور ، أبرع منه في التسلل الى مكامن الفسق والفجور ، ولا تقل ان المقامر ان رأيته لا شارباً ولا فاسقاً ، فان القمار قد استهلك شهوته واستخلصها لنفسه، ولم يدع فيها فضلة لسواها ، ولولا ذلك لكان أكبر السارقين ، وأفسق الفاسقين .

ولو كنت من المصانعين ، الذين يزخرفون لارباب الرذائل رذائلهم حتى يصوروها في نظرهم فضائل بما يلبسونها من أثواب التأويل ويصبغونها من ألوان التعليل ، لما استطعت ان تصانع المقامر لان حاله من الجهل الفاضح ، والغباوة المستحكمة ، أبعد الحالات عن عذر المعتذرين ، وتأويل المتاولين .

ما جلس المقامر الى مائدة القمار ، الا بعد ان استقر في ذهنه ان الدرهم الذي في يده سيتحول بعد هنيهة من الزمن الى دينار ، ويعود به الى اهله فرحاً مغتبطاً ، وأحسب أن العقول العشرة مجتمعة ومتفرقة ، تعجز عن ادراك هذه العقيدة ومثارها .

ان كان يؤمل الربح لانه يرى عن يمينه رجلاً قد ربح . فلم لا يخاف الخسران لانه يرى عن يساره مائة خاسرين ؟ وان كان يضحكه منظر الربح لانه يرى في بعض مواقفه احد الرابحين ضاحكاً ، فلم لا يبكيه

منظر اصدقائه ورفقائه الخاسرين، وهم يتساقطون حواليه تساقط جنود المعركة تحت القذائف المنطلقة .

ما اشبه المقامر ألذي يطلب من الدينار الواحد مائة دينار بالكيميائي الذي يطلب من القصدير فضة ، ومن النحاس ذهباً ، كلاهما يتاجر بالاحلام في سوق الاوهام ، فيربح ربحاً مقلوباً ويكسب كسباً معكوساً ، وما اشبههما جميعاً بذلك الرجل الذي علم ان في صحراء من صحاري اواسط افريقيا كنزاً دفيناً لا تعرف له بقعة معينة ، وليس عليه دليل فحمل فاسه على كتفه ومشى في تلك الصحراء يحفر الحفرة التي تستنفذ قوته وتستهلك منته . . وتبلغ من نفسه ما لايبلغ كر الغداة ومر العشى . . حتى اذا بلغ قرارتها . . وعلم انه لم يعثر بضالته . . تركها وبدأ يحفر غيرها بجانبها . . فلا يكون نصيبه من الاخرى اوفر من نصيبه من الاولى . . وهكذا . . حتى ادركه الموت ، وهو في بعض تلك الحفر . . فكان هو نفسه الكنز الدفين . . الا انه كنز لا يطمع فيه طامع ولا يرغب فيه راغب .

ان كنت لم تسمع في حياتك باجتماع النقيضين وتلاقي الضدين ، فاعلم ان المقامر في آن واحد اجشع الناس ، وأزهد الناس ، فلولا حبه المال لما هان عليه ان يبذل راحته وشرفه وسعادته وحياته في سبيله ! ولولا زهده فيه لما اقدم باختياره على تبديده على مائدة القمار لا لغاية يطلبها ولا لمارب يسعى اليه .

انا لا أريد أن أنصح للمقامر بترك القمار ، لاني اعتقد ان من يملك

عقلاً مثل عقله ، وفهماً مثل فهمه ، لا يستطيع ان يفهم كلمة مما اقول ، ومن عجزت حوادث الدهر وعبر الايام عن ان ترد عليه ضالة عقله وتهديه السبيل الى نفسه لا تنفعه كلمة كاتب ، ولا موعظة واعظ ، وانما اريد ان اقول للذين لم يقدر لهم ان يخطوا خطوة واحدة في هذه الطريق الوعرة حتى اليوم : لا تقامروا جدّاً ولا هزلاً ، فان هزل القمار يجر الى جده ، ولا تمروا بمعاهد القمار قصداً ولا عفواً ، فان من حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه ، ولا تصاحبوا المقامرين بحال من الاحوال ، فانهم لا يرضون عنكم حتى تتخذوا ملتهم ، فان فعلتم خسرتم مالكم وشرفكم وعزتكم وكرامتكم من حيث لا تجدون من رحمة القلوب ورأفتها ما يعوّض عليكم ما خسرتم ، فارحموا انفسكم ان كنتم راحمين ، واتقوا الله ان كنتم مؤمنين .

الأوصياء

مرض فلان مرض الموت فلم يحفل بالمنية لأنه اقتطف زهرة الحياة جميعها ، ولأن الثمانين قد ألحت عليه بصبحها ومسائها ، وليلها ونهارها ، فلم تترك له خيطاً من خيوط الأمل ، ولا شعاعاً من أشعة الرجاء لولا ان بين يديه ولداً صغيراً في السابعة من عمره قد ماتت أمه منذ عهد قريب . والشيوخ الكبار الى ابنائهم الصغار حنين الإبل الى أعطانها ، فنظر اليه ، وهو يحوم حول فراشه نظرة طويلة لم يسترجعها الا مبللة بالدمع المنسجم ، ثم زفر زفرة حرى خيل لرائيها أنها الزفرة الاخيرة ، وأنشأ يقول :

أي بني ، من لي بقلب يرعاك مثل قلبي ، وعين تسهر مثل عيني ، وروح ترفرف فوق رأسي مثل روحي ، ونفس تضم جوانحها عليك مثل نفسي ؟

أي بني ، كأني بركب الموت ، وقد نزل بي ، وحل بساحتي ، وكأني

به ، وقد احتملني من فضاء القصر الى مضيق القبر ، ومن نور الحياة ، الى ظلمة الموت ، وكاني بك ، وقد طفقت تنشدني فلا تجدني ،وتفتش فلا تراني ففزعت وارتعت ، ثم صرخت فصعقت ، ولم تجد بجانبك من يمسح دمعك ويخفف حزنك .

من لي بصديق أثق بوده وإخلاصه ، ورحمته وحنانه ، فاكل اليه أمرك وأعتمد عليه في تاديبك وتخريجك ، وإبلاغك ما أرجو لك من السعادة في مستقبل دهرك ؟

فما أتم نجاءه حتى دخل عليه صديقه الوحيد الذي كان يانس به ويستخلصه لنفسه ، وقد سمع آخر نجواه ، فقال له : هوّن عليك يا مولاي فأنا صديقك الذي تنشده ، وأنا والد ولدك من بعدك ، وخليفتك بعد الله عليه ؛ ثم تهافت على فراشه وظل يبكي لبكائه، وينشج لنشيجه، فاستنار قلب الرجل بنور الأمل وقال : أحمدك اللهم قد رحمت ولدي وحفظت بيتي .

وما هي الا أيام قلائل حتى كتب الشيخ كتاب الوصية بيده ، ثم اجاب دعوة ربه تاركاً في يد ذلك الصديق الكريم مجده وشرفه ، وماله وولده .

اتخذ الشيخ ذلك الرجل صديقاً له في الاعوام الأخيرة من اعوام حياته بعدما رآه يكثر الاختلاف اليه ، ويطيل اللبث بجانبه ، ويلازم الوقوف عند أمره ونهيه ، ويخف لقضاء حاجاته ولباناته ، ذلك الى ما

كان يراه متجملاً به من صلاح مملوء بالركعات والسجدات ، والتسبيحات المتواليات وعفة حتى عن اللقمة يصيبها على مائدته .. وتورع حتى عن الجرعة يتجرعها في حضرته .. فاستخلصه لنفسه .. وأنزل من قلبه المنزلة التي لا ينزل معه فيها غير ولده .. واصبح آثر الناس عنه حتى ما يستطيع فراقه لحظة ، ولا يصبر عنه ساعة ، الى ان أحس باقتراب الأجل ، فاوصاه بما أوصى ، وعهد اليه بما عهد .

هذا هو تاريخ ذلك الصديق في حياة الشيخ ، أما تاريخه بعد مماته فاسمعك منه ما تهوى له الأفلاك عجباً ، وتخر له الجبال هداً .

لم تكن صلاته الا رياء ونفاقاً،وركوعه وسجوده الا كيداً ومداهنة، وعفته وزهادته الا حبالة نصبها ليعلق بها عقل الشيخ ،وقد علق ، فيسلبه ماله وولده ، وقد فعل ، وما كان اختلافه اليه ، ولا تردده عليه الا طمعاً في هذا المصير الذي صار اليه ، فلما علم ان قد تم له من أمره ما أراد ، أطلق يده في مال الصغير يعبث به عبث النكباء بالعود ، ويبتاع به لنفسه ما شاء ان يبتاع من قصور ودور وبساتين وضياع ، فنبه ذكره بعد ما كان خاملا ، ونبت ريشه بعد ما كان عارياً ، واصبح صاحب السلطان المطلق في ذلك القصر يذل من يشاء ويعز من يشاء .

أما شانه مع الولد فقد علم أنه سيبلغ عما قليل أشده ، ويملك رشده وأنه سيقطع عليه لذته ، ويقف له موقف المعترض سبيله ، ويحاسبه على القليل والكثير والصغير والكبير، فلم ير بدأ من ان يعد لذلك اليوم عدته

فعمد الى الولد فقطعه عن المدرسة لأنه لا يحب ان ينشأ متعلماً ، ثم أغرى به من ساقه الى مواطن الفسق ومجامع الفجور ، لأنه لا يحب ان ينشأ عاقلا ، وما زال ينفق عليه وعلى الموكلين بإفساده من وراء حجاب حتى علق الشراب برأسه علوق السلال بالصدور ، فاصبح بين الحانات والمواخير ، كالطائر بين الاغصان لا يرسل الساق الا ممسكاً ساقاً .

فكانما وكل بعقله مقراضاً يبضع له في كل يوم منه بضعة حتى كاد يأتي عليه ، فما بلغ السن التي يرشد فيها القاصرون حتى استحال الوصي على القاصر قيماً على المعتوه ، ولم يبذل في سبيل الوصول الى ذلك اكثر من لقيمات ألقاها من فتات تلك المائدة الى اعضاء المجلس الحسبي، فادخلوه تلك الجنة الزاهرة بغير حساب .

شرع الله شريعة الحجر على السفهاء والمعتوهين ، وإقامة القوّام عليهم ، رحمة بهم، فاستحالت على يد المجالس الحسبية نقمة عليهم واصبح اللص الذي يجهل صناعة فتح الاقفال ويتقي مغبة تسلق الجدران ، قادراً على ان يسرق ما يشاء تحت راية هذه الشريعة المقلوبة من حيث يأمن على نفسه الوقوف أمام محكمة الجنايات ، وجر الاغلال الثقال في غيابات السجون. وانتقلت الثروات العظيمة من ايدي اصحابها مخافة ان يسرفوا فيها الى ايدي آخرين يبددونها تبديداً ، ويمزقون أديمها تمزيقاً ، من حيث لا يكون بينهم وبين المورث صلة نسب ، او وشيجة رحم ، حتى أصبح السعي الى جمع المال وادخاره للوارثين في هذا العصر عملاً من الاعمال الباطلة ، وضرباً من ضروب الخرق الواضح ، والجهل الفاضح ، فمن لي

ان أنا دبرت المال وجمعته ان لا يكون خليفتي عليه من بعدي لصاً من اولئك اللصوص الذين تمنحهم المجالس الحسبية ، ما تمنعهم الشرائع الإلهية؟ ومن لي ان أعيش الى ان أدرك ولدي فأتولى أمر تربيته بنفسي قبل ان يظفر به في حداثته ظفر جارح من اظفار اولئك الأوصياء فيميت نفسه ، ويقتل عقله .. ويفسد عليه حياته ، ويلبسه من الفضيحة والعار ما يقلق نفسي في عالمها ، ويزعج عظامي في مرقدها .

فلقد حدثني من قص عليّ تلك القصة ان ذلك الوصي لما علم أن قد تم له من الحجر على ذلك الغلام ما أراد ، عمد الى تزويجه من فتاة حسناء من بنات الأشراف ما كان يعنيه أن يزوجه منها لولا أن له في ذلك مارباً من المآرب الفاسدة ، فإنها مـا كادت تخلـع ثوب عرسها حتى أنشا يختلف اليها ، ويكثر ازديارها في الجناح الذي تسكنه من القصر ، بما له على زوجها وعليها من حق الولاية والرعاية وبحجة النظر في شؤونها ومرافقها، ثم ما زال يختلها عن نفسها ويزين لهـا ما يزينه الشيطان للإنسان حتى علقت بحبالته ، كما علق بها غيرها من قبلها فكرهت زوجها ، وبرمت به، فرابه من أمرها مـا رابه ، فرصدها ليلة من الليالي حتى عرف سرهـا وموضع هواهـا ، فشكا فلم يجد سامعـاً ، ثم بكى فلم يجد راحماً ، فكان يقضي كثيراً من لياليه في غرفة من غرف القصر واجماً مطرقـاً مسلماً رأسه الى ركبتيه ، ودمعه الى خـديه ، لا سمير له ولا مؤنس الا رنات الضحكات التي تنهل عليه من مخدع زوجه ، فكان يثب تارة وثبة الأسد فيثير في القصر ثائرة شعواء تضج لهـا جوانبه ، فيتسارع اليه الخـدم

فيضربون علـى يده وفمه ، وأخرى يعود اليه بلهه وخبله ، فينظر الى هذه المناظر المؤلمة نظر الضاحك اللاعب .

مرت عـلى تلك الحوادث سنوات استأثر فيها ذلك الوصي بتلك الدائرة الواسعة وألح عليها بكلكله ، حتى اجتز وبرها ، ثم استكشط جلدها فلم يبق منها إلا هيكل عظمي قائم ، فلما علم ان قد قامت قيامة الناس عليه ، وأن قصته مع الغلام وزوجته قد ملأت مسمع الخافقين ، وأن نجمه الثاقب قد مال الى الأفول ، عمد الى حيلة شيطانية ختم بها تلك الرواية الغريبة بهذا الفصل الحزن الأليم .

تفتح للغلام بعد انقباضه ، وابتسم اليه بعد تقطيبه ، وابتاع له جميع ما اقترحه عليه من ثوب فاخر ، ومركب فاره ، ومزاهر وعيدان وكؤوس ودنان ، ثم خلا به في ساعة من ساعات نشوته وارتياحه فقال له : أيها الصديق قد آن أوان استقلالك بشأنك وانفرادك بأمرك ، فاكتب الى المجلس الحسبي رقعة تطلب فيها رفع الحجر عنك ، واكتب توقيعك على هذه « المخالصة » براءة لذمتي ؛ فاستطير الغلام فرحاً وسروراً ، وما لبث ان كتب الاولى ووقع على الاخرى ، ثم اوعظ الى المجلس الحسبي بتلبية طلبه ، فلباه ، وقضى برفع الحجر عنه ، فاستقبل تلك النعمة استقبال الظامىء كأس الشراب ، وكان لا بد له من أن يشرب حتى يبشم ، ففتش بين يديه عن مال ينفقه فلم يجد ، وكان الرجل قد وكل به عوناً من أعوانه يداخله ويتحين فرصة حاجته الى المال فيمنحه ما يريد ، فكان يعطيه المال باليمين ، ويأخذ منه صك البيع

باليسار ، وما زال هذا يعطي وذاك يأخذ حتى أصبح نصف « الدائرة » بعد عامين ملكاً لعون الوصي وللوصي غداً بثمن لا يساوي عشر معشارها ، بل بغير ثمن ، وهل ابتاعها مبتاعها إلا بمالها ، وأنفق عليها إلا ثمرتها ؟

هنالك قام الوصي وقعد ، ونادى في الناس بصوت يشبه صوت الحق ونغمة تشاكل نغمة الصدق : أيها الناس قد كنت انذرتكم بمصير هذا الغلام ان صار أمره الى نفسه ، فكذبتم قولي ، وسفهتم رأيي ، وما زلتم تقولون وتتقولون حتى احرجتم صدري ، ودفعتموني الى الغدر بذلك العهد الذي أخذه عليّ ذلك الصديق الكريم أن أتولى شأن ولده من بعده ، ولا اتخلى ساعة واحدة عن رعايته وتعهده ، فكان ما كان مما تعلمون من تبديد ثروته وتمزيقها ، فها أنتم ترون باعينكم شؤم رأيكم وجريرة سعيكم .

ثم أعاد كرته على الغلام وسعى سعيه في المجلس الحسبي فأعاد سيرته الأولى ووضع في عنقه غلا لا فكاك له من بعده ، الى يوم يبعثون .

ليت شعري ، هل يعلم ذلك المقبور في لحده ما صنعت يد الحدثان بماله وولده ، وان المال قد ورثه غير وارثه ، واستأثر به غير صاحبه ؟ وأن ولده قد اصبح ذلك الملك الكبير ، والجنة والحرير ، يطلب المضغة فتعوزه ، والجرعة فتلتوي عليه ؟ وأنه يبيت الليالي ذوات العدد مطرحاً في زوايا الحانات ، لا وطاء غير أديم التراب ، ولا غطاء غير قطع

السحاب ؟ وهل اعد عدته للوقوف بين يدي الله تعالى في ذلك اليوم المشهود ؟ يوم تكشف المنات ، وتفضح العورات .. فيمسك ولده بيمناه ووصيه بيسراه ، ثم يناجي ربه ويقول :

اللهم اعدني على هذا الكاذب الذي ختلني وخدعني وخفر ذمتي وخاس بعهدي وخان أمانتي ، وأفسد وصيتي ، وخذ لولدي بحقه من هذا الظالم الذي سرق ماله ، وهتك عرضه، وعذب نفسه ، ونغص عيشه. فانت أعدل الحاكمين وأرحم الراحمين .

●

العام الجديد

في مثل هـذا اليوم من كل عـام يقف ركب العـالم السائر بمنزلة من منازل الحياة ، فينزل عن مطاياه ليستريح فيها ساعـة من وعثـاء السفر بعد أن نـال منه الأين والكلال ، وأضناه سري الليل وسير النهـار ، - ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً .

هنالك يجتمع السفر [1] في صعيد واحـد فيتعارفون ويتصافحون ، ويتفقد بعضهم بعضاً، فيجدون أن فلاناً مات جوعاً ، وفلاناً مات ظمأ، وآخر افترسه سبـع ، وآخر قتله لص ، وآخر مات غيله ، وآخر سقط عياً وآخر طارت به قنبلة ، وآخر هوت بـه طيارة ، وآخر اجتـاحه بركان، وآخر تردى عليه معدن ثم يعودون الى جرائد الإحصاء فيدوّنون فيها حاضرهم ، كما دونوا ماضيهم ، ثم يوازنون بين هـذا وذاك فيجدون أن الحاضر شر ، وأن ميادين الحروب لا تزال ملوثة بالدماء ، ومصانـع

(١) السفر : المسافرون .

الموت لا تزال تفتن في عدده وتستكثر من ادواته ، وأن جذور الشر القديمة لا تزال ناشبة بنفوس البشر ، حتى ما يتمنى احد ان تقع عينه على احد وان سحب البغضاء القاتمة لا تزال مخيمة على المجتمع الانساني من ادناه الى اقصاه شعوباً وقبائل واجناساً وانواعاً ، ومذاهب واديانا ، ومنازل واوطانا ، فيبغض الرجل صاحبه لأنه يخالفه في جنسه ، فإن عرف انه يوافقه أبغضه لأنه يخالفه في دينه ، فإن وافقه فيه ابغضه لأنه ينطق بغير لغته فإن نطق بها ابغضه لأنه لا يشاركه في وطنه فإن كان مشاركاً له ابغضه لأنه يزاحمه في حرفته فإن بعد عن طريق مزاحمته ابغضه لأنه يخالفه في رأيه ، فإن لم يخالفه ابغضه لانه لا يحاكيه في لونه ، فان لم يجد شيئاً من هذا ولا ذاك ابغضه لانه شخص سواه ! كأن قضاء حتماً على الإنسان ان يبغض كل صورة غير الصورة التي يراها كل يوم في مرآته .

فاذا فرغوا من النظر في جرائد حسابهم ، والموازنة بين حاضرهم وماضيهم ، اضافوا الى سيئاتهم الماضية سيئة الغش والكذب ، فتناسوا كل هذا ووضع كل منهم يده في يد اخيه مهنئاً له بالعيد السعيد داعياً له بدوام الغبطة والهناءة ، ثم تنادوا للرحيل ليستقبلوا المرحلة الآتية بعد قطع المرحلة الماضية .

علام يهنىء الناس بعضهم بعضاً ؟ وماذا لقوا من الدنيا فحرصوا على البقاء فيها ؟ ويغتبطوا المراحل التي يقطعونها منها ؟ وهل يوجد بينهم شخص واحد يستطيع أن يزعم أنه أصبح سعيداً كما أمسى ؟ أو أمسى

سعيداً كما أصبح ؟ أو أنه رأى بروق السعادة قد لمع في إحدى لياليه ولم ير بجانبه ما يرى في الليلة البارقة من رعود قاصفة ، ورياح عاصفة ، وصواعق محرقة ، وشهب متطايرة ؟

بأية نعمة من النعم ، أو صنيعة من الصنائع ، تمن يد الحياة على إنسان لا يفلت من ظلمة الرحم الا الى ظلمة العيش ، ولا يفلت من ظلمة العيش الا الى ظلمة القبر ، كانما هو يونس ، الذي التقمه الحوت فمشى في ظلمات بعضها فوق بعض ! وأية يد من الأيادي أسدتها الأيام الى رجل يظل فيها من مهده الى لحده حائراً مضطرباً ، يفتش عن ساعة راحة وسلام تهدأ فيها نفسه ، ويثلج صدره ، فلا يعرف لها مذهباً ولا يجد اليها سبيلاً ، إن كان غنياً اجتمعت حوله القلوب الضاغنة ، واصطلحت عليه الايدي الناهبة ، فإما قتلته ، وإما أفقرته ، وإن كان فقيراً عد الناس فقره ذنباً جنته يداه ، فتتناوله الأكف بالصفع والأرجل بالركل والألسن بالقذف ، حتى يموت الموتة الكبرى بعد أن مات الموتة الصغرى ، وإن كان عالماً ولع الحاسدون بذمه وهجوه ، وتفننوا في تشويه سمعته ، وتسويد صحيفته ولا يزالون به حتى يعطيهم العهود والمواثيق التي يرضونها أن يعيش عالماً كجاهل وحياً كميت ، وأن يكتم علمه في صدره ، فلا يفضي به الى لسان ولا قلم ، حتى يدركه الموت ، وإن كان جاهلا اتخذه العالمون مطية يركبونها الى مقاصدهم وأغراضهم من حيث لا يهادنونها ولا يرفقون بها حتى يعقروها . وإن كان بخيلا ازدرته القلوب، واقتحمته العيون وتقلصت له الشفاه ، وبرزت له الانياب ، وانقبضت

له الامرة ، والتهبت له الانظار ، وأرسلت اليه الاغصان ألسنة نيرانها حتى تحرقه ، وإن كان كريماً محسناً عاش مترقباً في كل ساعة من ساعات ليله ونهاره شر الذين أحسن اليهم إما لانه أذاقهم جرعة باردة فاستعذبوها فاستزادوه فلم يفعل ، فهم ينتقمون منه ، أو لانهم من أصحاب النفوس الشريرة الذين يخيل اليهم أن المحسن يريد أن يبتاع منهم نفسه بما يسدي ، وهم يأبون إلا أن يتناولوا منه الإحسان بلا مقابل فهم ينقمون عليه إن عرف كيف يفلت من أيديهم .

لا سعادة في الحياة إلا اذا نشر السلام أجنحته البيضاء على هذا المجتمع البشري ، ولن ينتشر السلام الا اذا هدأت أطماع النفوس ، واستقرت فيها ملكة العدل والإنصاف ، فعرف كل ذي حق حقه ، وقنع كل بما في يده عما في يد غيره ، فلا يحسد فقير غنياً ، ولا عاجز قادراً ، ولا محدود محدوداً ، ولا جاهل عالماً ، وأشعرت القلوب الرحمة والحنان على البائسين والمنكوبين فلا يهلك جائع بين الطاعمين ولا عار بين الكاسين ، وامتلأت النفوس عزة وشرفاً ، فلا يبقى شيء من تلك الحبائل المنصوبة لاغتيال اموال الناس باسم الدين مرة والإنسانية أخرى ، ولا ترى طبيباً يدعي علم ما لم يعلم ليسلب المريض روحه وماله ، ولا محامياً يخدع موكله عن قضيته ليسلب منه فوق ما سلب منه خصمه ، ولا تاجراً يشتري بعشرة ويبيع بمائة ، ثم ينكر بعد ذلك أنه لص خبيث ، وكاتباً يضرب الناس بعضهم ببعض حتى تسيل دماؤهم فيمتصها كما يضرب القادح الزند ليظفر بالشرر المتطاير منها .

وما دامت هذه المطالب أحلاماً كاذبة وأماني باطلة ، فلا مطمع في سلام ولا أمان ، ولا أمل في سعادة ولا هناءة ، ولا فرق بين امس الدهر ويومه ولا بين يومه وغده ، ولا فرق بين مغفلات أيامه غير ما عرفت وما ذاق أحد من نغماته غير ما ذقت ، وليفرح بالعام الجديد من حمد ما مضى من أيامه وسالف أعوامه .

*

سحر البيان

رأيت في إحدى روايات شكسبير ، وهي الرواية المعروفة برواية « يوليوس قيصر » موقفاً لبطلين من ابطـال الفصاحة ، وفـارسين من فرسان البيـان . وقد وقف كل منهما من صاحبه موقـف اللاعب من اللاعب، ووقف الشعب الروماني بينهما موقف الكرة من أقدام اللاعبين.. تعلو بهـا حيناً وتسفل أحيـاناً ، فلا تثبت صاعدة ولا تستقر هـابطة ، فعلمت أن العامة عـامة في كل عصر ، والشعب شعب في كل مصر . وأن سواد الأمـة تحت صرح فرعون مثله تحت عرش قيصر ، وأن رأس التاريـخ اليسوعي ، مثله في ذنب التاريـخ المحمدي ، تدنو بـه كلمة ، وتنأى به أخرى، وتجذبه دمعة وتدفعه ابتسامة ، وتطير بلبه الشعريات والخيالات طيران الريح الهوجاء بذرات الهباء .

علم بروتس الشريف الروماني أن يوليوس قيصر قد استعبد الشعب الرومـاني وأذل نفسه ذلا . . ملك عليه حواسه ومشاعره حتى مـا يكاد

يشعر بمرارتـه، وكذلك الذل اذا نزل بالنفوس سلبها كل شيء حتى الشعور بنزوله فيها ، وعـلم ان حياة ذلك الشعب بموت ذلك القيصر . . فهان عليه أن يقتل صديقه وسيده ، افتداء لامته ووطنه ، فطعنه طعنة نجلاء ، سلبته نفسه في لحظة واحدة ، فهاج الشعب الروماني عـلى القاتل وأعوانه ، هيـاج الأمواج الثائرة عـلى السفن المـاخرة ، فوقف الرجل خطيباً أمام ذلك الشعب الهائج المحتدم وقفة المستبسل المستميت ، وكان لا بد له في هذا الموقف من أحد المصيرين ، إما نصر يعلو بـه الى مدارك الأملاك ، أو خـذلان يهوي به الى مقر الأسماك ، ومن أحـد المخرجين : إما مخرجه مرفوعاً عـلى محفة الابطال ، أو محمولاً عـلى أعناق الرجال ، فبعد لاي ما استطاع بعض الزعماء أن يسكن ثائرة الثائرين ويستدرجهم الى سماع دفاع القاتل عن نفسه ، أو التفكه بمنظره المضحك ، وهو يتلمس في هذه الظلمة الحالكة المخرج من جريمته .

الخطبة

بروتس (وهو عـلى منبر الخطابة) : أيها الرومانيون ، أتعدونني بالصبر قليلاً على سماع ما أقول من حلو الكلام ومره ، إكراماً لموقفي وإكراماً للعدل ؟

أنا لا أريد أن أخدعـكم ، ولا اعبث بعقولـكم وأهوائكم بـل أريد منـكم أن تنظروا الى قضيتي نظر الحذر المتيقظ الذي لا يعطي هوادة ولا يلقي قيـاداً لاني لا اعتقد ان في زاوية من زواياهـا كميناً اخاف ان

تقع عليه العيون .

أيها الرومانيون ، إن كان بينكم صديق لـ « قيصر » يحبه ويذوب حزناً عليه فليسمح لي ان اقول له : ايها الصديق الكريم ، ان بروتس قاتل قيصر كان يحبه اكثر منك .

ايها القوم : والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، فاعلموا اني ما قتلت قيصر لاني كنت ابغضه ، بل لاني كنت احب روما اكثر منه . كان قيصر طماعاً فقتلته ، ففي ساعة واحدة منحته دمعي وقلبي وخنجري .

انا لا اصدق ان بينكم من يحزن لموت قيصر ، فأنتم رومانيون ، والروماني لا يحب ان يعيش ذليلاً .

من منكم يكره ان يكون رومانياً ؟ من منكم يكره ان يكون حراً؟ من منكم يحتقر نفسه ؟ من منكم يزدري مصلحة وطنه ؟ ان كان بينكم واحد من هؤلاء فليتكلم ، لانه هو الذي يحق له ان يثأر لنفسه مني ، لاني لم أسيء الى احد سواه .

الشعب ـ لا ، لا ، ليس فينا واحد من هؤلاء .

بروتس ـ إذن انا لم أسيء الى احد منكم .

وهنا دخل انطونيوس صديق قيصر ورأس الناقمين على قتلته والمطالبين بثأره هو وآخرون يحملون على ايديهم جثة قيصر لتابينه في

هذا الجمع الحاشد فاستأنف بروتس الكلام وقال :

ها هي جثة قيصر ، وها هو صديقه أنطونيوس جاء ليأبنه فاستمعوا له واعلموا ان قيصر المذنب غير قيصر الماجد ، وقد سمعتم ما قيل عن الاول فاسمعوا ما يقال عن الثاني ، واسمحوا لي ان أقول كلمة أختتم بها خطابي .

أيها الروماتيون : ان الخنجر الذي ذبحت به قيصر في سبيل روما لا يزال باقياً عندي لذبح بروتس في سبيل قيصر اذا أرادت روما ذلك .

تأثير الخطبة

الشعب — ليحيى بروتس .

أحد الناس — أنا اقترح ان نحمله على الأكف الى منزله .

آخر — انصبوا له تمثالا

آخر — امنحوه عرش قيصر .

آخر — إنه أفضل من قيصر .

آخر — إن قيصر كان ظالما .

آخر — إنه كان الظلم بعينه .

آخر — لتهنأ روما بالخلاص منه .

آخر — ألا نسمع تأبين أنطونيوس ؟

آخر — نعم نسمعه لأن بروتس أمر بذلك .

وهنا نزل بروتس والقلوب طائرة حوله ، والعيون حائمة عليه . ثم وقف على أثره أنطونيوس فرمقه الشعب بين الغضب والحقد .. ولولا

إشارة من بروتس ما استطاع ان يثبت في موقفه لحظة واحدة ، ثم أخذ يتلو كلمة التابين المشهورة التي هي آية الآيات في اللغة الإنكليزية فصاحة وبياناً .

القصيدة

أنطونيوس – أيها الرومانيون ...

أحد الناس – اسمعوا ما يقول أنطونيوس .

آخر – لا .. لا نسمعه .

أنطونيوس – اسمعوني إكراماً لبروتس .

أحد الناس – ماذا يقول هذا الرجل عن بروتس ؟

آخر – لا يقول شيئاً .

آخر – اذن نسمعه .

أنطونيوس – أيها الاصدقاء ، انني ما جئت هنا الساعة لأرثي قيصر بل لأدفن جثته .

أيها القوم : ما من أحد من الناس الا وله في حياته اعمال حسنة وأخرى سيئة .

أما حسناته فتموت بموته ، وأما سيئاته فتبقى من بعده الى يوم يبعثون .

كذلك كان قيصر في حياته ومماته . وكذلك كانت سيئاته .

أيها القوم : ما كنت لاستطيع ان أقف موقفي هذا بينكم ولا ان

أقول كلمة مما أريد ان أقول لولا ان بروتس قاتل قيصر أمرني بالوقوف وامرني بالكلام ، وها أنتم أولاء ترون أنني قد أطعته ، وأذعنت له لانه رجل شريف .

أيها القوم : يقول الشريف بروتس ان قيصر كان رجلاً طماعاً ، وأنا لا استطيع ان أخالفه فيا يقول ، لانه رجل صادق لا يكذب .

أنا لا استطيع ان اقول ان قيصر كان رجلاً قانعاً معتدلاً ، لان الشريف بروتس يقول غير هذا .

كل ما استطيع ان اقوله ان الفدية التي افتدى بها اعداؤنا أسراهم الذين جاء بهم الى روما قد ملأت الخزانة العامة حتى فاضت بها .

كل ما استطيع ان اقوله اني رأيت قيصر بعيني يبكي لبكاء الفقراء ويحزن لحزنهم ، ويبيت الليالي ذوات العدد ساهراً لا يغمض له جفن حدباً بهم ، وعطفاً عليهم .

كل ما استطيع ان اقوله اني عرضت بنفسي تاج الملك على قيصر في « لوبركال » عدة مرات فاباه زهداً فيه ، وتعففاً عنه .

كنت استطيع ان اقول ان الطمع لا يسكن قلباً مثل هذا القلب ولا يخالط فؤاداً مثل هذا الفؤاد ، لولا ان بروتس يقول ان قيصر رجل وأنا لا استطيع مخالفته ، لانه رجل شريف .

أيها الرومانيون : انكم أحببتم قيصر قبل اليوم حباً جماً ، فما الذي يمنعكم اليوم من البكاء عليه .

ان لم تبكوه لصفاته الكريمة ، فابكوه لانكم كنتم تحبونه ، ابكوه

لانه كان بالامس ينطق بالكلمة فتدوي في صدور العظماء دوي الرعد في آفاق السماء ، فاصبح اليوم مطرحاً مهيناً في ظل هذا الحائط ، ولا يجد بين الناس من يأبه له ، ولا من يعطف عليه .

أيها العقل الإنساني : كيف حالت حالك ، وتغيرت آيك ؟ وكيف انتقلت من الصدور الإنسية ، الى الصدور الوحشية ، وكيف ضللت سبيلك ، وعميت عليك مذاهبك ، فحسبت الخير شراً ، والشر خيراً واختلط عليك الامر ، فلم تستطع ان تميز بين الحسنات والسيئات والمكارم والجرائم .

أيها الرومانيون : عفواً ان هذيت بينكم ، او اسأت اليكم ، واعلموا ان الحزن قد قسم فؤادي قسمين : قسم على هذا المنبر ، وقسم في ذلك النعش .

أيها الاصدقاء : ان بين جنبي قلباً يخفق بحبكم والعطف عليكم والرأفة بكم ولولا مخافة ان تنفجر صدوركم حزناً وجزعاً لقلت لكم : ان قيصر قتل مظلوماً .

انني اعتقد ان بروتس ورفاقه قوم شرفاء عظماء ، لذلك احب ان أسيء الى نفسي والى قيصر واليكم قبل ان اقول انهم أخطأوا في قتل قيصر.

« وهنا صمت أنطونيوس وارسل من جفنيه بضع قطرات من الدموع » .

أحد الناس (يقول لصاحبه) ـ يلوح لي ان فيما يقول الرجل شيئاً معقولاً .

آخر ـ انك ان أنعمت النظر وجدت ان قيصر قد أسيء اليه .

آخر ـ لقد أثر في نفسي زهده في تاج الملك .

آخر ـ لقد أحزنني عليه أنه كان يبكي رحمة بالفقراء .

آخر ـ ان الذي يرثي لبؤس البؤساء لا يكون طماعا ولا ظالما .

آخر ـ اذا فسيكون لمقتل قيصر شأن غير الشأن الاول .

آخر ـ لا بد من عقاب القاتل .

آخر ـ (يقول لجليسه) أنظر الى أنطونيوس فهو يبكي وينتحب .

آخر ـ ليس في رومة رجل أشرف من أنطونيوس .

أنطونيوس ـ أتأذنون لي ان افارق موقفي هذا لحظة ، لاقف قليلا بجانب جثة القتيل ؟

الشعب ـ نعم ... نعم .

(فنزل أنطونيوس ومشى حتى وصل الى جثة قيصر ، وهو لا يزال في ملابسه التي قتـل فيها ، ولا تزال طعنات الخناجر ظاهرة في قبائـه) ثم قال :

أنطونيوس ـ من كان يملـك منكم دموعـا فليعدها لهـذا الموقف العظيم ، فانه موقف يحتاج الى كل ما في عيونكم من دموع .

انكم تعرفون جميعا هذا القباء ، ولكنكم لا تعرفون من تاريخه شيئا ، انا اعلم ان قيصر لبسه اول ما لبسه في مساء اليوم الذي انتصر فيه على « الدفى » ذلك الانتصار العظيم الذي نالت به روما فخر الابد .

(ثم وضع يده على احد الثقوب التي في القباء وقال) : في هذا القباء الشريف مزقت جثة هذا الفاتح العظيم .

ومن هـذا الثقب مرّ خنجر بروتس الى صـدر قيصر . ومن هـذا الثقب أطل دم قيصر ليرى بعينه وجه الضارب ، واحسب ان جميع افراد النوع الإنساني قد مرّوا بخاطر قيصر واحداً واحداً قبل ان يمر بخاطره صديقه : « بروتس » .

عرف قيصر ان قاتله هو صديقه ، وصنيعة إحسانه ، ففترت همته ، وعجز عن المقاومة ، لأن الطعنة التي اصابته في جسمه ، لم تكن باقل من الطعنة التي اصابته في قلبه ، ولم يكن منظر المدي والخناجر ، ابشع في نظره من منظر الخيانة والغدر ، هنالك عجز قيصر عن ان يقول شيئاً غير الكلمة التي ودع بها قاتله الوداع الاخير :

« وانت ايضا يا بروتس » ؟

وهنالك تحت تمثال « بومباي » وجد قيصر قتيلاً وقـد لف وجهه بقبائه حتى لا تتألم نفسه مرة ثانية بمنظر كفر النعمة ونكران الجميل .

ها انتم تبكون على قيصر ، فشكراً لكم على هذه الدموع الكريمة التي طهرتم بها ما لوّثت به يد الظلم تربة هذه الارض من الدماء .

انكم تبكون لمنظر قباء قيصر الممزق ، فكيف بكم لو شاهدتم ما تمزق من جثته ؟ .

(ثم دنا وكشف القباء عن جسمه ، وقال) :

ان في كل جرح من هـذه الجروح لسانا يشكو اليكم ، فاستمعوا له فهو أنطق من لسان الرثاء .

أحد الناس — يا له من منظر فظيع !

آخر — وارحمتاه لقيصر !

آخر — ان يوما يقتل فيه قيصر ليوم شره مستطير !

آخر — يا للدناءة والسفالة !!

آخر — يا للغدر والخيانة !!

آخر — الانتقام .. الانتقام .

الشعب (وهو يضج ضجيجا عظيما) — حرّقوا القتلة ، مزقوهم ، لا تبقوا على أحد منهم .

أنطونيوس — مهلا . مهلا . أنا لا أريد ان اشعل بينكم فتنة عمياء ولا اريد ان تطالبوا القتلة بالدماء التي أراقوها ، فانني لا ازال اعتقد أنهم قوم شرفاء وربما كانوا يعرفون أسبابا لقتله لا نعرفها ، وإنما أريد ان اقول لكم : ان قيصر كان يحبكم حبا جما فهو يستحق رثاءكم له وبكاءكم عليه .

لولا أني أؤثر البقاء عليكم ، ولولا أني احب تخفيف ما ألم بقلوبكم

من الحزن على فقيدكم ، لتلوت عليكم وصيته ، لتعلموا ان الرجل كان يحبكم وأنه ما كان خليقا ان يقتل بينكم ، وفيكم عين تطرف وعرق ينبض .

الشعب — اقرأ الوصية .

أنطونيوس — إني اخاف على صدوركم ان تنشق حزنا على القتيل الشهيد .

الشعب — نريد سماع الوصية .

انطونيوس — إنه يعطي كل فرد من افراد الشعب الروماني خمسة وسبعين فرنكا ، ويوصي بجميع غاباته ومنتزهاته للأمة .

احد الناس — يا له من رجل كريم !

آخر — يا له من رجل شريف !!

آخر — ويل للقتلة !

آخر — الثورة .. الثورة .

آخر — سنحرق منزل بروتس .

ثم خرج الشعب يتدفق في شوارع روما تدفق الأمواج الثائرة في القاموس المحيط .

انطونيوس (في موقفه وحده) — ايتها الفتنة العمياء قد ايقظتك من مرقدك فارفعي رأسك وامضي في سبيلك ، واشتعلي حتى يحرق

لسانك اديم السماء ووجه الغبراء .

وهكذا استطاع انطونيوس في موقف واحـد ان يستعبـد الشعب الروماني لنفسه قبـل انـ يفيـق من استعبـاد قيصر له وكذلك الأمم الضعيفة الجاهلة لا مفر لها من احدى العبوديتين : امـا العبودية لحمـلة التيجان ، او لحملة البيان .

*

الكبرياء

حضرة السيد الفاضل :

لي في البلدة التي أسكنها كرامة الحاكم، لأني أشغل وظيفة عالية فيها، وقد بدا لي أن أختلف الى المسجد لصلاة الجمعة ، فاختلفت حتى فاجاني يوماً من الأيام ما لم يكن في الحسبان .

حدث أن صعلوكاً يعرفني ، ويعرف مقامي ، تمادى في وقاحته وسوء أدبه ، حتى وقف بجانبي في الصلاة ، فاشمأزت نفسي من هذا الأمر اشمئزازاً عظيماً ، وحاولت أحتمله فلم أستطع ، فخفت إن أنا طردته أن يؤاخذني الناس به ، فهل تعرف مسوّغاً شرعياً يفرّق بين درجات الناس في مواقف الصلوات ؟ «سائل»

يا مولانا الحاكم :

رحماك بهذا الصعلوك المسكين الواقف بجانبك ، لا تضن عليه بذقة من ظلك الظليل أن تمتد اليه فتقيه أشعة التصعلك الحارة التي يتلظى

فيها ، ولا تحرمه نفحة من نفحاتك العطرة التي تهب من بين أردانك علّه يجدفيها روح الحياة ، ويتنسم منها نسيم السعادة والهناءة ، فيهدأ ساعةمن الزمـان عن الشعور بعصائبه ورزاياه ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، إن الله يحب المحسنين .

ليفرخ روعك وليثلج صدرك ، واعلم ان هـذا المسكين الواقف بجانبك لا يستطيع مهما نال منه العدم ، وبرح بـه الشقاء ، أن يقتطـع قطعة من سعـادتك او يفتلذ فلذة من شرفك ، فشرفك كالمصباح تستمد منه المصابيـح ، ونوره نوره ، وبهاؤه بهاؤه .

لا تظلم الرجل ولا تقل إنه وقح الوجه ، أو سيء الأدب ، فإني ــ بما أعلم من أخلاق هؤلاء البائسين وطباعهم وآمالهم التي تعتلج بها صدورهم وتهتف بهـا احلامهم ــ أعتقد انه مـا وقف بجـانبك إلا طمعاً في دورة الفلك التي علت بك ، وأنزلتك منـازل العظماء ، أن تدور به كذلك فتنزل منزلتك ، وتعلو به الى مقامك ، فاغفر له جهله وقصوره ، فمثلك من يقيل العثر ويستر الزلة .

إنك تريد مني أن ألتمس لك من ابواب الشريعة الإسـلامية باباً يسوغ لك طرد هـذا الصعلوك المجترىء عليك من موقفه الذي اختـاره لنفسه بجانبك فاسمع ما ألقي عليك .

إن الذي وقفت بين يديه في مصلاك اعظم شأناً وأجل خطراً ، من أن يحفل بثوبك اللامع ، وجبينك الساطع ، وردائك المطرز ، وقميصك الحبر ، وأن يعرف لك من الفضل والشرف اكثر مما تعرف لصاحبك فما

كان له أن يأمرك بالتقدم عليه في موقف الصلاة ، ولا أن يأمره ان يقف منك موقف العبد من السيد ، والمحكوم من الحاكم .

إن للجمعة والجماعة فضائل كثيرة ، وحكما جمة ، أرادها الشارع منها ، وانك لن تجد بين هذه الحكم ، وتلك الفضائل ، حكمة أغلى ، ولا فضيلة انفس من خلق التواضع الذي يشعر به العظيم عندما يرى انه قد وقف من الفقير في ذلك الموقف المقدس موقف الاخ من اخيه والكفىء من كفيئه .

ان كنت تريد يا مولانا الحاكم من اختلافك الى المسجد ألا تترك للفقير موقفاً من المواقف يملك فيه الخيار لنفسه ، حتى موقفه بين يدي ربه ، فخير لك ان تستصحب معك عند ذهابك شرطتك واعوانك لتامرهم فيه بما يرضيك من طرده واقصائه والتنكيل به جزاء له على وقاحته وسوء ادبه ، فإن تم لك من ذلك ما أردت ، فاحذر ان تنطق بعد ذلك بكلمة العبودية ، بعد ما نطقت بكلمة الالوهية ، حتى لا تجمع على نفسك بين رذيلتي الظلم والرياء .

فإن كنت تريد الصلاة للصلاة فاعلم ان الله لا يقبلها منك ولا يجزل لك ثوابها ، حتى تقف بين يديه موقف من خالطت الخشية قلبه ، وملكت عليه السكينة سمعه وبصره ، فلم يعد يبصر شيئاً مما حوله ، ولا يعلم أواقف هو في صفوف الملوك ، او في زمرة الصعاليك ؟

ايها العظماء :

ليست العظمة التي تعرفونها لانفسكم الا منحة من الفقراء اليكم فلولا

تواضعهم بين ايديكم ما علوتم . ولولا تصاغرتم في حضرتكم مـا استكبرتم فلا تجزوهم بالإحسان سوءاً ، ولا تجعلوا الكفر مكان الشكر ، تستدفعوا النقم ، وتستديموا النعم .

ايها العظماء :

ما هذه القصور التي تسكنونها ، ولا هذه الدور التي تغمرونها ، وهذه الاردية التي تجرون اذيالها، الا الواناً واصباغاً لا علاقة بينها وبين حقائق نفوسكم ، ولا صلة لها بجواهر افئدتكم وقلوبكم ، ومـا هو الا ان تطلع عليها شمس الحقيقة حتى تذهب بها ذهابها بالوان السحاب واصباغ الثياب ، فإذا انتم عراة مجردون ، لا تشفع لكم الا فضائلكم ، ولا تنفعكم الا مواهبكم ومزاياكم .

ايها العظماء :

لا عذر لكم في الكبرياء في جميع حالاتكم وشؤونكم ، فان كنتم من اربـاب الفضائـل فحري بالفاضل ان لا يشوه وجه فضيلته برذيلة الكبرياء ، اولا [illegible] تحمل الارض على ظهرها اسمج وجهاً ، ولا اصلب خداً من جهلة المتكبرين ، فانظروا اين تنزلون ، وفي أي مقام تقيمون ؟

الانتحار

قرأت في بعض الصحف أن رجلاً من تجار المسلمين انتحر لا لضيق يد ، أو شدة مرض ، أو بؤس حال ، بل لأنه حزن على وفاة صديق له فقتل نفسه .

ان الرجل المؤمن يعتقد ولا شك بسوء عاقبة المنتحر ، فكيف هان عليه ، وهو في آخر يوم من أيام حياته ، أن يضم الى خسارة دنياه ، خسارة آخرته ، وهي العزاء الباقي له عن كل ما لاقاه في حياته من شقاء وعناء ؟

إن الانتحار نزعة فاسدة وعادة مستهجنة ، رمتنا بها المدنية الغربية فيما رمتنا به من مفاسدها وآفاتها .

ولقد كنا نعجب قبل اليوم من تهالك الشرقيين على حب تقليد الغربيين حتى فيما يؤذيهم في شرفهم وكرامتهم ، وكنا اذا أردنا المبالغة في تمثيل هذا التهالك ، قلنا يوشك ان يقتل الشرقي نفسه بنفسه اذا علم ان

تلك عادة من العادات الغريبة ، فقد صار قريباً ما كان بعيداً ، وأصبح مالوفاً ما كنا نعده فرضاً من الفروض .

الانتحار منتهى مـا تصل اليه النفس من الجبن والخور ، ومـا يصل اليه العقل من الاضطراب والخبـل ، وأحسب ان الانسان لا يقدم عـلى الانتحار ، وفي رأسه ذرة من العقل والشعور .

حب النفس غريزة ركبها الله تعالى في نفس الإنسان لتكون ينبوع حياته وعماد وجوده ، والمنتحر يبغض نفسه أشد مما يبغض العدو عدوه، فهو شاذ في طبيعته ، غريب في خلقه ، معـاند لإرادة الله تعالى في بقـاء الكون وعمرانه ، ومن كان هذا شانه كان بلا قلب ولا عقل .

لا عذر للمنتحر في انتحـاره مهما امتلأ قلبه بالهم ونفسه بالآسى ، ومهما ألمت بـه كوارث الدهر ، وأزمت به أزمات العيش ، فإن مـا قدم عليه أشد مما فر منه ، وما خسره اضعاف ما كسبه .

ولو كان ذا عقل لعلم ان سكرات الموت تجمع في لحظة جميع ما تفرّق من آلام الحياة وشدائدها في الأعوام الطوال ، وان قضاء ساعة واحـدة فيما أعد الله لقاتل نفسه من العذاب الأليم أشد من جميع ما يشكو منه ، وما يكابده من مصائب حياته وأرزائها لو يعمر ألف سنة .

ما اكثر هموم الدنيا ، وما اطول احزانها ، لا يفيق المرء فيها من همّ الا الى همّ ، ولا يرتاح من فاجعه الا الى مثلها ، ولا يزال بنوها يترجحون فيها ما بين صحة ومرض ، وفقر وغنى ، وعز وذل ، وسعادة وشقاء ،

فاذا صح لكل مهموم ان يمقت حياته ، ولكل محزون ان يقتـل نفسه ، خلت الدنيا من اهلها ، واستحال المقام فيها ، بل استحال الوفود اليها ، وتبدلت سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

ما سمي القاتل مجرماً الا لأنه قاسي القلب متحجر الفؤاد ، وأقسى منه قاتل نفسه ، لأنه ليس بينـه وبينها من الضغينة والموجدة مـا بـين القاتل والمقتول ، فهو اكبر المجرمين ، واقسى القاتلين .

يخـدع المنتحر نفسه ان ظن أنـه مقتنع بفضل الموت عـلى الحياة ، وأنه انما يفعل فعلته عن روية وبصيرة ، فإنه لا يكاد يضع قدمه في المأزق الاول من مآزق الموت حتى يثوب ألى رشده وهداه ويحاول التخلص مما وقع فيه لو وجد الى ذلك سبيلا .

ان ألقى نفسه في الماء تخبط وبسط يـده الى من يرجو الخلاص عـلى يده وود لو يفتدي نفسه بكل ما تملك يمينه ، وان حبس نفسه في غرفته ليموت مختنقاً بالغـاز ولو سقط عليه سقف الغرفة ليستنشق نسمة من نسمات الهواء ولو عاش بعـد ذلـك كسير اليد والرجل ، فـاسد السمع والبصر .

ان فكرة الانتحار نزغة من نزغات الشيطان، وخطرة من خطرات النفس الشريرة ، فمن حدثته نفسه بقتل نفسه فليتريث ريثما يتبين كيف يكون صبره عـلى احتمال سكرات الموت ، وآلام النزع ، ومـاذا يكون

حديث الناس عنه بعد موته ، وهل يمكن ان يوجد بينهم عاذر له او مشفق عليه ،او مقتصد في النيل منه والسخرية به ؟ وليعرض على مخيلته قبل ذلك اشكال العذاب وانواع العقاب التي أعدها الله في الدار الآخرة لامثاله .

اني لا اظنه بعد ذلك فاعلا الا اذا كان وحشاً في ثوب انسان ، او بطلا من ابطال المارستان .

*

الحياة الشعرية

لولا الحياة الشعرية التي يحياها الناس احيانا لسمج في نظرهم وجه الحياة الحسية ومر مذاقها في أفواههم ، حتى ما يغتبط حي بنعمة العيش، ولا يكره ميت طلعة الموت .

لذلك ترى كل حي يهرب من الحياة الحسية جد الهرب ، لاجئاً الى الحياة الشعرية من اي باب من أبوابها ، لأنه يرى في هذه ما لا يراه في تلك مما يريح فؤاده ، ويثلج صدره ، وينفي عن نفسه السأمة والضجر من صنوف المناظر وأفانين المشاهد ، وغرائب المؤتلفات ، وعجائب المختلفات .

لولا حب الحياة الشعرية ما وجد في الناس كثير من المولعين بتخدير اعصابهم كشاربي الخمر ومدخني الحشيش وآكلي الأفيون . وهي وإن كانت في نظرهم حياة سعادة يتخللها شقاء ، إلا انها خير عندهم من حياة شقاء لا تتخللها سعادة ، ولولا حب الحياة الشعرية ما وجد في

الناس هذا الجم الغفير من الشعراء المتخيلين والعابدين المتبتلين .

لا يجد السكير لذة العيش وهناءته الا اذا أسلم نفسه الى كاس الشراب فتقلته من هذا العالم البسيط المحدود الى عالم واسع النطاق ، شاسع الاطراف يرى فيه كل ما تشتهي نفسه أن تراه ، فإن كان قبيح الوجه مشوه الخلقة تخيل انه شرك الابصار ، وفتنة النظار ، وأن القلوب محلقة على جماله تحليق الاطيار على الاشجار ، وإن كان فقيراً معدماً لا يملك فلساً واحداً توهم أنه جالس على عرش الملك والصولجان في يمينه ، والتاج فوق رأسه واعتقد ان عبيد الله تعالى جميعاً عبيده ، وجنود المملكة باسرهم جنوده ، حتى ذلك الجندي الذي يسحبه على وجهه الى غرفة السجن ليقضي فيها ليلته ، وجملة القول ان عينه لا تقع على ما يحزنه من المنظورات ، وان اذنه لا تسمع ما ينفره من المسموعات ، حتى ليرى الجمال الباهر في وجه العجوز الشمطاء ، ويسمع في صوت الرعد القاصف ألحان الغناء .

ولا يشعر المتعبد بنعيم الحياة الا اذا جن الليل ، وأوى الى معبده ، وخلا بنفسه ، فتخيل ان له أجنحة من النور كاجنحة الملائكة يطير بها في جو السماء فيرى الجنة والنار ، والعرش والكرسي ، ويسمع صرير القلم في اللوح ، ويقرأ في أم الكتاب حديث ما كان وما يكون .

ولا يستفيق الشاعر من هموم الحياة وأكدارها ومصائبها وأحزانها ، الا اذا جلس الى منضدته ، وأمسك بيراعه ، فطار به خياله بين الازهار

والانوار ، وتنقل به بين مسارح الافلاك ومسابح الأسماك . ووقف تارة على الطلول الدوارس ، يبكي اهلها النازحين وقطانها المفارقين . وأخرى على القبور الدوائر ، يندب جسومها الباليات ، وأعظمها النخرات .

ليس الأمل إلا باباً من أبواب الحياة الشعرية ، ولا يوجد بين قلوب البشر قلب لا يخفق بالآمال العظام والأماني الحسان ، فالأمل هو الحياة الشعرية العامة التي يعيش في ظلها الناس جميعاً اذكياء واغبياء ، فهماء وبلداء ، والامل هو السد المنيع الذي يقف في وجه اليأس ، ويعترض سبيله ان يتسرب الى القلوب ، ولو تسرب اليها لضاقت بالناس هذه الحياة وثقل عبؤها على عواتقهم ، فطلبوا الخلاص منها ولو الى الموت ، طلباً للتغيير والانتقال ، وشغفاً بالتحوّل من حال الى حال .

يقولون : أشقى الناس في هذه الحياة العقلاء ، ويقولون : ما لذة العيش الا للمجانين .

أتدري لماذا ؟ لأن نصيب الأولين من الحياة الشعرية أضعف من نصيب الآخرين ، وذلك ان عقل العاقل يحول بينه وبين استمرار الطيران في فضاء الخيالات الذهنية والمغالطات الشعرية ، فلا يرى سوى ما بين يديه من الحقائق الملموسة ولا يسمح له علمه بأحوال الدنيا وشؤونها، ومعرفته أن المصائب والآلام لازم من لوازمها التي لا تفارقها، يؤمن منها في طبيعتها من دوام السرور واستمرار الهناءة ، فلا يطلب

سعة العيش من وراء الأمـل كبقية المؤملين ، ولا يتلذذ بتصديق مـا لا يكون تلذذ المجانين .

والحق أقول ، لولا الحيـاة الشعرية التي أحيـاها أحيـاناً في هـذه الكلمات التي أكتبها ، لاحببت ، زاهداً في هذه الحياة الحسية ، ان تطلع الشمس من مغربها إيذاناً بانقضاء العالم وفنائه، ولتمنيت حباً في الانتقال من حال الى حال أن أنتقل ولو الى رحمة الله .

رباعيات الخيام

وقفت برباعيات عمر الخيام [1] يوماً من الايام كما يقف مسافر ضل به سبيله في فلوات الارض ومجاهلها بواد معشب أريض في وسط فلاة جرداء عند منقطع العمران ، فما خطوت فيه بعض خطوات حتى رأيت ما شاء الله ان أرى من أنوار بيضاء ، وورود حمراء ، وألوان من النبات ، مشتبهات وغير مشتبهات ، وغدران مطردة متسلسلة تنبسط في تلك الديباجة الخضراء تبسط النجوم البيضاء في الديباجة الزرقاء وأسراب من الحمائم والعصافير والبلابل والشحارير ، تتطاير من فرع الى فرع ، وتنتقل من غصن الى غصن ، وتجتمع لتفترق ، وتفترق لتجتمع ، وتتقاتل مرة ، وتتلاءم أخرى ، وتصعد حتى تلامس بأجنحتها جلدة السماء ، ثم تهبط حتى تصافح صفحة الماء ، ولا تزال تغرّد في صعودها وهبوطها تغريداً مختلف النغمات ، متنوّع النبرات ، فيتألف من ذلك الاختلاف والتنوع

(١) عمر الخيام : شاعر فارسي كان في القرن السادس من الهجرة ، ورباعياته هذه مترجمة الى اكثر لغات العالم .

نغم لذيذ لا أعرف له شبيهاً الا تلك الصورة الخيالية التي أتخيلها في نغم الحور الحسان ، في فراديس الجنان .

فلم أزل أتقلب في أعطاف تلك الغلائل الخضراء ، وأجر ذيول تلك الجداول البيضاء ، وأقلب طرفي فلا أرى رائحاً ولا غادياً . أتسمع فلا أسمع هاتفاً ولا داعياً ، حتى وقف بي الحظ على دوحة فرعاء ، مائلة على رأس بعض الجداول ، وقد اضطجع في ظلها على قطيفة من ذلك العشب الناعم رجل هانىء باسم ، يقرأ تارة سورة الجمال في وجه فتاة جالسة بين يديه ، ويقبل أخرى ثغر الكاس التي تتلألأ في يمينه ، ويترنم بين هذا وذاك بمقطوعات شعرية بديعة، يمثل فيها جمال الطبيعة وهدوءها وسعادة الوحدة وهناءتها ، ويطير بأجنحة خياله في عالم بديع من عوالم الغيب ، تاركاً هذا العالم الحافل بالهموم والآلام ، طارداً عن نفسه كل خاطر من خواطر الشرور والآثام ، ليستكمل لذته في الحياة التي يحياها بين ظله ومائه وكاسه وفتاته .

فان مر بخاطره ذكر الملوك والأمراء وما ينعمون به من عز وسلطان ، ولذة واستمتاع ، قال : مالي وللملك والسلطان ، والحاشية والجند ، والقصور الشماء ، والجنان الفيحاء ، هنالك المحنة والشقاء ، والفتنة الشعواء ، والهموم والأرزاء ، والدماء والأشلاء ، والعويل والبكاء ، وهنا الراحة والسكون في ظلال الوحدة والانفراد ، حيث لا سيد ولا مسود ، ولا عابد ولا معبود ، وبين هذين الثغرين : ثغر الفتاة ، وثغر الكاس ، وذينك الصديقين : هذا الكتاب المفتوح ، وذلك الغصن

المطل ، كل ما يتمنى السعداء لأنفسهم من غبطة في الحياة وهناءة .

وان ذكر الآخرة وما أعد الله فيها من العذاب للمسرفين على انفسهم قال : ان من العجز ان ابيـع عاجل السعادة المعلوم بآجلها المجهول ، انا اليوم موجود ، فلا بد ان أستمتع بمتعة الوجود ، أما الغد فلا علم لي به . ولا بما قدر لي فيه ، وعسير عليّ ان أتصور أننا معشر الاحياء الناطقين قطع من المعدن الصامت تدفن اليوم في باطن الارض لينبش عنا النابشون غـداً .

ثم يعود الى نفسه مستغفراً الله من ذنبه في شكه وارتيابه فيقول : اللهم إنك تعلم أني ما كفرت بك مذ آمنت ، ولا أضمرت لك في قلبي غير ما يضمر المؤمنون الموحدون ، فاغفر لي آثامي وذنوبي ، فاني ما أذنبت عناداً لك ، ولا تمرّداً عليك ، ولكنها الكأس غلبتني على أمري، وحالت بيني وبين عقلي وانت اجل من ان تقاضيني مقاضاة الدائن غريمه ، لأنك كريم . والكريم يمنح العطية منحاً ، ولا يقرضها قرضاً ، ويسبـغ نعمته الوارفة الظليلة حتى على العصاة والمجرمين .

واحيـاناً يستشعر قلبه الرحمة بالعباد فيبكي أحيـائهم وأمواتهم ، ويقول مخاطباً فتاته : رويداً أيتها الفتـاة في خطاك عـلى هذه الاعشاب النابتة ، فلعل جذورها ممتدة الى كبد فتاة مثلك كان لها قلب مثل قلبك، ووجدان مثل وجـدانك ، وجمال ورواء مثـل جمالك ورواثك ، ثم

ضرب الدهر ضرباته فإذا أنت في غلالة هذه الأشعة البيضاء، وإذا هي في دجنة تلك الاعماق السوداء ، فارفقي بها ، واسكبي هذه الفضلة من كاسك على تربتها علها تتسرب اليها فتطفىء ذلك اللاعج الذي يعتلج بين جوانحها .

ثم يتخيل أحياناً كانه واقف بين يدي رجل خزاف يحرق حماته في تنوره فيقول له : رحمة أيها الخزاف بهذه النار ، فقد كانت بالأمس إنساناً مثلك ، وستكون أنت في مستقبل الأيام حماة مثلها ؛ وربما ساقك القدر الى يد خزاف تحتاج الى رحمته ورفقه، فارفق بها اليوم يرفق بك خزافك غداً .

وآونة يلبس ثوب الواعظ المنذر فينعي على السعداء سعادتهم ويذكرهم بما آلت اليه حال الملوك السالفين ، والأقيال الماضين ، من خرائب دورهم وعمران قبورهم ، وغروب شموسهم ، وعفاء آثارهم .

ثم ينتقل من ذلك الى البكاء على نفسه ، وترقب ذلك اليوم الذي تصوح فيه زهرته، وتنطفىء جذوته ، وتضعف منته،ويمحو نهار مشيبه ليل شبابه ، فيزحف الى قبره خطوة خطوة حتى يتردى فيه ، فيعود كما كان سراً مكتوماً في ضمائر الأقدار ، وذرة هائمة في مجاهل الأكوان .

وهكذا ما زال يتنقل من عبرة بليغة ، الى عظة بديعة ، ومن خيال جميل الى تشبيه رقيق ، ومن وصف ناطق ، الى تمثيل صادق ، حتى أصبحت أعتقد أن هذه النفس التي تشتمل عليها بردة هذا الشاعر الجليل

مرآة صافية قد تمثل فيها هـذا الكون بارضه وسمائه ، وليله ونهاره ، ونـاطقه وصامته ، وصادحه وبـاغمه ، وأن فخـار الأعراب بمتنبيها ومعريها ، والفرنسية بلامرتينها وفكتورها ، والسكسون بشكسبيرها وملتونها ، والطليان بدانتها ، والالمان بجيتها ، والرومان بفرجيلها ، واليونان بهوميرها، ومصر القديمة ببنتاؤورها ، ومصر الحديثة باحمدها، لا يقل عن فخار فارس بخيامها .

*

الى تولستوي (١)

قف ساعة واحدة نودعك فيها قبل أن ترحل لطيتك ، وتتخذ السبيل الى دار عزلتك ، فقد عشنا في كنفك على ما بيننا وبينك من بعد الدار ، وشط المزار ، عهداً طويلاً كنا فيه أصدقاءك ، وإن لم نرك ، وأبناءك ، وإن كان لنا آباء من دونك ، وعزيز علينا أن تفارقنا قبل أن نقضي حق عشرتك بدمعة نذرفها بين يديك في موقف الوداع .

حدثنا الناس عنك انك ضقت بهذا المجتمع الإنساني ذرعاً بعد أن أعجزك اصلاحه وتقويمه فابغضته ، وعفت النظر اليه ، وأبغضت لبغضه كل شيء حتى زوجك وولدك ، ففررت بنفسك منه الى غاب تسمع زئير سباعه ، أو دير تانس برنة ناقوسه ، وأسجلت أن لا تعود اليه ، وأن تقطع كل صلة بينك وبينه الى الأبد فعذرناك ، ولم نعتب

(١) كتبت هذه المقالة على أثر ما جاء في الأخبار أن (تولستوي) الفيلسوف الروسي المشهور ترك منزله هائماً على وجهه ليعتزل الناس في أحد الأديرة ، أو في إحدى الغابات .

عليك، ولم نسمك جباناً ولا رعديداً ، ولا مولياً ولا مدبراً ، لأنك قاتلت فأبليت ، حتى لم يبق في غمدك سيف ، ولا فوق عاتقك رمح ، ولا في كنانتك سهم ، والعدو كثير عدده ، صعب مراسه ، وافرة قوته ، والشجاعة في غير موضعها جنون ، والوقوف اكثر من ثمانين عاماً أمام عدو لا أمل في براحه ، ولا مطمع في زياله : عناد ، وهل يكون مصيرك إن أنت ثبت في موقفك حتى سقطت قتيلاً في المعركة إلا مصير اولئك الفلاسفة العظماء من قبلك الذين قاتلوا حتى قتلوا فهدرت دماؤهم ، واغتمضت عيونهم قبل ان يروا منظراً من مناظر الصلاح والاستقامة في المجتمع البشري يعزون به أنفسهم عن أنفسهم ، ويروّحون به ما يجدون بين جوانحهم من ألم النزع ، وفي أفواههم من مرارة الموت .

ماذا لقيت من الدنيا ؟ وما الذي أفدت منها ؟ وأين وقع علمك وفضلك ؟ ولسانك وقلمك ؟ وقوة عارضتك ، ومضاء حجتك ، من آثام الناس وشرورهم وقسوة قلوبهم وأفئدتهم ، وظلم ألسنتهم وايديهم ؟

قلت لقيصر: ايها الملك ، انك صنيعة الشعب واجيره ، لا إلهه ومعبوده ، وانك في مقعدك فوق عرشك لا فرق بينك وبين ذلك الاكار في المزرعة، وذلك العامل في المصنع، كلا كما ماجور على عمل يعمله، وكلا كما ماخوذ باتقان مايعمل ،فكما ان صاحب المصنع يسأل العامل هل وفى عمله ليوفي له اجره، كذلك يسالك الشعب :هل قمت بحماية القانون الذي وكل اليك حراسته فانقذته كما هو من غير تبديل ولا تاويل؟ هل عدلت بين الناس وآسيت بين قويهم وضعيفهم ، وغنيهم وفقيرهم، وقريبهم وبعيدهم؟ هل استطعت

ان تستخلص عقلك من يدي هواك ؟ فلم تدع للحب ولا للبغض سلطاناً على نفسك يعدل بك عن منهج العدل ومحجته ؟ وهـل اصممت اذنك عن سماع كلمات الملق والمداهنة والمدح والثناء ؟ فلم تفسد على الناس فضائلهم، ولم تقتـل عزة نفوسهم ولم يذهب بهم الخوف من ظلمك ، او الطمـع في ضعفك ، مذهب الزلفى اليك بالكذب والنميمة والتجسس ، والتسقط ، وذلة الاعنـاق وصرع الخـدود ؟ فإن وجدك الشعب عند ظنه ، ورآك اميناً عـلى العهد الذي عهـد اليك بـه ، ابقى عليك وابقى لك عرشك وتاجك ، وحفظ لك يدك التي اصطنعتهـا عنـده ، واحسن اليك كما احسنت اليه ، او لا ، كان له معك شأن غير هذا الشان ، ورأي غير ذلك الرأي .

فما سمع منك هـذه الكلمات حتى اكبرها واعظمها ، لانه لم يجد بـين الكثيرين الذين يعاشرونه من يسمعه مثلهـا فحقد عليك وأضمر لك مـن الشر مـا يضمر أمثاله لامثالك ، واستعان عـلى مطاردتك بأولئك الذين أذل نفوسهم وأفسد ضمائرهم بظلمه وجوره من قبـل لبعدهم لمقـاتلة الحق ومصارعته في مواقف خوفه وقلقه .

وقلت للغرندوق الروسي: ليس من العدل أن تملك وحدك ـ وأنت نائم في سريرك ، بـين روضك ونسيمك وظلك ومائك ـ هـذه الارض التي تضم بين أقطارها مليون فدان ، ولا يملك واحد من هؤلاء الملايين ـ الذين يفلحونهـا ويحرثونهـا ، ويبذرون بذورهـا ويستنبتون نباتهـا ، ويسوقون ماشيتها ، ويتقلبون بـين حرهـا وبردها وأجيجها وثلجها ـ

شبراً واحداً فيها ، فاعرف لهم حقهم وأحسن القسمة بينك وبينهم ، وأشعر قلبك الخجل من منظر شقائهم في سبيل سعادتك ، وموتهم في سبيل حياتك ، واعلم أن الارض لله يورثها من يشاء.

• ثم لم تقنع بما بذلت له من العظة والنصيحة حتى ضربت له مثلاً من نفسك ، فعمدت الى أرضك فجعلتها قسمة بينك وبين القائمين عليها من الزارعين ، ثم عمدت الى فاسك فحملتها ، وماشيتك فأخذت بزمامها ، ولم تزل سائراً حتى بلغت مزرعتك الصغيرة التي استبقيتها لنفسك فضربت مع الضاربين ، وخضت ما الخائضين ! لتعلم ذلك الجبار بفعلك ما لم تستطع أن تعلمه إياه بقولك ، فسخر منك ، ورثى لعقلك ، وألف من أحاديثك رواية غريبة يروح بها عن نفسه ـ في مجتمعات أنسه ولهوه ـ ما يساوره من السآمة والضجر .

وقلت للكاهن : إن المسيح عاش معذباً مضطهداً لانه لم يرض ان يقر الظالمين على ظلمهم ، وأنه أبى أن يخفي المصباح الذي في يده تحت ثوبه ، بل رفعه فوق رأسه غير مبال بنقمة الملوك على ذلك النور الذي يكشف سوآتهم ، ويهتك استارهم ، وانت تزعم انك خليفته ، وحامل امانته ، والقائم بنشر آياته ، والمترسم مواقع اقدامه في خطواته ، فما هذه الجلسة الذليلة التي أراك تجلسها تحت عروش الظالمين ؟ وما هذه اليد التي تبسطها اليهم بالمودة والأخاء كأنما تريد ان تعقد بينك وبينهم عهداً ان يظلموا ما شاءوا ويسلبوا ما أرادوا باسمك واسم الكتاب الذي تحمله في يدك ، وما هذه السلطة التي تزعمها لنفسك ان تدخل الجنة من تشاء ، وتخرج منها من

تشاء ؟ وما هذه القصور التي تسكنها ، والديباج الذي تلبسه ، والعيش البارد الذي تنعم به ؟ وانت الراهب المتبتل الذي كتب على نفسه الانقطاع عن الدنيا وزخرفها الى عبادة الله والانكماش في طاعته .

ذلك ما قلت للكاهن، فكان جوابه ان ارسل اليك كتاب الحرمان ، وهو يعلم انك لا تعترف له بالقدرة على اعطاء ولا منع،ولكنه أراد تشويه سمعتك والغض من كرامتك، واغراء العامة بك، فكان ذلك كل ما أفدت من نصيحتك وعظتك .

وأبكاك منظر المنفيين في سيبريا ، وما يلاقون من صنوف العذاب ويعالجون من انواع الآلام ، فصرخت صرخة دوى بها الملأن : الاعلى والادنى ، وقلت : ايها الناس ان الشر لا يدفع الشر ، وان الاشقياء مرضى فعالجوهم ولا تنتقموا منهم ، فالتربية الصالحة تمحو الجرائم ، والانتقام يلهب نارها ،واجعلوا المدارس مكان السجون، والمعلمين مكان السجانين. فلم يسمع صرختك سامع، ولا بكا لبكائك باك ، وما زال القضاة يحكمون والجند يصادرون ، والسجانون يعذبون ، والمسجونون يصرخون .

وأزعجك منظر الدماء المتدفقة في معارك الحروب ، وبكاء النساء المعولات خلف ازواجهن واولادهن واخوتهن ، وهم سائرون الى حرب لا يعرفون لها مصدراً ولا مورداً ، وقد حمل بعضهم لبعض ضغائن وسخائم لا سبب لها الا ذلك الوهم الذي غرسه في قلوبهم قساة السياسة فخيل اليهم انهم اعداء وهم اصدقاء ، فخلعوا ثوب الانسان ولبسوا فروة السبع،

وأنشب كل منهم ظفره في صدر اخيه كأنــه يفتش عن قلبه لينتزعه من مكانه ، ذلك القلب الذي لو شق عن سويدائه لوجد لنفسه فيه مكاناً علياً لو لا جور السياسة وظلالها .

فما اغنى عنك بكاؤك وحنينك ، ولا اجدى عليك عويلك وانينك ، فالحرب لم تزل باقية ، ومصانع الموت لم تكتف بما أعدت من المهلكات لمعارك الأرض حتى اصبحت تعد مثلها لمعارك السماء .

فهنيئاً لك ايها الرجل العظيم ما اخترت لنفسك من تلك العزلة الهادئة المطمئنة ، لقد نجوت بها من حياة لا سبيل للعاقل فيها الا ان يسكت فيهلك غيظاً ، او ينطق فيموت كمداً .

ربما استطاع الحكيم ان يحيل الجهل علماً ، والظلمة نوراً ، والسواد بيضاً والبحر براً ، والبر بحراً ، وان يتخذ نفقاً في الارض او سلماً في السماء . ولكنه لا يستطيع ان يحيل رذيلة المجتمع الإنساني فضيلة ، وفساده صلاحاً .

ما دام الإنسان لا ينتهي عن ظلم الإنسان حتى يخافه ، وما دام لا يحسن اليه الا اذا اراد ان يتخذ عبداً يعبده من دون الله ، وما دام للأثرة هذا السلطان الاكبر على افراد المجتمع ، ومن اكبر كباره الى اصغر صغاره ، فإنسان اليوم هو بعينه إنسان الغابات والاحراش بالامس ، لا فرق بينه وبينه سوى أنه قد أوى اليوم بشروره ومفاسده الى بيت من الزجاج يفعل فعلاته من ورائه ، ولكن الزجاج شفاف لا يكتم ما وراءه .

وارحمتاه[1]

في ذلك الإقليم القاحل في تلك الصحراء المحرقة طائفة من فقراء المسلمين وبائسيهم ، لا يملكون من الحول غير قلوب يملؤها اليقين بالله ، والثقة بـه ، ولا من الحياة غير ألسنة تهتف بـه في صباحها ومسائها ، وبكورها وأصائلها بالدعاء الى الله تعالى أن يتولى امرها ، ويسدد خطاها ، وييسر لها السبيل الى الخلاص من عدوها القاهر الذي نزل بها في دار أمنها وسكونها نزول القضاء النافذ ، يريد أن يسلبها ما أبقت الأيام في يدها ، وما ابقت في يدها سوى لقيمات غير سائغة ، وجرعات غير هنيئة ، وظل غير ظليل .

وارحمتاه لجماعة المسلمين في طرابلس ، إنهم عاجزون عن ان يعدّوا لعدوهم الزاحف عليهم بقنابله وقذائفه غير أجسام ستصبح عما قليل اشلاء مبعثرة تحت كل كوكب، وقلوب لا تزال تنبض حتى تسمع طلقات

(١) كتبت اثناء الحرب بين ايطاليا وطرابلس الغرب .

المدافع والبنادق فتسكن ، وأرواح ستطير في آفاق السماء طيران ذلك الدخان في أجواز الفضاء .

وارحمتاه لهم ، انهم يستغيثون فلا يجدون مغيثاً ، ويستصرخون فلا يسمعون مجيباً ، وقد تقطعت بهم الاسباب ، وأعوزتهم الوسائل ، وسدّت في وجوههم السبل ، فلا يبق لهم منها إلا سبيل الموت ، وفي الموت راحة البائسين والمنكوبين من شقاء الحياة وبلائها ، لولا انهم يتركون من بعدهم بين يدي ذلك العدو الظالم ارامل ضعفاء ، وأيتاماً صغاراً ، وشيوخاً كباراً ، لا يعلمون ماذا اضمر لهم القدر في صدره من نعيم او شقاء .

كأني أراهم وقد غلت في صدورهم حمية الدين والوطن ودارت في رؤوسهم سكرة العزة العربية ، فأبوا إلا أن يزحفوا الى الموت الأحمر زحف المستقتل المستبسل الذي يعلم ان باب الحياة السعيدة الأبدية لا يفتح إلا بين يدي الارواح التي احتقرت اجسادها وازدرتها ، فتجردت من اثوابها الرثة البالية وألقتها من ورائها ، وكأني ارى الرجل منهم ، وقد دخل الى بيته ليعدّ عدّته ، ويودع اهله الوداع الاخير ، فبكت أمه وناحت زوجه وصاح ولده ، فبكى لبكائهم ، ورن لرنينهم ، لا جزعاً من الفراق ، لأنه فراق يعزيه عنه لقاء الله تعالى ، ولا خشية من الموت ، لانه يعلم ان الحياة الذليلة احقر من ان يضن بها صاحبها ، بل مخافة ان تستبد باعراض بيته وحرماته ، تلك الايدي الظالمة التي لا ترحم صغيراً، ولا تعطف على كبير ، او ان يهلكوا من بعده جوعاً وفقراً ، لانه لم

يترك لهم قوتاً يتبلغون به ، ولا عماداً يعتمدون عليه ، فإذا علم ان موقفه بين اهله موقف جلل يكاد يغلب فيه على صبره ، نظر نظرة في السماء ارسل فيها الى ربه جميع ما تهتف به نفسه القريحة من وجد ورحمة وبكاء وحنين ، وأمل ورجاء ، ثم انفتل من بين ايديهم ، ومضى لسبيله لا يلوي على شيء مما وراءه ، حتى يبلغ ساحة الحرب ، فلا يزال يقرع باب الحياة الاخرى حتى يفتح له .

هنالك تنوح النائحات ، وتبكي الباكيات ، وتطير النفوس ، وتصعق القلوب ، وترن المنازل والدور بالنحيب والتعداد ، وهنالك ترى المرأة المسلمة المخبأة التي لم تر في حياتها وجه الشمس إلا من كوة بيتها : برزة الوجه ، عارية الرأس حيرى مولهة هائمة في الطرق والمذاهب ، تسائل الغادين والرائحين ما فعل الله بولدها او زوجها او اخيها ، فإما بقيت في حيرتها بياض يومها وسواد ليلها ، وإما عادت الى بيتها بالثقل القاتل ، والحزن الدائم ، وهنالك ترى الشيوخ الكبار والاطفال الصغار ، والعاجزين والضعفاء لائذين بالتلال والآكام ، يحاولون ان يتقوا بها صواعق الحرب وشهبها ، فلا تقيهم ، او عائذين بالمضايق والشعاب يفرون اليها من وجوه الخيل وسنابكها فلا تحميهم ، وهناك ترى اولئك القوم الذين يسمون انفسهم مجاهدين ، او فاتحين ، او قواداً عظاماً ، او سواساً كباراً ، يمشون بين بيوت المسلمين ومجامعهم مشية الفرح المختال ، وينظرون الى اولئك المساكين الذين سرقوا حريتهم واستقلالهم ، وانتهبوا ارواحهم واموالهم ، نظر السيد الى مولاه الذي ملك

ولاءه بماله ، واستعبده بفضله وإحسانه ، وربما رموا اليهم في تلك الساعة بلقيمات كتلك التي يلقيها سيد الكلب الى كلبه ، او الراعي الى ماشيته ، ليشهدوا العالم الإنساني أجمعه على كرمهم وسخائهم ، وعطفهم ورحمتهم ، وأنهم ما سفكوا الدماء ولا قطعوا الاوصال ، ولا أيموا النساء ، ولا يتموا الأطفال ، ولا انتهكوا الحرمات الا خدمة للإنسانية العامة وإجلالاً لشأنها .

لا أحسب أن مسلماً دخل الإيمان قلبه فملأه رحمة وإحساناً ، وعطفاً وحناناً ، يستطيع أن يتخذ لجنبه في ظلمة الليل مضجعاً ، أو يجد لنفسه في ضحوة النهار قراراً ، حزناً على هؤلاء المنكوبين الحائرين الذين يدورون بأعينهم في مشارق الارض ومغاربها يلتمسون ناصراً يعينهم على أمرهم ، أو منجداً يدفع عنهم عادية البلاء فلا يجدون إلا أمماً إسلامية قد أصابها مثل ما أصابهم من قبل ، فهي تعجز عن النظر لنفسها ، فاحرى ألا تنظر لغيرها ، فلم يبق بين أيديهم من الامل إلا تلك الرحمة التي يعتقدون أنها باقية لهم في قلوب الأفراد من إخوانهم المسلمين أن يمدوهم بقليل من القوت يستعينون به على جهاد عدوّهم ويعودون بما بقي منه على عيالهم الذين يتضورون جوعاً من بعدهم .

أيها المسلمون :

إنكم لن تجدوا بعد اليوم موقفاً هو أقرب الى الله ، وأدنى الى رحمته وإحسانه ، وأجلب لمغفرته ورضوانه ، من موقفكم أمام هؤلاء الضعفاء المساكين ، تطعمون جائعهم ، وتكسون عاريهم ، وتسلحون أعزلهم ،

تعالجون جريحهم ، وتخلفون قتيلهم في أهله وولده .

انكم ان تحسنوا اليهم تحسنوا الى أنفسكم ، وان تنقذوهم من كربتهم تنقذوا جامعتكم وملتكم ، فإن بينكم وبينهم لحمة أقوى من لحمة النسب ، ووشيجة أوثق من وشيجة القربى ، وانكم جميعاً تصلون الى قبلة واحدة، وتهتفون في الغداة والعشي بذكر واحد ، وتتوجهون بقلوبكم في نعمائكم وباسائكم الى اله واحد ، وتقفون في بيت الله بين حرمه والمقام موقفاً واحداً .

أيها المسلمون :

انكم ان اجتمعتم اليوم لن تفترقوا غداً، وان هديتم لرشدكم في موقفكم هذا لن تضلوا من بعده أبداً ، وانكم ان قدمتم بين ايديكم هذا العمل الصالح أحسن الله جزاءكم وأعانكم على أمركم ، ووفى لكم بما وعدكم من نصره ومعونته ، و «ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم» .

★

خطبة الحرب

يا أبطال برقة ، وليوث طرابلس ، وحماة الثغور ، وذادة المعاقل والحصون ، صبراً قليلاً في مجال الموت ، فها هي نجمة النصر تلمع في آفاق السماء ، فاستنيروا بنورها ، واهتدوا بهديها حتى يفتح الله عليكم .

ان الله وعدكم النصر ، ووعدتموه الصبر ، فانجزوا وعدكم ينجز لكم وعده .

لا تحدثوا أنفسكم بالفرار ، فوالله ان فررتم لا تفرون الا عن عرض لا يجد له حامياً ، وشرف لا يجد له ذائداً ، ودين يشكوا الى الله قوماً أضاعوه ، وأنصاراً خذلوه .

انكم لا تحاربون رجالاً أشداء بل أشباحاً تتراءى في ظلال الأساطيل ، وخيالات تلوذ باكتاف الأسوار والجدران ، فاحملوا عليها حملة صادقة تطير بما بقي من ألبابها ، فلا يجدون لبنادقهم كفاً ولا لأسيافهم ساعداً :

انهم يطلبون الحياة ، وانتم تطلبون الموت ، ويطلبون القوت ، وتطلبون الشرف ، ويطلبون غنيمة يملأون بها فراغ بطونهم ، وتطلبون جنة عرضها السموات والارض ، فلا تجزعوا من لقائهم، فالموت لا يكون مر المذاق في افواه المؤمنين.

إنكم تعتمدون على الله ، وتثقون بعدله ورحمته ، فتقدموا الى الموت غير شاكين ولا مرتابين ، فما كان الله ليخذلكم ، ويكلكم الى انفسكم ، وانتم من القوم الصادقين.

ان هذه القطرات من الدماء التي تسيل من اجسامكم ستستحيل غداً الى شهب نارية حمراء تهوي فوق رؤوس اعدائكم فتحرقهم وان هذه الانات المتصاعدة من صدوركم ليست إلا أنفاس الدماء صاعدة الى الله السماء ان ياخذ لكم بحقكم ويعديكم على عدوكم ، والله سميع الدعاء.

ان أعداءكم قتلوا أطفالكم، وبقروا بطون نسائكم ، وأخذوا بلحى شيوخكم الاجلاء فساقوهم الى حفائر الموت سوقاً ، فماذا تنتظرون بانفسكم ؟

أجلبوا عليهم بخيلكم ورجالكم وأصدقوا حملتكم عليهم، وجعجعوا بهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، واطلبوهم بكل سبيل وفوق كل ارض وتحت كل سماء ، وازعجوهم حتى عن طعامهم وشرابهم ، ويقظتهم ومنامهم ، فما أعذب الموت في سبيل تنغيص الظالمين !

احفروا لأنفسكم بسيوفكم قبوراً ، فالقبر الذي يحفر بالسيف لا

يكون حفرة من حفر النار .

لا تطلبوا المنزلة بين المنزلتين ، ولا الواسطة بين الطرفين ، ولا العيش الذي هو الموت اشبه منه بالحياة ، بل اطلبوا اما الحياة أبداً ، واما الموت أبداً .

غداً ينتهك أعداؤكم حرمة أرضكم ودياركم ، ويملكون عليكم نساءكم وأولادكم ، ويطاون بحوافر خيولهم مساجدكم ومعابدكم ، وينظمون في ثقوب آنافكم مقاود يقودونكم بها الى مواقف الذل والهوان ، كما تقاد الإبل المخشومة الى معاطنها ، فافتدوا أنفسكم من هذا المصير المهين بجولة تجولونها في سبيل الله ثم تموتون موت الجبان في حياته وحياة الشجاع في موته ، فموتوا لتعيشوا ، فوالله ما عاش ذليل ولا مات كريم .

ان هذه الاساطيل الرابضة على شواطئكم، والمدافع الفاغرة أفواهها اليكم والبنادق المسددة الى صدوركم ونحوركم ، لا يمكن أن يتالف منها سور منيع يعترض سبيلكم في رحلتكم من هذه الدار الى تلك الدار ، فسيروا في طريقكم الى آخرتكم ، فإن الأعداء ان ملكوا عليكم طريق الحياة لا يملكون عليكم طريق الموت .

المستميت لا يموت ، والمستقتل لا يقتل ، ومن يهلك في الإدبار اكثر ممن يهلك في الإقدام ، فإن كنتم لا بد تطلبون الحياة فانتزعوها من بين ماضغي الموت .

ان كتاب التاريخ قد علقوا أقلامهم بين أناملهم ، ووضعوا

صحائفهم بين أيديهم ، وانتظروا ماذا تملون عليهم من حسنات أو سيئات ، فأملوا عليهم من أعمالكم ما يترك في نفوسهم مثل ذلك الأثر الذي تركته في نفوسكم تلك الصحائف البيضاء التي سجلها التاريخ لأولئك الأبطال العظام .

موتوا اليوم أعزاء قبل أن تموتوا غداً أذلاء .

موتوا قبل أن تطلبوا الموت فيعوزكم ، وتنشدوه فيعجزكم .

موتوا اليوم شهداء في ساحة الحرب تكفنكم ثيابكم ، وتغسلكم دماؤكم وتصلي عليكم ملائكة الرحمن قبل أن يسبق قضاء الله اليكم فيموت أحدكم فلا يجد بجانبه مسلماً يصلي عليه صلاة الجنازة ثم يمشي وراء نعشه الى قبره حتى يودعه حفرته ، ويخلي بينه وبين ربه .

إن الشيخين أبا بكر وعمر ، والفارسين خالداً وعلياً ، والأسدين حمزة والزبير ، والفاتحين سعداً وأبا عبيدة ، والبطلين طارق بن زياد وعقبة بن نافع وجميع حماة الإسلام وذادته ، من السابقين الأولين والمجاهدين الصابرين ، يشرفون عليكم اليوم من علياء السماء ، لينظروا ماذا تصنعون بميراثهم الذي تركوه في أيديكم ، فامضوا لسبيلكم ، واهتكوا بأسيافكم حجاب الموت القائم بينكم وبينهم ، وقولوا لهم إنا بكم لاحقون ، وانا على آثاركم لمهتدون .

ان هذا اليوم له ما بعده ، فلا تسلموا أعناقكم الى أعدائكم ، فإنكم ان فعلتم لن يعبد الله بعد اليوم على ظهر الارض أبداً .

الإنسانية العامة

الجامعة الإنسانية هي الكلية العامة التي يلجأ الى كنفها هذا المجتمع الإنساني كلما أزمته آزمة ، أو نزلت به نازلة ، وهي المطلع الذي يشرق منه شمس الرحمة الإلهية على هذا الكون فتنير ظلماءه ، وتكشف غماءه ، وهي الحكم العدل الذي يفصل في قضايا المجتمعات البشرية حين تنفصم عروتها ، ويدب دبيب العداوة والبغضاء بين أحيائها ، وهي السلطان المطلق الذي يجلس على كرسي عظمته وجلاله ، فتخر له الجباه سجداً ، وتبتدر يديه الافواه لثماً وتقبيلاً .

الجامعة الإنسانية هي الجامعة الاساسية الثابتة التي رأت طينة آدم أولاً ، وسترى نفخة اسرافيل آخراً والتي تسير مع الإنسان حيث سار في بره وبحره وسهله وحزنه وحياته وموته ، وتدور معه حيث دار في ايمانه وكفره وصلاحه وفساده ، واستقامته واعوجاجه ، لا يتغير لونها ولا يتحول ظلها ، ولا تستحيل مادتها ، ولا تبلى جدتها على كر الليالي ومر الايام .

ما من جامعة من الجامعات القومية أو الجنسية أو الدينية أو العائلية الا وهي تعتمد على الجامعة الانسانية في سيرها وتستظل بظلها ، وتهتدي بهديها ، فالجاهد الوطني يقول : اني أدافع عن وطني ، وأحمي حوزته ، وأقوم على ثغوره وعوراته مقـــام الذائد المناضل ، لاني أعتقد أني ان أغفلت ذلك وأغفله في وطنه كل ممنو بمثل ما أنا ممنو بـــه في وطني تساقطت الحواجز القائمة في وجه المطامع البشرية ، فجرى سيلها متدفعاً لا يقوم له شيء حتى يأتي عليه ، والمجاهد الديني يقول : اني أعتقد أن الانسانية لا تزال معذبة يأكل قويها ضعيفها ، ويغتال كبيرها صغيرها ، ويستضعف حاكمها محكومها ؟ حتى تدين بالدين الذي أدين به ، فانا ان حاربت البلاد ، وقاتلت العباد ، فإنما أريد بخوض هذا البحر الاحمر من الدماء أن أصل الى سفينة الانسانية المشرفة على الغرق فأستخلصها من يد الموت الذي يحيط بها .

هكذا يقول دعاة الدين ودعاة الوطن ، ودعاة كل جامعة ، وهكذا يجب أن يقولوا ، فإن لم يفعلوا ، وأبوا الا أن يغفلوا ذكر الجـــامعة الانسانية في دعائهم الى جامعاتهم التي يدعون اليها ، فسد عليهم امرهم في كل ما يقولون وما يفعلون .

ليس لصاحب وطن من الاوطان، او صاحب دين من الاديان ان يقول لغيره ممن يسكن وطناً غير وطنه ، او يدين بدين غير دينه : انا غيرك ، فيجب ان اكون عدوك، لان الانسانية وحدة لا تكثر فيها ولاغيرية، ولان هذه الفروق التي توجد بين الناس في آرائهم ومذاهبهم ، ومواطن اقامتهم

وألوان أجسادهم ، واطوالهم واعرضهم انما هي اعتبارات ومصطلحات ، او مصادفات واتفاقات ، تعرض لجوهر الانسانية بعد تكوينه واستتمام خلقه ، وتتوارد عليه توارد الاعراض على الاجسام،ففي كل بلد،وفي كل عصر يستعجم العربي ويستعرب الاعجمي،ويسلم المسيحي ويتمسح المسلم، ويلحد المؤمن.ويؤمن الجاحد،ويستشرق المغربي،ويستغرب المشرقي،ولو شئت ان اقول لقلت انه لا يوجد فوق رقعة الارض من لا يزال يمسك حتى اليوم بطرف سلسلة ، ينتهي طرفها الآخر بوطن غير وطنه ، ودين غير دينه ، وأمة غير أمته .

اذا جاز لكل اقليم ان يتنكر لغيره من الاقاليم ، جاز لكل بلد ان يتنكر لغيره من البلاد ، بل جاز لكل بيت ان ينظر تلك النظرة الشزراء الى البيت الذي يجاوره ، بل جاز للأب ان يقول لولده ، وللولد ان يقول لابيه : اليك عني ، لا تمد عينيك الى شيء مما في يدي ، ولا تطمع ان أوثرك على نفسي بشيء مما اختصصتها به ، لانني غيرك ، فيجب ان اكون عدوك المحارب لك ، وهناك تنحل كل عقدة وتنفصم كل عروة ، ويحمل كل انسان لاخيه بين اضلاعه من لواعج البغض والمقت ما يرنق عيشه ، ويطيل سهده ، ويقلق مضجعه ويحبب اليه صورة الموت ، ويبغض اليه وجه الحياة ، وهنالك يصبح الانسان اشبه شيء بذلك الانسان الاول في وحشته وانفراده ، يقلب وجهه في آفاق السماء ، وينبش بيديه طبقات الارض فلا يجد له في الوحشة مؤنساً ، ولا على الهموم معيناً .

الجامعة الانسانية اقرب الجامعات الى قلب الانسان ، واعلقها بفؤاده ، وألصقها بنفسه ، لانه يبكي لمصاب من لا يعرف - وان كان ذلك المصاب تاريخاً من التواريخ او اسطورة من الاساطير ، ولانه لا يرى غريقاً يتخبط في الماء ، او حريقاً يتلظى في النار، حتى تحدثه نفسه بالمخاطرة في سبيله ، فيقف وقفة الحزين المتلهف ان كان ضعيفاً، ويندفع اندفاع الشجاع المستقتل ان كان قوياً ، ويسمع وهو بالمشرق حديث النكبات بالمغرب فيخفق قلبه وتطير نفسه لأنه يعلم ان اولئك المنكوبين إخوانه في الإنسانية ، وان لم يكن بينه وبينهم صلة في أمر سواها ، ولولا ان ستاراً من الجهل والعصبية يسلبه كل يوم غلاة الوطنية والدين او تجارها على قلوب الضعفاء السذج ، لما عاش منكوب في هذه الحياة بلا راحم ولا ضعيف بلا معين .

لا باس بالفكرة الوطنية،ولا باس بالحمية الدينية،ولا باس بالعصبية لهما ، والذود عنهما ، ولكن يجب ان يكون ذلك في سبيل الإنسانية وتحت ظلالها ، أي ان تكون دوائر الجامعات كلها داخلة في دائرة الإنسانية العامة غير خارجة عنها ، والوطنية لا تزال عملاً من الأعمال الشريفة المقدسة حتى تخرج عن حدود الإنسانية ، فاذا هي خيالات باطلة وأوهام كاذبة ، والدين لا يزال غريزة من غرائز الخير المؤثرة في صلاح النفوس وهداها حتى يتمرد على الإنسانية وينابذها ، فاذا هو شعبة من شعب الجنون .

فان كان لا بد للإنسان من ان يحارب أخاه او يقاتله ، فليحاربه

مـدافعاً لا مهاجماً ، وليقاتله مؤدباً لا منتقماً ، وليكن موقفه أمامـه في جميـع ذلـك موقف العادل المنصف ، والشفيق الرحيم ، فيدفنه قتيـلاً ، ويعالجه جريحاً ، ويكرمه أسيراً ، ويخلفه عـلى أهله وولده بأفضل مـا يخلف الرجل الكريم أخاه الشقيق على ولده من بعده ، وليكن شأنه معه شأن تلك الفئة المتحاربة التي وصفها الشاعر في قوله :

اذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها   تذكرت القربى ففاضت دموعها

★

أدوار الشعر العربي

كانت العرب في جاهليتها أمة هائمة متبدية على الفطرة النقية البيضاء، لا تعبث الحضارة بجمالها ، ولا تعبث المدنية في صورتها ، شمسها في آفاقها، فتنبسط أشعتها على سهولها وحزونها ونجادها ووهادها ، من حيث لا يعترض سبيلها من الظل سحب ، ولا من السقوف حجب ، وينبت نباتها حيث يجري ماؤها ، لا تعبث فيه الأيدي بتربيع ولا تدوير ، ولا تقويس ولا تعريج ، ويجري ماؤها في سبيله حيث ينساب به تسلسله واطراده ، لا تلوي بـه عن قصده الحفائر ، ولا تنتصب في وجهه القناطر ، ويهيم وحشها في جبالها .. وطيرها في أجوائها من حيث لا يحبس الاول عرين موصود .. ولا الآخر قفص محدود ، والشعر من وراء ذلـك كلـه مرآة صافية تتمثل فيها تلك المناظر الفطرية على طبيعتها وفطرتها .

ينطق العربي بما يعلم .. ويقول ما يفهم ويصوّر ما يرى ويحدث عما تمثل في نفسه حديثاً صادقاً لا تكلف فيه ولا تعمل.. لأن كلا ما هو محيط

به من هواء وماء وأرض وسماء ..وطعام وشراب ، ومرافق وأدوات . على الفطرة السليمة الخاصة ، فاحرى ان يكون شعره كذلك .

ذلك كان شأن الشعر العربي والعرب على فطرتهم . وذلك معنى قولهم : الشعر ديوان العرب ، لأنه صورة حياتهم الاجتماعية والأدبية ، ومثال خواطرهم الحقيقية والخيالية ، فان ظن ظان ان التماثيل والنصب والصور والتهاويل ،وبقايا الآثار ، وقطع الأحجار التي نراها في خرائب اليونان والرومان ، والفينيقيين والفراعنة ، أدل على تواريخ اولئك الأقوام من الشعر العربي على تاريخ العرب قلنا له : ما من ديوان من دواوين الأمم الماضية إلا وقد تحدث المؤرخون بعبث الأيدي به ولعبها بسطوره وسجلاته ، أما الديوان العربي فصورة صحيحة وآية ثابتة ، لا تغيير فيها ولا تبديل .

ثم جرت بعد ذلك جوار بالسعد والنحس ، فانتقلت الأمة العربية من بدواتها الى حضارتها . وهاجر معها شعرها بهجرتها . فطلع جيش المولدين يحمل لواءه الشاعران الجليلان : بشار ، وأبو نواس ، فطرقوا معاني لم تكن مطروقة ، ونهجوا مناهج لم تكن معروفة ، فقلنا لا باس ، فالشعر العربي أوسع من ان يضيق بحاجات أمته وضرورتها ، في جميع شؤونها وحالاتها ، حتى جاء أبو تمام شيخ الصناعة اللفظية ، فسلك الى كثير من معانيه البديعة طريق اللفظ المصنوع والاسلوب المتكلف، فثغر في الشعر العربي ثغرة ألح عليها السائرون على أثره من بعده باظفارهم وأنيابهم حتى صيروها فوهة واسعة لا تمنع ما وراءها ولا تدفع ما أمامها،

فاصبح الشعر على عهد ابن حجة وابن الفارض وابن مليك والصفدي والسراج والورّاق وابي الحسن الجزار والصفي الحلي وامثالهم ، اشبه شيء بتلك الآنية الصينية التي يضعها المترفون في زوايا مجالسهم وعلى أطراف موائدهم ظهراً زاهياً ، وبطناً خاوياً ، لا تشفي غلة ، ولا تبض بقطرة ، ولا تسمن ولا تغني من جوع ، ثم جاء على اثر هؤلاء من تدلى الى منزلة أدون من هذه المنزلة ، فجاءوا بشيء هو اشبه الاشياء بتلك التفاعيل التي وضعها الخليل ميزاناً للشعر ، لا يروق لفظها ولا يفهم معناها.

وعلى هذا المورد الوبيل وقف الشعر الوبيل ، وقف الشعر العربي بضعة قرون وقفة لا يتزحزح عنها ولا يتحلحل ، حتى انزل الله اليه من ملائكة البيان رسلاً في هذا العهد الاخير أخذوا بيده ، ونشروه من قبره ونفضوا عنه غباره فاصبحنا نرى في ابراد الكثير منهم ، اجسام امرىء القيس ، والنابغة ، ومسلم ، وابي نواس ، وابي عبادة ، والشريف ، ومهيار لا فرق بينهم وبينهم سوى ان هؤلاء مقلدون يتبعون الآثار وأولئك مبتدعون يفترعون الابكار .

حوانيت الاعراض

أنا لا أستطيع ان أتصوّر الفرق بين رجل يمد يده الى خزانة بيتي فيسرق مالي ، وبين آخر يمد لسانه او قلمه الى شرفي فيستلبه ، كلاهما مجرم فاتك ، وكلاهما لص مغتال ، وان كان اولهما في نظر القانون وفي عرف الناس أكبرهما إثماً ، وأسوأهما أثراً .

المال خادم من خدام الشرف ، وحاجب من حجابه والوقوف على بابه ، ولولا مكان الشرف ، والكلف بصيانته ، والضن به ان يعبث بجوهره عابث . ما كان لامرىء في هذا المعدن الصامت أرب أكثر من ان يقيم به صلبه . ويمسك به حوباءه ، فان كان سارق المال مجرماً من حيث كونه هاتكاً لذلك الحجاب المسبل دون الشرف ، فجدير بمن يسرق الشرف نفسه ان يكون رأس الجانين واكبر المجرمين .

يكون للرجل — من الصحفيين مثلاً — عند الرجل من كرام الناس وسراتهم وذوي السيرة الصالحة فيهم مارب من المآرب التي لا يعرف

لنفسه فيها حقاً ولا يمت اليها بسبب من الاسباب الظاهرة او الباطنة ، فما هو إلا ان يمتنع عليه حتى يرميه بسهم جارح من سهامه النافذات ،يصيب به مقتلاً من شرفه و كرامته ، ولا ذنب له عنده إلا أنه لم يكن من لحيته يلف عثنونها على يده ثم يقوده بها الى حيث شاء كما تقاد السائمة الى مصرعها.

يحب الرجل الجد حباً يملأ ما بين جوانحه ، ويكلف به حتى يصبح آثر عنده من نفسه التي بين جنبيه ، ويقضي لكلفه به وحرصه عليه سواد ليله يساهر الكوكب حتى ينحدر الى مغربه، وبياض نهاره يساير الشمس حتى تغرب في حمأتها ، ويقيم بينه وبين شهوات نفسه ونزعات قلبه حرباً عواناً يحمل في سبيلها ما لا يستطيع ان يحمله بشر ، حتى اذا أمكنه المقدار منه وبدأ ينهل اول نهلة من مورده البارد العذب ، رآها ممزوجة بذلك العلقم المر الذي صبه له في انائه ذلك المجرم الاثيم .

ان بين جدران بعض تلك القاعات التي يسمونها « ادارات » قوماً مفاليك قد دارت عليهم الايام دورتها ، وسلبتهم المواهب التي يعيش بها أمثالهم ، ممن ولد مولدهم ونشأ منشأهم . فضاقت بهم سبل العيش التي ما كانت تضيق بهم لو ان الله ابقى لهم بعد ان سلبهم فضيلة الفهم والعلم فضيلة العمل الصالح والسيرة المستقيمة ، فلم يجدوا بين ايديهم منفذاً ينفذون منه الى القوت، فتحوا حوانيت للاتجار بأعراض الناس وكرامتهم سموها صحفاً ، واكثر مشتملاتها اعراض الاشراف والعظماء وارباب الجد والعمل ، الذين سبقوهم الى فردوس السعادة ، وخلفوهم وراءهم يتأكلون غيظاً لحرمانهم مما أفاض الله عليهم . فهم ان فتشت عنهم ، وكشفت عن

دخائل نفوسهم ، علمت ألا فرق بينهم وبين أولئك الفوضويين الذين يدينون بقتل الملوك والامراء ، وأستغفر الله ، فللفوضويين رأي في تلك الجرائم يرونه ، وفكرة خاصة يعتقدون صحتها ، بل هم كقطاع الطريق الذين يهاجمون الغادين والرائحين ولا ذنب لهم عندهم إلا أنهم مزودون وهم مقفرو الأيدي من الزاد .

ولقد يكون خطبهم سهلا ومصابهم محتملا ، لو أنهم صرحوا عن أنفسهم وأبدوا للناس صفحات وجوههم ، وطلبوا قوتهم من طريق الكدية الواضحة البنية ، ولكنهم مراءون مخادعون ، يشتمون باسم الموعظة ويقرضون الأعراض باسم النصيحة ، ويتهمون الأبرياء باسم الغيرة الدينية او الادبية ، ووالله ما بهم من أدب ولا دين ، ولا عظة ولا نصيحة ، ولكنهم قوم محددون ، قد بلغت الفلاكة منهم مبلغاً ، وضاقت بهم الارض الفضاء على رحبها ، فهم يروّحون عن نفوسهم بالنيل من شرف الشرفاء ، وتنغيص لذة السعداء .. ويطلبون قوتهم فيما بين هذا وذاك من يد تلك الفئة الساذجة التي لا تستطيع أن تفرق بين الكاتب الذي يكتب ليقوّم معوجاً ، او يصلح مختلا ، او يرفع بدعة باطلة ، او يكشف عن حقيقة خافية ، وبين الآخر الذي يدور مع الدينار دورة الحرباء مع الشمس ، لا يفارقه حتى تفارقها ، والذي لا يلذه شرب الماء إلا ممزوجاً بدم . ووالله ما أدري ما الذي أقامهم هذا المقام وعهد اليهم هذا العهد ، ومن الذي وكل اليهم النظر في شؤون الناس والفصل في قضاياهم ، والقيام على حسناتهم وسيئاتهم وما هم بالبررة الاتقياء الذين يصلحون أن

يكونوا امثلة حسنة في منـازلهم ، فيكونوا قدوة صالحـة في أمتهم ، ولا بالعلماء الفضلاء فنهتدي بهداهم، ونستن بسنتهم ، ولا بالصادقين المخلصين فنتعبد بإجلالهم وإعظامهم، بل ليس لواحد منهم فضل الصانع في مصنعه، او التاجر في حانوته ، او العامل في معمله ، فيصلح ان يكون حكماً في قضايا الأشراف والنبـلاء ، وميزاناً لحسنـاتهم وسيئـاتهم . وعندي أن لو جمعت عيوب النـاس جميعهـا في كفة ميزان ، ووضعت في الكفة الأخرى عيوبهم الجامعة للسفاهة والكذب والنميمة والتجسس ، وهتك الاعراض ، واتهام الابرياء ، واستهواء الضعفاء ، لثقلت كفتهم أمام كفة الذين يزعمون انهم يقوّمون معوجهم ويثقفون منـآدهم ، ويصلحون مـا فسد من شؤونهم .

★

الرثاء

ما أنس لا أنسى رجلا كان خير من لقيت من الرجال ، وكان يعجبني منه أدبه وفضله ، وعفته وحياؤه ، وشرف نفسه ، وطهارة قلبه ، وأنه كان صبوراً محتملا تقرع الخطوب صفاة قلبه فترتد عنها ثانية ، كما ترتد الكرة عن الحائط اذا قرعتها .

كان فقيراً لا يملك من الدنيا اكثر مما يقيم صلبه ، ويمسك حوباءه ويستر سوأته ، فزوّجه أبوه بابنة عم له لم يكن مثلها في دمامتها ، وسوء خلقها ، وجفاء طبعها ، ممن يطمع مثله في جمال خلقه ولين حاشيته وانسجام طبعه، فكبرت نفسه عن مخالفة أبيه ، لأنه كان براً به ، مطيعاً له ، نازلاً عند أمره ونهيه ، وعن مجافاة زوجه واطراحها والانقباض عنها ، لأنه كان واسع الصدر ، فسيح رقعة الحلم ، رفيقاً بالضعفاء والعاجزين ، فتزوجها وفي نفسه من المضض والألم ما يلهب الجوانح ، ويذيب لفائف القلوب .

وأذكر أني على طول عشرتي له ، ولصوق نفسي بنفسه ، ما سمعته يشكو إليّ يوماً من الايام ما كان يعالجه من سوء عشرتها ، ويكابده من شرورها التي لا تغبه ليلها ونهارها ثقة بالله ورحمته . وإيثاراً لفضيلة الصبر والجلد ، وسكوناً الى ما جرت بـه الاقلام في ألواح المقادير . فكنت أرحم صمته وسكونه ، وأرثي لجمود عينيه عن البكاء ، لأني أعلم أن نيران الاحزان لا يسكن اضطرامها، ولا يهدأ اعتلاجها ، إلا باطراد العبرات وتصاعد الزفرات . وكان كل ما ينعم بـه من لذائذ هذه الحياة وأطايبها ، أنه كان يسافر في كل شهر مرة أو مرتين الى أحد اصدقائه في الريف فيقضي عنده يومين او ثلاثة ثم يعود وفي ثغره ابتسامة تتلألأ تلألؤ نجمة الصبح قبل انحدارها الى مغربها ثم لا تلبث ان تتلاشى، ولا يلبث أن يعود الى جموده الاول ، لا يحزن فيبكي ، ولا يفرح فيبتسم ، حتى يخيل للناظر اليه أنه يعيش في عالم غير هذا العالم ، ولا يظلله ليل ولا يضيئه نهار .

قضيت في صحبته على حاله تلك بضع سنين أعلم من دخيلة نفسه ما يحسب أني أجهله فأكاتمه ذلك العلم جهدي رفقاً به واشفاقاً عليه ، حتى زرته في منزله ذات يوم فرأيته جاثماً في مقعده الذي كان يقتعده من غرفته وقد اطرق اطراقاً طويلا ذهل فيه عن نفسه فلم يشعر بدخولي حتى أخذت مكاني ، فرفع رأسه فادهشني من منظره اصفرار وجهه وذبول عينيه ، وما كان يغشى جبينه من دخان تلك النار التي تشتعل بين جوانحه ، ثم نظر اليّ نظرة طويلة لا عهد لي بمثلها من قبل وقال :

ـ أتعتقد أن الله موجود ؟ قلت : نعم ـ معالجاً نفسي على كتمان ما كان يذهب بلبي من تنكر حاله ، وتغير اطواره .

قال : وتعتقد أنه عادل ؟ قلت : نعم .

قال : وراحم ؟ قلت : نعم .

فبسط يده الي فعل الضارع المستصرخ وقال :

ـ هل لك ان تحدثني ايها الصديق عن نزول الصواعق ، وثورة البراكين ، وطغيان البحار ، وغرق السفن ، وانتشار الأوباء ، وفتك الأداء ، ونكبات الفقر والجوع ، وتلك العيون التي لا تزال منهلة بالبكاء ، والضلوع التي لا تزال ملتهبة بنيران الهموم والاحزان ؟ هل تعتقد أن ذلك كله عدل من الله ورحمة ؟

قلت : نعم ، ان الله يمتحن عباده ليعلم الذين صبروا فيدخر لهم في دار نعيمه من المثوبة والأجر أضعاف ما كانوا يقدرون لانفسهم من سعادة الحياة وهناءتها .

قال : ان الله اكرم من أن يجعل الشر طريقاً الى الخير ، وألا يحسن الى عباده الا بعد ان يسلبهم الاساءة .

قلت : ذلك ما كتب على نفسه أن يجازي كل عامل بعمله . ان خيراً فخير وان شراً فشر .

قال : انه كتب على نفسه الرحمة .

قلت : نعم ، انه اكرم الكرماء ، وارحم الرحماء .

قال : حدثني عن الولد الصغير الذي لم يخالط نفسه شر ، ولم يتسرب الى قلبه كيد ، مالي اراه مفترشاً حجر امه وقد تولى الليل الا اقله يتقلب على مثل جمر الغضى مما يساوره من الآلام ؟ فينتفض تارة ويختلج أخرى ، ويصرخ صرخات تستمطر الدموع ، وتحول بين العين وبين الدموع؟ وما لي ارى امه باكية مولهة ، ذاهلة اللب موجعة القلب ، تفزع لفزعاته ، وتصرخ لصرخاته وقد اختبل عقلها والتاث امرها ، وعظم ياسها ، وفنيت حيلتها وقلّ مساعدها وضعف ناصرها ، فانشات تقلب وجهها في السماء ضارعة الى الله تعالى ان ياخذ بيدها ويرحم نفسها برحمة ولدها ، وبينا هي تنتظر صوت الاجابة يرن في آفاق السماء ، اذا بها تسمع حشرجة الموت في صدر ولدها ، واذا بـه ينزع نزعاً مؤلماً يطير باللب ، ويذهب ببقية الصبر ، حتى تفيض نفسه ، فماذا جنى هذا الولد الصغير حتى اصبح لا يستحق رحمة من الله ولا رأفة ؟

قلت : وما يدريك لعل الله اراد بـه خيراً فرحمه بالموت المعجل من حياة علم انه سيلقى فيها مثلما تلقى انت اليوم من الشقاء الممض والعذاب الاليم ؟

فنالت هذه الكلمة من نفسه ، وجمد أمامها جموداً طويلاً ، ثم قال : أحسنت ايها الصديق ، ليت الذين يشقون في هذه الحياة يشعرون بصغر هذه الدنيا ، وحقارة شانها ، فيتمنون لو لم تلدهم امهاتهم ولم يكتب لهم سطر واحد في الوجود ، وبعد فهل لك في سفرة معي الى ذلك الصديق

الريفي نقضي عنده يوماً واحداً ثم نعود ؟ على أن تكون معي كما كان موسى مع الخضر ، لا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ؟

فوافيت رغبته ، وقبلت شرطه ثم قام وقمت ، ولو أنني ملكت في هذه اللحظة الدنيا بحزافيرها لوهبتها لمن يكشف لي سر صديقي ويدلني على مكان نكبته التي زعزعت نفسه ، وصهرت قلبه ، وملكت عليه لبه، وكادت تعبث بيقينه ، وما هي الا ساعات حتى بلغنا المنزل الذي أردناه، وقد أظل الليل بجناحيه ، فقضينا واجب التحية والسلام ، ثم خلا الصديق بصديقه خلوة طويلة لا اعلم ما دار فيها بينهم ، ثم خرجا إليّ فجلسنا ساعة نتحدث . ثم قمنا الى فراشنا فنمت نوماً متقطعاً مملوءاً بالوساوس والهواجس ، فما انتصف الليل حتى شعرت ان صديقي يتحرك في فراشه ، ويطيل النظر إليّ ليعلم أنائم انا أم مستيقظ ؟ فتناومت حتى رأيته قد قام من مكانه يختلس الخطى اختلاساً حتى وصل الى المشجب فلبس أثوابه ، ثم تسلل من الغرفة فخفق قلبي خفقة الرعب والفزع وقلت : لا بد أن الرجل يريد بنفسه شراً وأنا اكون ألأم الناس إن أنا تركته يصنع بنفسه ما يشاء ، فقمت على أثره اتتبع خطواته ، وأسير وراءه من مدرجة الى أخرى ، حتى بلغ مقبرة البلد ، فوقف هنيهة يشرف على تلك النواويس العظام التي جثمت في امكنتها جثوم الآبال في معاطنها ، ثم مشى يتصفح القبور قبراً قبراً ، فخيل اليّ انه شبح من اشباح الموتى يهيم في أرجاء تلك المقبرة الموحشة، فملكني من الخوف والرعب ما كاد يحل عقدة لساني لولا اجلالي لهذا الموقف الرهيب،

وشعوري أنني واقف عـلى ابواب تلك الدور التي سلب خوفها العـاقلين عقولهم ، وأطار طائر الغمض عن أجفانهم ، ونغص عليهم ما يتمنون ان يصفوا من طعامهم وشرابهم،والتي يفد اليها كل يوم وفود البشر محمولين على أيدي اهليهم ، وذوي أرحـامهم .. ليقدموهم بأنفسهم هدية الى الحشرات والديدان لتأكل لحومهم وتمتص دماءهم وتتخذ من سواد عيونهم وبياض ثغورهم ، مراتع ترتـع فيها كما تشاء .. من حيث لا يملك مـالك منهم عن نفسه دفعاً ، ولا يعرف الى النجاة سبيلا .

مرت بخاطري تلك الذكرى فملكت عـلى نفسي حتى ذهلت عن موقفي ، وأنستني الحـيرة في أمر نفسي الحـيرة من امر صديقي ، وفيما يعالجه منذ الليلة من غرائب الشؤون وعجائبها، ثم استفقت فرأيته جاثياً امام قبر من تلك القبور جثيّ العابد بين يدي معبوده ، فدلفت اليه حتى دنوت منه فسمعته يقول :

اللهم انك تعلم اني ماكفرت نعمتك ، ولا خفرت ذمتك ، ولاهتكت حرمة من حرماتك ، ولا نزلت عنـد سخطك وغضبك ، ولا تبرّمت بقضائك وقدرك ، وانك احسنت اليّ بتلك الطفلة احساناً عظيماً لأنك انقذت بها حياتي من همومها وآلامها ، ثم لم تلبث ان سلبتنيها وشيكاً أهنأ ما كنت بها وأرجى ما كنت الى قضاء ساعات العمر بجانبها ، فاغفر لي جزعي وحزني فكثير عليّ ان لا اجزع ولا احزن .

لقد تبدلت الارض غير الارض والسموات ، وكأنما استحالت في

نظري حقـائق الاشيـاء ، فأصبحت لا ارى في النجمة لالاءهـا ، ولا في الزهرة جمالها ، ولا في السماء صفاءها ، فهل كانت فتاتي سر هذا الوجود حتى اذا ذهبت ذهب بذهابها كل شيء ؟

لقد ذهبت بي الايام فيما مضى كل مذهب ، وجرّعتني مـن كؤوس الشقاء جرعاً مـا احتمل فيم قبل فمي مرارتها ، فاغتفرت لها كل ذنوبها عندي حينما أسدت اليّ تلك اليد التي انستني جميع هموم الحياة وآلامها . . وأمـا اليوم وقـد صفرت منها يدي ، وأقفر بفراقها ربعي . . وحـالت تلك الصفائح بيني وبينها ، فلا عزاء ولا سلوى .

من لي بضربة من ضربات الدهر تذهب بذاكرتي جملة واحدة ، فلا اعود اذكر ايام حياتها معي ومقعدها بجانبي ، وصوتها الرقيق ، وحديثها العـذب ، وصفـاء عينيهـا ، ورونق وجهها ، وصورة قومتها وجيئتها وذهوبها وضحكها وبكائها ويقظتها ومنامها ، وحزنها لفراقي وسرورها بلقائي ، فاني كلما ذكرت ذلك شعرت كان قلبي المجموع قد استحال الى أفلاذ صغيرة تتطاير في اجواز الفضاء .

اللهم إني أعلم ان الدنيا ليست بدار قرار ، فلا أمل في البقاء فيهـا ، والركون اليها ، والاستمتاع بلذة العيش فيها ، وانها الجسر الذي يمر به الأحياء الى دارهم الأخرى ، وكل ما كنت أطمع فيه منها ان يكون لي كما للناس جميعاً رفيق يعينني على قطع تلـك الشقة البعيدة ، ويهوّن علـيّ آلام وحشتها وكآبتها ، فحرمتني ذلـك الرفيق المعين . فكيف أسير ، واين أعيش ؟

اللهم إنك سلبتني كل شيء حتى الدموع التي يريح بها الباكون أنفسهم ويطفىء بها المحزونون لواعج قلوبهم ، فأصبح الحزن يغلي بين جوانحي غليان الماء في القدر المحكمة الغطاء ، فامنن عليّ بدمعة واحدة أطفىء بها غليلي ، ولا أحسب أنك تمنعنيها ، فالدموع هي الرحمة العامة التي كتبت على نفسك ان تعالج بها نكبات المنكوبين ، وبؤس البائسين .

اللهم لا ريبة في عدلك ، ولا ظنة في كرمك ، ولا اعتراض على قضائك وقدرك ، ولا سخط في ابتلائك ومحنتك ، خرج أمر نفسي من يدي ، وأصبحت لا استطيع ان أبصر ما بين يدي ، فاغفر لي سقطي وزللي .

اللهم إنك منعتني حظي من الحياة ، فلا تمنعني حظي من الموت ، فاسترد اليك عاريتك التي أعرتنيها فقد عجزت عن حملها ؛ وضقت ذرعاً بأمرها ؛ إنك بعبادك رؤوف رحيم .

وما أتم كلمته حتى صاح صيحة عظمى ، ثم سقط على صفائح القبر ؛ فعلمت ان الرجل قد انفجر ؛ وان الله قد استرد وديعته اليه ؛ واختار للرجل ما عنده ؛ فذعرت وارتعدت والتفت حولي فاذا صديقه واقف ورائي يشهد المنظر الذي أشهد ، ويذرف من الدموع أضعاف ما أذرف ، فدنونا منه معاً وحركناه فاذا هو ميت ، فنقلناه الى المنزل ، وبتنا حول سريره نقضي حق صحبته تارة بالدموع وأخرى بالإطراق والخشوع ، وهنالك قص عليّ ذلك الصديق قصته وكشف لي عن خبيئة أمره فقال : إنه قضى زمناً طويلاً يشكو إليّ آلام نفسه التي يعالجهم من سوء عشرة

زوجه وخشونة طبعها ، وجفاء خلقها ، ثم اقترح عليّ يوماً من الايام ان أزوجه من أختي ففعلت رحمة به واشفاقاً عليه ، من حيث لا يعلم أبوه ولا أحد من أهله بذلك فكان يزورنا في كل شهر مرة او مرتين ، وظل على ذلك عدة سنين ، حتى وعكت تلك المسكينة وعكة ذهبت بها الى ربها ؛ وتركت له فتاة في الخامسة من عمرها فكانت هي عزاءه الوحيد عن كل ما فاته من نعيم الحياة وهناءتها ، وكان يختلف اليها كما كان يختلف الى أمها ، وشغف بها شغفاً بلغ به حد الجنون ، وكان كثيراً ما يقول لي انني أشعر ان حياتينا أنا وهذه الطفلة حياة واحدة ، وأنا اما ان نعيش معاً ، او نموت معاً وكانه ألهم بما سيكون ، فقضى الله ان تمرض الفتاة مرضة شديدة لم تمهلها اكثر من خمسة أيام ثم لحقت بامها ولما تسلخ الثامنة من عمرها ، فنعيتها اليه بكتاب أرسلته اليه بالأمس ، فجاء وجئت معه ، ثم كان بعد ذلك ما قدر الله ان يكون .

دفنت صديقي بيدي ، وألحدته بجانب ابنته التي قطع جسر الحياة الطويل في لحظة واحدة شوقاً اليها ، ووجداً عليها ، ثم عدت الى بلدتي صفر الكف من ذلك الإنسان الذي كنت مالئاً منه يدي ، والذي كنت أجله وأعظمه حياً ولا أزال أبكيه وأذكره ميتاً ، وأتخذ حياته الشريفة الحافلة بمواقف الصبر والجلد ، والوفاء والكرم عبرة أعتبر بها حتى يجمع الله بيني وبينه .

كفى حزناً بموتك ثم إني　　نفضت تراب قبرك من يديا
وكانت في حياتك لي عظات　　وأنت اليوم أوعظ منك حيا

الشعر

كتب اليّ كاتب يقول : عرفناك قبل اليوم شاعراً ما تكاد تكتب سطراً ثم رأيناك بعد ذلك كاتباً ما تكاد تنظم بيتاً ، فلم لم تكتب في عهدك الأول ، ولم لم تنظم في عهدك الثاني ؟ كأنما ظن عافاه الله أنني اكتب اليوم بقلم غير قلم الأمس ، او أهيم في واد غير ذلك الوادي ! وهل الشعر الا نثارة[1] من الدر ينظمها الشاعر ان شاء شعراً ، وينثرها الكاتب ان شاء نثراً ؟ او نغمات الموسيقى يسمعها السامع مرة من أفواه البلابل والحمائم ، وأخرى من أوتار العيدان والمزاهر ، او عالم من عوالم الخيال، يطير فيه الطائر بقادمتين[2] من عروض وقافية او خافيتين[3] من فقر وأسجاع .

الكاتب الخيالي شاعر بلا قافية ولا بحر ، وما القافية والبحر الا

---

(١) النثارة : ما تناثر من الشيء .

(٢) القادمة : مفرد قوادم ، وهي عشر ريشات في جناح الطائر .

(٣) الخوافي : ريشات اذا ضم الطائر جناحيه اختفت .

ألوان وأصباغ تعرض الكلام فيما يعرض له من شؤونه واطواره التي لا علاقة بينها وبين جوهره وحقيقته ، ولولا ان غريزة في النفس ان يردد القائل ما يقول ويتغنى بما يردد ترويحاً عن نفسه ، وتطريباً لعاطفته ، ما نظم ناظم شعراً ولا روى عروضي بحراً .

ما كان الرجل العربي في مبدأ عهده ينظم الشعر .. ولا يعرف ما قوافيه واعاريضه ، وما علله وزحافاته ؟ ولكنه سمع اصوات النواعير وحفيف الاوراق وخرير المياه ، وبكاء الحمائم ، فلذ له صوت تلك الطبيعة المترنمة ولذ له ان يبكي لبكائها وينشجج لنشيجها ، وان يكون صداها الحاكي لرناتها ونغماتها ؛ فاذا هو ينظم الشعر من حيث لا يفهم من شؤونه سوى أنه تلك النغمة الموسيقية العذبة الخالبة ، ولا من ابحره وضروبه سوى انها صورة من صوره ، ولون من الوانه .

ذلك منتهى نظر العربي الى الشعر ، وذلك ما دعاه الى ان يسمى النبي الذي بعثه الله اليه شاعراً ، وهو يعلم انه ما قصد في حياته قصيدة ولا رجز ارجوزة ، ولكنه سمع من كتاب الله وآياته المفصلات ابلغ الكلام وافصحه واعلقه بالنفوس وآخذه بالألباب ، واملكه للعواطف والمشاعر ، واجمعه لصنوف التشبيهات البديعة ، والاستعارات الدقيقة والمجازات الرائعة ، والكنايات المستطرفة ، وامثال تيك مما لا ينطق به الناطق في اكثر مناحيه ومنازعه الا عند ذهابه مذهب الخيال الشعري فشبه له فسمى ما سمعه شعراً وسمى الناطق به شاعراً ، وما هو بشاعر ولا ساحر ولا كاهن ولا مجنون .

مـا كل موزون شعراً ، وكل ناظم شاعراً ، فالوزن ملكة تعلـق بالنفس من طول ترديـد المنظوم والتغني بـه مقطعـاً تقطيعاً يوازن تفاعيله .. فهو نغمة موسيقية ولحن خاص من ألحان الغنـاء ، يتمثل في قول الملك الضليل [1] :

* قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل *

كما يتمثل في قول الخليل :

* فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن *

ويتراءى في أوتار الحلق الناطق كما يتراءى في أوتار العود الصامت .

أما الشعر فأمر وراء الأنغام والأوزان ، ومـا النظم بالإضافة اليـه الا كالحلى في جيد الغانية الحسناء ، او الوشي في ثوب الديباج المعلم . فكما ان الغانية لا يحزنها عطل جيدها ، والديباج لا يزرى بـه أنه غير معـلم ، كذلك الشعر لا يذهب بحسنه وروائه أنه غير منظوم ولا موزون .

ذلك هو الفرق بين الشعر والنظم ، وها انت ترى ألا صلة بينهما غير تلك الصلة الاصطلاحية التي لا منشأ لها سوى مـا اعتاده النـاس من أنهم ينظمون مايشعرون به ، وتلك الصلة هي التي خلطت بينهما وعمت على كثير من الناس أمرهما ، وهي التي ادخلت النظامين في عداد الشعراء وألقت عليهم جميعاً رداءاً واحداً لا يستطاع معه التمييز بينهما الا القليل من الناقدين ، فاصبحنا نقرأ لبعض المعاصرين القصيدة ذات المائة بيت فـلا نجد بيتاً ،

---

(١) هو لقب امرىء القيس .

وتتصفح الديوان ذا المائة قصيدة فلا نعثر بقصيدة ، واصبحنا لا نكاد نجد بيننا قارئاً غير شاعر لأنه لا يوجد بين الناس من يعجزه تصوّر تلك النغمة العروضية وتصويرها حتى العامة والأميين .

ولقد كتب الكانبون في تعريف الشعر وأمعنوا إمعاناً بعد به عن مكانه وضل به عن قصده ، وعندي ان أفضل تعريف له أنه (تصوير ناطق) لأن قاعدة الشعر المطردة هي التأثير ، وميزان جودته ما يترك في النفس من أثر ، وسر ذلك ان الشاعر يتمكن ببراعة اسلوبه ، وقوة خياله ، ودقة مسلكه ، وسعة حيلته ، من رفع ذلك الستار المسبل بينه وبين السامع ، فيريه نفسه على حقيقتها حتى يكاد يلمسها ببنانه ، فيصبح شريكه في حسه ووجدانه ، يبكي لبكائه ، ويضحك لضحكه ، ويغضب لغضبه ، ويطرب لطربه ، ويطير معه في ذلك الفضاء الواسع من الخيال، فيرى الطبيعة بارضها وسمائها ، وشموسها واقمارها ،ورياضها وازهارها ، وسهولها وجبالها ، وصادحها وباغمها [1] وناطقها وصامتها ، من حيث لا ينقل الى ذلك قدماً ،او يلاقي في سبيله نصبا ، فان سمع قول القائل :

وقانا لفحة الرمضاء واد ... سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا ... حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظما زلالا ... ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أني واجهتنا ... فيحجبها ، ويأذن للنسيم

(١) يقال : بغم الغزال اذا صوت بأرخم صوته ، فهو باغم .

يروع حصاه حالية [1] العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

خيل اليه أنـه يخطر في ذلك الروض البليل بين أنواره وازهاره ، خطران النسيم بين ظلاله واشجاره ، وأنه يرى بعينه اولئك العذارى السانحات،وقد راعهن منظر الحصباء اللامع فوق تلك الديباجة الخضراء. فتولهن وفزعن الى جوانب عقودهن يلمسنها باطراف بنانهن ، يحسبن ان قد وهت فانتثرت جواهرها على بساط ذلك الروض الأريض .

وان سمع قول الآخر :

ودار ندامى عطلوهـــا وأدلجوا
بها أثر منهم جديد ودارس
حبست بها صحبي وجمعت شملهم
وأني على امثال تلك لحابس
أقمنا بها يوما ويوما وثالثا
ويوما له يوم الترحل خامس
تدار علينا الراح في عسجدية
حبتها بانواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها
مها تدريها [2] بالقسي الفوارس
فللراح ما زرّت عليه جيوبها
وللماء ما دارت عليه القلانس

(١) الحالية : لابسة الحلى .　　(٢) أدرى الصيد : ختله .

تمثّل له كأنه مر في ضاحية من ضواحي بغداد بدار موحشة فسمع فيها اصوات قوم يلهون ويقصفون [1] ويقرعون الكؤوس بأمثالها، فاقترب منها وأطل من خصاص [2] بابها، فرأى اولئك القوم مجتمعين حول دن من الخمر قـد تكاملت سنه، وشيب الدهر فوديه [3] ففصدوه فسال دمه الأحمر في كؤوس من الذهب منقوشة نقوشا فارسية قد صورت في قرارها صورة كسرى فارس ودارت في جوانبها صور فرسانه متنكبي قسيهم يطاردون بقر الوحش الهارب من بين ايديهم، ورآهم يملأون الكؤوس خمراً الى ما يوازي اعناق اولئك الفرسان ثم يمزجونها بالماء الى ما يغطي رؤوسهم، فتسلل من مكانه مغتبطا بمجتمعهم، وبما هيىء لهم من الهناءة والنعمة فيـه، ثم مر بتلـك الدار بعـد ايام فرآها مقفرة من اهلها لا تسمع بها نغمة ولا نأمة [4] فدخلها فلم ير فيها الا اعواد ريحان قد يبس اكثرها .. مبعثرة في جوانبها .. وخطوطا كانت رسمتها زقاق الخمر فوق تربتها في غدوّها ورواحها بين اولئك الندماء فانصرف حزينا مكتئبا يسمع صفير الريح الضاربة في جوانبها فيردد قول القائل :

رب ركب قد أناخوا حولنا يشربون الخمر بالماء الزلال
عصف الدهر بهم فانقرضوا وكذاك الدهر حالاً بعد حال

وإن سمع قول الآخر :

(١) قصف : أقام في أكل وشرب ولهو .
(٢) الخصاص : كل خلل وخرق في باب او غيره .
(٣) الفودان : ناحيتا الرأس . (٤) النأمة : النغمة والصوت .

ويوم كتنور الإماء سجرنه[1] وأوقدن فيه الجزل حتى تضرّما
رميت بنفسي في أجيج سمومه وبالعيس حتى بض منخرها دما

شعر كان لهيب تلك الهاجرة يهب في وجهه فيشيح عنه فراراً من لفحاته ويكاد يبكي رحمة بذلك الشبح المصهور الذي ملكت عليه تلك التنوفة الحمراء سبيله ، وحالت بينه وبين نفسه ، فلا هو بصابر ان رام صبراً ، ولا بناج ان أراد نجاء .

وان سمع قول الآخر :

وارحمتا للغريب في البلد النا زح ، ماذا بنفسه صنعا ؟
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعا

هملت عيناه حزناً على ذلك الغريب الحائر ، وتمنى ان لو التقى به في بعض مذاهبه فعطف عليه وآنس وحشته . ثم أخذ بيده فأنزله من بيته منزلاً كريماً وابدله أهلاً باهل ، وجيراناً بجيران .

وان سمع قول الآخر :

وان الذي بيني وبين بني أبي
وبين بني عمي لمختلف جدا
فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم
وان هدموا مجدي بنيت لهم مجداً

(١) سجر الرجل التنور : ملأه وقوداً .

وان ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم
وانهم هووا غيي هويت لهم رشدا
وان زجروا طيراً بنحس تمرّ بي
زجرت لهم طيراً يمر بهم سعدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم
وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
لهم جلّ مالي ان تتابع لي غنى
وان قلّ مالي لم أكلفهم رفدا
وإني لعبد الضيف ما دام ثاوياً
وما شيمة لي غيرها تشبه العبدا

اكبر تلك المكرمة واجلها ، ونظر اليها وهي في علياء سمائها ، نظر الفلكي الى كوكبه الساري ، وشعر كان نورها قد لمع فامتد شعاعه الى الى نفسه فأضاءها .

ولا غرو ان يبلغ الشعر من نفسه هذا المبلغ ، فطالما كان للشعر السلطان الاكبر على النفوس العظيمة، فقد نكب الرشيد البرامكة عندما دس له اعداؤهم ذلك المغنى الذي غناه هذا الصوت :

ليت هنداً انجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدّت مرّة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

وأمر السفاح بقتل وجوه بني أمية بعدما قربهم وأدناهم عندما دخل

عليه سيف مولاه وأغراه بهم في قوله :

لا تقيلن عبد شمس عثارا　　واقطعن كل رقلة[1] وغراس
أنزلوها بحيث أنزلها الله　　بدار الهوان والإتعاس
خوفهم أظهر التودد فيهم　　وبهم منكم كحز المواسي
أقصهم أيها الخليفة واحسم　　عنك بالسيف شافة الأرجاس
فلقد ساءني وساء سوائي　　قربهم من نمارق وكراسي

بل عطف عمر بن الخطاب رضى الله عنه على الحطيئة واطلقه من سجنه حين سمعه يقول :

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ　　حمر الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة　　فاغفر عليك سلام الله يا عمر

بل سمع النبي صلى الله عليه وسلم قول قتيلة بنت الحرث تعاتبه في قتله أخاها النضر بن الحرث على ما بينه وبينه من صلة القرابة :

أمحمد يا خير ضنء كريمة
في قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت ، وربما
منّ الفتى ، وهو المغيظ المحنق
والنضر أقرب من اصبت وسيلة
وأحقهم ، ان كان عتق ، يعتق

(١) الرقلة : النخلة التي تفوت اليد .

ظلت سيوف بني أبيه تنوشه ،

لله أرحام هناك تشقق

فبكى وقال ـ وهو من لا ظنة [1] في عدله ، ولا ريبة في حكمه ـ : « لو سمعتها قبل اليوم ما قتلته » .

لا مؤثر في نفس الإنسان مثل الشعر ، وما خضع الإنسان لشيء في جميع أدوار حياته الا للشعر ، وللشعر الفضل الاول في نبوغ الإنسان وارتقائه وبلوغه هذا المبلغ الباهر من التفوق والكمال .. ولقد أحب الإنسان الشعر ناطقاً وصامتاً ، أما الناطق فقد عرفته ، وأما الصامت ، فالتماثيل التي يراد بنصبها تمثيل حياة عظماء الرجال : شعر ، وهذه النغمات الموسيقية التي تصوّر خواطر القلوب ووجداناتها فتهيج عاطفة الحب في نفس العاشق ، وعاطفة الحماسة في نفس الجندي : شعر ، وهدير الامواج : شعر ، لأنه يمثل عظمة الجبارين ، وظلام الليل : شعر ، لأنه يطلق دموع الباكين ، وحفيف الأوراق : شعر ،لأنه يمثل تناجي العشاق ، وبكاء الحمائم : شعر ، لأنه يمثل فجيعة البين ولوعة الفراق ، تلك النغمات الشعرية التي نسمعها من فم الإنسان مرة ، وفم الطبيعة أخرى ، هي التي زخرفت لنا هذه الحياة ، وألبستها ذلك الثوب الناعم الابيض حتى احببناها ، وولعنا بها ، وحرصنا عليها ، وأعددنا العدة للبقاء فيها .. والسكون اليها ، فكتبنا ودوّنا وألفنا واخترعنا ،وتعلمنا فعلمنا ، وبنينا

(١) الظنة : التهمة .

فشيدنا ، وغرسنا فجنينــا ، وعملنــا فربحنا ، واجتهدنا فاثرينا ، وأملنا فسعينا ، وسعينا فبلغنا ، فكأن الشعر سر هذه الحياة ، وعـلة هـذا الوجود ، لا تطير الينا الحقائق الا على جناحه ، ولا يطيب لنا العيش الا في جواره ، فلنمجد الشعراء كل التمجيد ، ولنكبرهم كل الإكبار ، فهم مشارق شموس الحكمة ، ومطالع كواكب الفضل ، وهم الينابيع الصافية التي يترقرق ماؤها ، ثم يتسرب الى الأفئدة فيملؤها سعادة وهناءة .

الشهيدتان

لم تغتمض عيناي ليلة امس ، لأنني بت اسمع في الدار الملاصقة لبيتي انين امرأة متوجعة ، تعالج هما ثقيلاً ، وتشكو مرضاً أليماً ، ويخيل اليّ أني لا اسمع بجانبها معللاً يعللها ، ولا جليساً يتوجع لها ، فلما اصبح الصباح ذهبت اليها ، فإذا قاعة صغيرة مظلمة لا تشتمل على اكثر من سرير بال يتراءى فوقه شبح ماثل من اشباح الموتى ، فترفقت في مشيتي حتى دنوت منها ، وكأنها شعرت بمكاني فحركت شفتيها تطلب جرعة ماء ، فاسعفتها بها .. فاستفاقت قليلا ، فوقفت بجانبها أسائلها عن خطبها ، فانشأت تقص عليّ قصتها بصوت خافت متقطع كنت كأني انتزعه من بين ماضغيها انتزاعاً وتقول :

زوجني ابي منذ سنوات من رجل مزواج مطلاق ، لا يكاد يصبر على امرأة واحدة عاماً واحداً ، ولو كان للفتاة رأي في نفسها من دون رأي اوليائها لعرفت كيف احسن الاختيار لنفسي ، بل لو لم يكن في

الأمر الا ان أتبتل كما تتبتل الراهبات ، او اتزوج زواجاً ينتهي بي الى هذا المصير ، لكان لي في الرهبانية رأي غير مـا يراه النساء جميعاً ، ولكنـني عجزت فأذعنت ، وحملت اليه فاستقبلني باحسن ما يستقبل بـه الزوج الكريم أحظى نسائه لديه ، واكرمهن عليه ، فكان يريبني من ذلـك مـا يريب الفريسة من.ابتسامة الاسد ، وكنت أنتظر يوم الفراق كما ينتظر المجرم يوم القصاص ، فما أفقت من صرعة النفاس حتى علمت أنه خطب فتزوج فبنى وانـني اصبحت في المنزل وحيـدة منقطعة لا مؤنس لي الا طفلتي الصغيرة فجزعت عند الصدمة الأولى ، ثم نزلت على حـكم القضاء الذي لا املك ردّه ولا اعرف وجه الحيلة فيـــه ، واحتملت طفلتي الى بيت أبي فوجدته مريضاً مشرفاً ، فبكى رحمة بي ، واستغفرني من ذنبه اليّ فغفرته له ، وما هي الا ايام قلائل حتى مضى لسبيله مفجوعاً برزئي الذي نزل بي ، فعلمت ان الدهر قـــد سجل عليَّ في جريدة الشقاء اياماً طوالاً لا اعلم متى يكون انقضاؤها ،ولا أدري ما الله صانع فيها ،فظللت استكتب الناس الكتب الى ذلك الرجل اساله القوت ، لأستعين بـه على تربية طفلته ، او التسريح ، عسى ان يبدلني الله خيراً منه زكاة واقرب رحماً ، فضن بالأولى واستعظم الاخرى ، فـلم أرى لي سبيلاً غـير سبيل العمل ، فلبثت بضع سنين ساهرة الليل ، قائمة النهار، استقطر الرزق من سم الخياط ، فلا ابلغ منه الكفاف .. حتى نال مني الجهد .. فذهبت بعضلة من الأدواء خرجت لها عن كل ما املك من حيلة وذخيرة .. وكسوة وآنية ، واصبحت لا املك درهماً ابتاع به قارورة الدواء ، ولا

أجد مزقة امسك بها قوائم هذا السرير المتداعي ، ولم يقنع الدهر مني بذلك حتى رماني بالداهية الدهياء التي يصغر بجانبها كل عظيم من خطوبه ونكباته ، فقد كتبت الى ذلك الرجل منذ شهر اصف له حالتي وافضي اليه بذات نفسي واساله ان يمدّني وابنتي بقليل من القوت نمسك به تلك الصبابة التي أبقتهـــا خطوب الايام وارزاؤها من اعظمنا وجلودنا ، ولبثت ارتقب رجع الكتاب كما يترقب الغريق سواد السفينة، فإني لجالسة منذ ايام على هذا المقعد أعد على الدهر ذنوبه اليّ وسيئاته عندي ، فلا افرغ من عقد الا الى عقد ، ولا انتهي الا الى حيث أبتدىء، وقد اجلست طفلتي بين يدي اتطلع الى وجهها الساطع في ظلمات تلك الخطوب كما يتطلع الملاح في ظلمات بحره الى نجمة القطب .. إذ هجم عليّ ذلك الظالم الجبار فاختطف ابنتي من بين يدي من حيث لا املك دفعاً لما نابني ، ولا اجد ما أذود به عن نفسي ، الا زفرات لا يسمعها سامع ، وعبرات لا يرحمها راحم ، فشعرت كأن سهم الدهر الذي كان يروغ قبل اليوم ههنا وهنا .. قد اصاب في هذه المرة المقتل ، فبت ليلتي كما يجب ان تبيت امرأة بائسة معدمة قد فجعها الدهر بكل ما تملك يدها وبكل ما تتعلق به آمالهـا ، فاصبحت لا تجد أمامها يداً تنبسط اليهـا ، ولا عيناً تبكي عليها ، وقد مر بي على ذلك نيف وعشرون ليلة لا يرقـا لي دمع ولا يهدأ بي مضجع ، حتى اذا اختلست من يد الظـلام نعسة تراءت لي تلك الفتاة في نومها كأنها صارخة باكية تهتف باسمي ، وكأن أباهـا يوسعها ضرباً وتعذيباً ، وكأنني أحاول استنقاذها ممـا هي فيه فلا أجد اليها سبيلا ،

وهانذا أشعر أن سحابة الموت تغشي على بصري . وأني مفارقة هذا العالم قبل أن ألقي على ابنتي نظرة اتزود بها منها قبل ان افارق هذه الدار .

وما وصلت من حديثها الى هذا الحد حتى جرضت بريقها وتتابعت أنفاسها وشطر بصرها ، فجثوت عند سريرها أدعوا لها الله أن يعينها على أمرها ، ويمدها برحمته وإحسانه . فإني لكذلك ، وقد استغرقت في هذا المشهد الذي بين يدي استغراق العابد في هيكله . إذ رأيت من خلال الدموع التي كانت تزدحم في عيني شبحاً منتصباً عند باب الغرفة فتأملته فإذا رجل يمسك بيده فتاة صغيرة . فتقدمت نحوه فرأيته خاشعاً مستكيناً ينظر الى فتاته نظرات الوجد والرحمة ، والفتاة كأنها خرقة بالية لا يتحرك بها عضو ، ولا ينبض بها عرق . فقلت : من أنت وماذا تريد ؟ قال : أنا زوج هذه المرأة ووالد هذه الفتاة ، قلت : لعلك جئت تستغفرها من ذنبك اليها في التفريق بينها وبين ابنتها ؟ قال : يا سيدي ما زالت الفتاة مذ فارقت أمها تبكي عليها بكاءاً مرّاً ، وتهتف باسمها في يقظتها ومنامها ، حتى سقطت مريضة لا ينفعها طب ، ولا ينجع فيها دواء ، فلما رأيت أن الأمر قد وصل بها الى هذا الحد جئت بها الى امها أرجو أن تجد بين ذراعيها شفاء من دائها ، قلت : ذلك موكول الى القضاء ، ولا يعلم الغيب إلا الله ، ثم تقدمت نحو الفتاة فرأيتها تجود بنفسها ، فاحتملتها برفق حتى وضعتها بين ذراعي امها ، فما هو إلا أن هتفت الفتاة بأمها ، والأم بفتاتها ، حتى فاضت نفساهما معاً ، كأنما

كانتا من الردى على ميعـاد ! !

* * *

الآن وقـد عدت من دفن تينك الشهيدتين ، وجلست لكتابة هذه السطور ، أشعر أن نفسي تسيل من بين جنبي حزناً عـلى تلك المرأة المسكينة ، لا بل حزناً عـلى جميـع البـائسات من النساء اللواتي يقتلهن الرجـال كل يوم صبراً بسيف الطلاق الماضي ، من حيث لا يجدن راحماً يرحمهن ، ولا ثائراً يثار لهن .

*

الدعاء

وهي خلاصة قصيدة لفكتور هيجو :

قومي يا بنية الى الصلاة ، فقد نزل ستار الليل ، ودب الشفق الأحمر في حاشية الأفق ، وأطلت عيون الكواكب من فروج السحب ، وأجرى البدر المنير ليقته الفضية البيضاء على صفحة النهر ، ومسحت أيدي النسائم المبتلة بندى الليل عن أوراق الأشجار ، غبار النهار .

قومي يا بنية الى الصلاة . فقد مات النهار ، وماتت بموته الآلام والأحزان والاحقاد والاضغان . والمظالم والمآثم ؛ ولم يبق من تلك الاعاصير والزوابع ما يعترض وفد الدعاء في طريقه الى أبواب السماء .

قومي يا بنية الى الصلاة ، فقد أوى الناس الى منازلهم ، والطيور الى وكناتها ، والوحوش الى أوجرتها ، وأخذت الطبيعة مكانها من مرقدها ، ولم يبق من اصواتها الا انين الراحة المتمثل في جعجعة هذه المركبة المقبلة ، وجؤار هذه السائمة العائدة من حقولها ، ودمدمة تلك

الرياح الضاربة في ذوائب الاشجار ، وأعالي الابراج .

قومي يا بنية الى الصلاة ، فقد جاءت الساعة التي يجثو فيها الاطفال حول اسرتهم حفاة الاقدام عراة الرؤوس ، شواخص الابصار ، يطلبون الراحة من الله تعالى لآبائهم وامهاتهم وللناس اجمعين ، فترن اصواتهم ، في علياء السماء ، رنين نغمات الموسيقي في أجواز الفضاء فيرددها الملائكة طائرين بها الى عرش الرحمن ، فإذا فرغوا من دعائهم وقضوا حق الله عندهم ، وحقهم عند أنفسهم ، ذهبوا الى مضاجعهم وناموا نوماً هادئاً مطمئناً تتطاير فيه الاحلام الجميلة حول افواههم الباسمة ، كما تتطاير اسراب النحل حول احواض الازهار .

قومي يا بنية الى الصلاة .. واطلبي الرحمة لتلك التي التقطت ذرتك الاولى من عالمها ، ثم اتخذت لك من حنايا ضلوعها سريراً قبل سريرك ومن احشائها مهاداً قبل مهادك ، والتي قدم لها الدهر كاسي شقائه ونعيمه فشربت الاولى وآثرتك بالاخرى .

اطلبي لها الرحمة فإنها كانت طيبة القلب ، طاهرة النفس ، تحب حتى من لا يحبها وترحم حتى من لا يرحمها ، وتبتسم ابتسامة عذبة صافية لا يمازجها ذلك الريب الذي يمازج ابتسامات النساء ، وتمد يدها الى اجتناء كل ثمرة الا ثمرة الشجرة المنهي عنها ، وكانت تقف امام مسرح الحياة الحافل بالزخارف والتهاويل وقفة المتمهل الذي يتهم سمعه وبصره ، وتنظر اليه نظرة الحكيم العاقل الذي يعلم ان السعادة الكاذبة أمر مذاقاً في الافواه من الشقاء الصادق ، وأن الذين يضحكون سروراً بهذه الصور

الخالية إنما يبكون من حيث لا يشعرون ، وأن الجالسين حول مائدة الشهوات واللذائذ إنما يقامرون بأنفسهم ولا بد أنهم خاسرون ، فتحول بصرها ، وتشيح بوجهها ، وتعود أدراجها ، بقلب غير مخدوع ، وفؤاد غير مصدوع .

اذكري يا بنية ان تطلبي الرحمة لأبيك كما تطلبينها لأمك ، فهو أحوج اليها منها ، ولأن الخطايا قد اثقلت ظهره فاصبح لا يستطيع أن يرفع رأسه الى السماء ، وغلت يده ، فلا يستطيع أن يمدها الى الله بالدعاء .

إنني أشعر يا بنيتي حينما اسمع نشيد دعائك أنني أسمع صوت انقسام القيود عن قدمي ، وأن تلك السحابة السوداء التي تغشى على عيني تنقشع عنها قليلاً قليلاً وكان جناحي المهيض قد نبت له ريش ناعم جميل أحاول أن أطير به في أعالي السماء .

اطلبي الرحمة للآباء العائدين الى منازلهم تحت جنح الظلام بدموع منهلة ، وقلوب واجمة ، بعد أن سايروا الشمس من مشرقها الى مغربها فلم يجدوا ما يمسحون به دموع أبنائهم الذين ينتظرونهم في منازلهم .

اطلبي الرحمة للأمهات الجالسات حول أسرة ابنائهن المرضى وقد رجفت قلوبهن ، وحارت ابصارهن مخافة أن يذقن مرارة الثكل والثكل كثير على قلوب الامهات .

اطلبي الرحمة للبخيل الذي يجيع بطنه ويشبع صندوقه ، والاحمق الذي يبتسم للمعان الحرير في صدره ، والذهب في اصابعه ، والملك الذي يشعل نار الحرب في امته ، ليطفىء نار غضبه ، والزوج الذي لا يحاسب نفسه على ليلة سوء يقضيها خارج بيته ، ويحاسب زوجه على ابتسامة تسمها لرجل غيره، وسائر البائسين الذين لايشعرون ببؤسهم، والاشقياء الذين يظنون أنهم سعداء.

اطلبي الرحمة لاولئك الذين عمروا الارض وبنوا دورها ، وشادوا قصورها وزخرفوا سهولها وجبالها ، وأغوارها ، وأنجادها ، فجازتهم سوءاً بما عملوا ، وابتلعتهم في أعماق جوفها ، فاصبحوا في تلك الحفرة المظلمة الموحشة التي تختلط فيها الرؤوس بالاقدام ، والنعال بالتيجان ، والتي ينطوي فيها كل قديم تحت كل حديث ، انطواء اللجة تحت اللجة في البحر المحيط،يتألمون وينطقون، ولايستصرخون فلا يجدون من يسمع نداءهم ، او يلبي دعاءهم .

اطلبي الرحمة لهم ، فإن الدعاء الخالص يستحيل في نظرهم الى روضة غناء تزهر فوق اجداثهم ، واركعي فوق التربة التي يثنون تحتها ، واسقيها من دموعك قطرات باردة تبل غلتهم . وتطفىء جذوة الحزن الملتهبة في أحشائهم ، إنهم الى الرحمة محتاجون والى الله راغبون .

اطلبي الرحمة للأبرار والفجار ، والعصاة والطائعين ، والملحدين

والمؤمنين ، وكل دارجة في الأرض ، وكل سابحة في السماء ، ولا تياسي أن يستجيب الله دعاءك ، فلكل بداية نهاية ، ولكل سائلة قرار .

كما ان النهر يصب في البحر ، والطائر يقع على الغصن ، والشمس تجري لمستقرها ، والنفس تصعد الى عالمها ، كذلك أبواب السماء ، مفتحة لخالص الدعاء .

الكوخ والقصر

أنا إن كنت حاسداً أحداً على نعمة ، فإني أحسد صاحب الكوخ على كوخه قبل أن أحسد صاحب القصر على قصره ، لو أن للأوهام سلطاناً على النفوس لما تضاءلت الفقراء بين أيدي الأغنياء ، ولا ورم أنف الأغنياء أن يتخذهم الفقراء أرباباً من دون الله .

أنا لا أغبط الغني الا في موطن واحد من مواطنه ، إن رأيته يشبع الجائع ويواسي الفقير ، ويعود بالفضل من ماله على اليتيم الذي سلبه الدهر أباه ، والأرملة التي فجعها القدر في عائلها ، ويمسح بيده دمعة البائس والمحزون ثم أرثي له بعد ذلك في جميع مواطنه الأخرى .

أرثي له إن رأيته يتربص وقوع الضائقة بالفقير ليدخل عليه مدخل الشيطان من قلب الإنسان فيمتص الثمالة الباقية له من ماله ليسد في وجهه باب الأمل ، وأرثي له إن رأيته يعتقد أن المال هو منتهى الكمال الانساني فلا يطمع في فضيلة ولا يحاسب نفسه على رذيلة ، وأرثي له وأبكي على

عقله إن مشى الخيلاء ، وطـاول بعنقه السماء ، وسلم بإيمـاء الطرف ، وإشارة الكف ، ومشى في طريقه يخزر بعينه خزراً ليرى هـل سجـد الناس لمشيته ، أو صعقوا من هيبته ؟ وأرحمه الرحمة كلها إن عـاش شحيحاً جعداً مقتراً على نفسه وعياله ، بغيضاً الى قومه وأهله ، ينقمون عليه حياته ، ويستبطئون ساعة حتفه .

امـا الفقير فهو أسعد النـاس عيشاً ، وأروحهم بالاً ، إلا إذا كان جـاهلا مخدوعـاً يظن أن الغني أسعد منه حظـاً ، وأرغد عيشاً ، وأثلج صدراً فيحسده على النعمة التي أسبغها الله عليه ، ويجلس في كسر بيته جلسة الكئيب المحزون يصعد الزفرة فالزفرة ، ويرسل العـبرة فالعبرة ، ولولا جهله وبلاهة عقله لعـلم أن رُبَّ صاحب قصر يتمنى كوخ الفقير وعيشه ، ويرى أن ذلك السراج الضعيف الذي لا يكاد ينير نفسه اسطع ذبالا واكثر لألاء من تلك الشموع الباهرات التي تأتلق بين يديه ، وأن تلك الحشية من الشعر او الوبر انعم ملمساً وألين مضجعـاً مـن وسائد الحرير ونضائد الديباج .

لقد بلغ الضعف وصغر النفس بكثير من الناس انهم يحفلون بالأغنياء لأنهم اغنياء ، وإن كانوا لا ينالون منهم ما يبل غلة او يسيغ غصة، وليت شعري ان كان لا بد لهم من اجلال المال واعظامه حيث وجد، فلمَ يقبلون ايدي الصيارفة ، ولا ينهضون اجلالاً للكلاب المطوّقـة بالذهب ، وهم يعملون ألا فرق بين هؤلاء وهؤلاء ؟

لو عامل الفقراء بخلاء الاغنياء بما يجب ان يعاملوا به لوجدوا انفسهم في وحشة من انفسهم ، ولشعروا ان بدرات الذهب التي يكنزونها انما هي اساور ملتفة على اقدامهم ، واغلال آخذة بأعناقهم ، ولعلموا ان الشرف في كال الأدب ، لا في رنين الذهب ، وفي جلائل الأعمال ، لا في احمال المال .

فليعظم الناس الكرماء ،وليحتقروا الأغنياء ، وليعلموا ان الشرف شيء وراء الغنى والفقر ، وان السعادة امر وراء الكوخ والقصر .

★

على سرير الموت

مررت يوماً من الايام على باب منزل صغير في احد الازقة الضيقة ، فرأيت حوله مجمعاً حافلا تصطك فيه الاقدام بالاقدام ، وتمتزج فيه الانفاس بالانفاس ، وقد تخلله قوم من رجال الشرطة وسمعت قائلا يقول: « قبح الله الانتحار » وآخر يقول : « احسبه شاباً غريباً لاني لم ار عيناً تدمع عليه » فعلمت ان هناك شاباً منتحراً ، وان هذا الحادث سبب هذا الاجتماع .

لم اقنع بالاجمال ، فاحببت معرفة التفصيل ، فحاولت الدخول الى المنزل فما استطعت الى ذلك سبيلا ، فتريثت حتى لمحت رجلا من رجال الشرطة اعرفه فدخلت معه وهنالك رايت على سرير الموت فتى في نحو العشرين من عمره ، رقيق الجسم اصفر اللون ، لم تستطع يد الموت ان تمحو كل آثار جماله ، بل بقيت منه بقية كتلك البقية من الطيب التي يستنشقها الإنسان في الزهرة الذابلة .

اهتم الضابط بملابسه لعله يجد فيها ما يدل عليه ، واهتم الطبيب بجثته ليعرف علة موته ، اما انا فجلست بجانبه جلسة الكئيب المحزون افكر في مصيبته ، واندب شبابه وجماله ، فلمحت حول سريره اوراقاً منثورة فجمعتها ووضعتها في محفظتي من حيث لا يشعر الضابط ولا الطبيب بما افعل ، علني اجد فيها عبرة من العبر .

وما هي الا ساعة ، حتى قرر الطبيب انه منتحر بشرب مادة الزرنيخ وقرر الضابط نقل جثته الى المستشفى ، فنقلت الجثة ، وانفض الجمع المزدحم ، ثم لم اعد اعلم بعد ذلك من امره شيئاً .

خلوت بنفسي والأوراق فنشرتها فرأيتها مجموعة خواطر عاشق ، تناول كاس الحب بيده ، فارتشف منها الرشفة الاولى فوجدها حلوة المذاق ، فالصق الكاس بفمه ، واستمر يشرب لا يرفعها ، ولا يشعر بالمرارة المتجددة في جرعاتها حتى أتى على الجرعة الاخيرة ، فإذا هي السم الناقع الذي قتله وذهب بحياته .

قرأت تلك المذكرات فبكيت بكاء رحمت نفسي منه ، ثم طويتها وألقيت بها بين اوراقي ، وظلت على ذلك اعواماً طوالاً .

وبينا أنا أقلب أوراقي ليلة أمس إذ عثرت بها في سفط صغير ، قد اصفر لونه لتقادم العهد عليه ، كما يصفر الكفن حول الجثة البالية ، فشعرت برعدة تتمشى في أعضائي ، وتخيلت انها في هذا السفط شبح كاتبها في ذلك القبر .

ثم عدت الى نفسي فنثرتها للمرة الثانية وأعدت قراءتها ، فرأيت قلب العاشق مرسوماً فيها رسماً صحيحاً في حالي سعادته وشقائه ، وهأنذا انشرها في الناس لتكون عبرة يعتبر بها المخاطرون بقلوبهم في هذا السبيل ، سبيل الحب القاتل :

ـ ١ ـ

رأيتها فاحببتها ، وما كنت أعرف الحب من قبلها .

كان قلبي في ظلام حالك لا يرى حتى نفسه ، فلما أشرق فيه الحب أشرقت فيه شمس ساطعة منيرة ، لها من الشمس نورها وجمالها ، وليس لها منها حرارتها ولذعتها .

كنت اشعر قبل اليوم كان قلبي في صحراء هذه الحياة وحيد موحش لا يعرف القلوب ، او يعرفها ثم ينكرها ، فلما احببت رأيت بجانبه قلباً يؤنسه ويزيل وحشته ، فوجدت بين جوانحي من اللذة والغبطة ما لو قسم على القلوب جميعاً ما خالطها حزن ولا مسها ألم .

كنت اسمع باسم السعادة ولا افهم معناها غير أني كنت أسمعهم اذا ذكروها ذكروا بجانبها القصر والحديقة ، والفضة والذهب ، والسلطة والجاه ، والشهرة والصيت ، فلما احببت اعتقدت ألا سعادة في الدنيا غير سعادة الحب ، وأيقنت ان الناس جميعاً إنما يطلبون سعادة الاجسام لا سعادة النفوس ، فمثلهم كمثل الدفين المكفن بالحرير والديباج ، وباطنه مسرح الدود ومرتع الهوام والحشرات .

ـ ٢ ـ

احببتها قبل أن اعرف عنها شانا من الشؤون سوى أنها تحبني ، فكانني ما منحتها قلبي إلا لأنها منحتني قلبها ، وهو ثمن قليل في جانب هذه المنحة الغالية التي ما كنت احدث نفسي بها ، ولا كانت تستطيع أن تمثلها في عيني خواطر الأماني ، ولا سوانح الاحلام .

عشت دهراً بين أقوام لا يعنيهم امري ولا يهمهم شاني ، وذقت من آلام الحياة وشقاء العيش ما لا استطيع أن يحتمله بشر ، فسمعت من يسالني : كيف حالك ؟ ومن يقول لي : ما اشد جزعي لمصابك ؟ ومن يتباكى رحمة بي وإشفاقا عليّ ، ولكني لم ار بجانبي يوماً من الايام عيناً تدمع ، ولا قلباً يخفق !

رأيت من يحب جمالي كما يحب تمثالاً متقن الصنع ، ومن يحب مالي كما يحبه في كيسه او خزانته ، ومن يعجب بحديثي اعجابه برواية بديعة ، ولكني لم ار في حياتي من يحبني !

اما اليوم فقد وجدت بجانبي القلب الذي يخفق لاجلي ، والعين التي تبكي في سبيلي ، والنفس التي تحبني لا لشيء سواي ، فقليل لها مني أن امنحها حياتي فكيف أبخل عليها بقلبي !

ـ ٣ ـ

جلست اليها للمرة الاولى فحدثتني نفسي أن أمد يدي الى يدها فأضعها على صدري لاطفىء بها غلتي ، فما لمستها حتى نظرت اليّ نظرة

العاتب ، وقالت : كن رجلا في حبك ، واترك الطفولة لغيرك .

ان كنت تحبني لنفسي فيا أنت قد ملكتها عليّ وأحرزتها من دوني.. وان كنت تحبني لهذه الصورة الجسمانية فما أضعف همتك .. وما أصغر نفسك !.

اتذرف دمعك ، وتسهر ليلك ، وتذيب حبة قلبك ، من اجل عظمة تلمسها او جلدة تلثمها ؟

أنت شريف في نفسك ، فكن شريفاً في حبك، واعلم أنني ما أحببت غير نفسك فلا تحب غير نفسي .

وما وصلت من حديثها الى هذا الحد حتى رأيتني قد صغرت في عين نفسي وتمنيت ان لو عجل الى اجلي قبل ان يمر هذا الخاطر الفاسد في ذهني . ثم استوهبتها ذنبي فوهبته لي ، وما عدت من بعدها الى مثلها .

— ٤ —

الآن عرفت مبلغ عظمتها ، وفضل هدايتها ، ومقدار ما يبلغه الحب الشريف من النفس، فهانذا أشعر كان نفسي مرآة يغشاها الصدأ ، وكأن الحب صيقل يصقلها فيجلو صفاتها شيئاً فشيئاً .

كنت احمل بين جوانحي لأعدائي ضغناً وحقداً ، فاصبحت لا أشعر بما كنت اشعر به من قبل ، لأن الحب ملك على قلبي ، واستخلصه لنفسه فلم يترك فيه مجالاً لشيء سواه .

كنت ضيق الصدر إن مسني ألم .. سريع الغضب إن فاتني مأرب .. فاصبحت فسيح رقعة الحلم، لا يستفزني غضب، ولا يحرجني محرج لأني قنعت بسعادة الحب، فلم احفل بعدها بشيء سواها .

كنت شديد القسوة، متحجر القلب، لا اعطف على بائس، ولا احنو على ضعيف، فاصبحت اشعر بالمصيبة أراها تصيب غيري ولا تصيبني، وأتألم لبؤس كل بائس وحزن كل محزون، لأن الحب أشرق في قلبي فملأه نوراً .. فارتفع ذلك الستار الذي كان مسبلاً بينه وبين القلوب .

وجملة القول انني كنت وحشاً ضارياً أعيا العالمين رياضته وتدليله، فصرت بين يدي الحب الشريف إنساناً شريفاً، وملكاً كريماً .

— ٥ —

خرجت بها في الليل الى ضفة النهر، وكان الماء رائقاً، والسماء صافية، وفي كل منهما نجوم وكواكب تتلألأ في صفحته فاختلط علينا الامر حتى ما نفرّق بين الاصل والمرآة ولا ندري أين مكان الماء من مكان السماء، فمشينا طويلاً لا ينبس احدنا بكلمة، وكأن سكون الليل قد سرى الى أفئدتنا وملأ ما بين جوانحنا، فامسكنا عن الحديث هيبة واجلالاً .

وكنت اشعر في تلك الساعة بخفة في جسمي، وصفاء في نفسي حتى كان يخيل اليّ أني لو شئت ان اطير لطرت بغير جناح، وأن في استطاعتي

أن اخترق بنظري حجب السماء وأنفذ الى الملا الاعلى فارى هنالك ما هو محجوب عن نظر النـاس أجمعين ، وحتى صرت أتمنى أن يضل النجم سبيله فـلا يهتدي الى مغربه ، وأن يختبىء الليل في بردته فـلا يعثر به فجره ، وأن تستمر مشيتنا هذه ما ضل النجم وما دام الظلام .

فالتفت اليها وسالتها : هل تشعر بالسعادة التي أشعر بها ؟

قالت : لا ، لاني أعرف من شؤون الايام وأحوالها غير مـا تعرف ولأني لا أنظر الى الدنيا بالعين التي تنظر بها اليها !

أنت سعيد بالأمل ، وأنا شقية بالحقيقة الواقعة .

إنك سعيد لانك تظن أن سعادتك دائمـة لا انقطاع لهـا ، وأنا شقية لاني اتوقع في كل لحظة زوالها وفناءها .

إنك إن استطعت أن تقف الشمس في كبد السماء ، وأن تحول بـين الارض ودورتها ، وأن تمنع الساكن أن يتحرك ، والمتحرك ان يسكن ، فاضمن لنفسك استمرار السعادة وبقاءها .

وهنا أمسكت عن الكلام وأطرقت برأسها طويلا ، فرأيت مدامعها تنحدر عـلى خديهـا بيضاء صافية كاللؤلؤ المكنون ، فبكيت لبكائها ، وقلت لِمَ تبكين ؟ قالت : خوف الفراق ، قلت : فراق الحياة ، أو فراق الموت ؟ قالت : أمـا فراق الحياة فإنني لا اخـافه ، لانه لا توجد قوة في العـالم تستطيع ان تحول بيني وبينك ، انمـا اخـاف فراق الموت ، لانه الفراق الذي لا حيلة لي فيه .. ولا منتدح عنه ، قلت : هل لك ان نتعاهد

على أن نعيش معاً ونموت معاً، قالت : ذلك ما يهوّن عليّ ألمي، فتعاهدنا، ثم رجعنا أدراجنا ، والليل يشمر أذياله للفرار من النهار ، ثم افترقنا على ميعاد ، وذهب كل منا لسبيله .

ـ ٦ ـ

ألا يستطيع هذا الدهر الغادر أن ينام ساعة واحدة عن هذا الانسان؟

ألا يستطيع ان يستقيه كاساً واحدة لا يخالطها كدر ، ولا يمازجها شقاء ؟

ألا يستطيع أن يحرمه السعادة بتاتاً فلا يذيقه من كاسها قطرة واحدة ما دام يريد أن يمنحه اليوم ليسلبه غداً ؟

ان الانسان لا يعجز عن احتمال الشقاء الدائم ، ولكنه يعجز عن احتمال السعادة المتقطعة .

يقولون : ان الامل حياة الانسان ، وما قتل الانسان ومزق شمل حياته الا الامل .

ليتني ما سعدت ، لانني ما شقيت الا بسعادتي ، وليتني ما أملت ، لان اليأس القاتل ما جاءني الا من طريق الامل الباطل .

ماتت الفتاة التي كانت شمس حياتي ، وأشعة آمالي ، وينبوع سعادتي وهناءتي .

ماتت الفتاة التي كانت ملء الدنيا جمالاً وبهاء ، فمات بموتها كل حي في هذا الوجود .

أرى الارض غير الارض، والسماء غير السماء ، وأرى الطيور صامتة لا تغرد ، والغصون ساكنة لا تتحرك ، وأرى النجوم آفلة ، والازهار ذابلة ، والطبيعة واجمة حزينة، لا يفتر ثغرها ولا يتلالا جمالها ، وأرى الدنيا كأنما عادت الى عهدها الاول لا يسكنها انسان ولا يخطر بها حيوان، وكانني فيها آدمها الوحيد المسكين يندب جنته ويشكو وحدته .

أيها الدهر الغادر : ان غلبتني عليها فإنك لن تستطيع ان تغلبني عن نفسي ، لك أن تخرج من الدنيا من تشاء ، ولكن ليس لك ان ترد اليها من تخرج منها .

ويا ايتها النفس الهائمة في سمائها ، لا تجزعي ولا تعجلي ، فوالله لأفين بعهدك ولأذهبن عما قليل وحشتك ليكونن عهدنا في مستقبلنا كعهدنا في ماضينا ، فما تعارفنا في العالم الاول الا بارواحنا فلنكن كذلك في العالم الثاني .

غدر المرأة

يقصون في بعض الاساطير القديمة أن حكيماً من حكماء اليونان كان يحب زوجته حباً ملك عليه قلبه وعقله .. وأحاط به احاطة الشعاع بالمصباح المتقد وكان يمازج هناءته الحاضرة شقاء مستقبل يسوقه الى نفسه الخوف من أن تدور الايام دورتها ، فيموت ويفلت من يده ذلك القلب الذي كان مغتبطاً باعتلاقه الى صائد آخر يعتلقه من بعده ، وكان كلما أبث زوجته سرّه وشكا اليها ما يساور قلبه من ذلك الهم ، حنت عليه ، وعللته بمعسول الاماني وأقسمت له بكل محرجة من الايمان انها لا تسترد هبة قلبها منه حياً وميتاً .. فكان يسكن الى ذلك الوعد سكون الجرح النرب تحت الماء البارد .. ثم لا يلبث أن يعود الى هواجسه ووساوسه ، حتى مر في بعض روحاته الى منزله في احدى الليالي المقمرة بمقبرة المدينة .. فبدا له ان يدخلها ليروّح عن نفسه هموم الموت بوقفة بين قبور الموتى ، وكثيراً ما يتداوى شارب الخمر بالخمر ، ويلذ للجبان وهو يرتعد فرقاً

الإصغاء الى حديث المردة والجان، فرأى في بعض مذاهبه بين تلك القبور امرأة متسلبة جالسة امام قبر جديد لم يجف ترابه وبيدها مروحة من الحرير الابيض مطرز بأسلاك من الذهب ، تحركها يمنة ويسرة لتجفف بها بلل ذلك التراب فعجب لشأنها وتقدم نحوها فارتاعت لمرآه .. ثم أنست به حينما عرفته .. فسألها ما شأنها .. وما مقامها هنا ؟ ومن هذا الدفين ؟ وما هذا الذي تفعل ؟ فابت أن تجيبه عما سال حتى تفرغ من شأنها ، فجلس اليها وتناول المروحة منها ، وظل يساعدها في عملها حتى جف التراب فحدثته أن هذا الدفين زوجها ، وأنه مات منذ ثلاثة ايام ، وأنها جالسة من الصباح مجلسها هذا لتجفف تراب قبره وفاء بيمين كانت قد اقسمتها له في مرض موته ألا تتزوج من غيره حتى يجف تراب قبره ، وان هذه الليلة هي ليلة بنائها بزوجها الثاني فابى لها وفاؤها لهذا الدفين الذي كان يحبها ويحسن اليها ان تحنث بيمين اقسمتها له .. او تخيس بما عاهدته عليه ، ثم قالت له : هل لك يا سيدي ان تقبل هذه المروحة هدية مني اليك .. وجزاء لك على حسن صنيعك معي ؟ فتقبلها منها شاكراً بعد ان هناها بزواجها الجديد ! ثم انصرف وليس وراء ما به من الهم غاية ، ومشى في طريقه مشية الرائح النشوان يحدّث نفسه ويقول : انه احبها واحسن اليها ، فلما مات جلست فوق قبره لا لتبكيه .. ولا لتذكر عهده ، بل لتتحلل من يمين الوفاء التي اقسمتها له ، فكأنها وهي جالسة امام زوجها الاول تعد عدد الزواج من زوجها الثاني وكأنما اتخذت من صفائح قبره مرآة تصقل امامها جبينها ، وتصفف طرتها وتلبس حليتها،

للزفاف الى غيره .

وما زال يحدث نفسه بمثل هذا الحديث حتى رأى نفسه في منزله من حيث لا يشعر ، ورأى زوجه ماثلة امامه مرتاعة لمنظره المؤلم الحزن فقال لها : ان امرأة خائنة غادرة اهدت اليّ هذه المروحة فقبلتها منها اليك .. لانها اداة من ادوات الغدر والخيانة ، وانت اولى بها مني . ثم انشأ يقص عليها ، قصة المرأة حتى اتى عليها ، فغضبت وانتزعت المروحة من يده ومزقتها ارباً ارباً .. وانشأت تسب تلك المرأة وتشتمها، وتنعي عليها غدرها وخيانتها وسفالتها ودناءتها ، ثم قالت : ألا يزال هذا الوسواس عالقاً بصدرك ما دمت حياً ؟ وهل تحسب ان امرأة في العالم ترضى لنفسها بما رضيت به لنفسها تلك المرأة الغادرة ؟ فقال لها : انك اقسمت لي ألا تتزوجي من بعدي ، فهل تفين بعهدك ؟ قالت : نعم ، ورماني الله بكل ما يرمي الغادر ان انا فعلت ، فاطمأن لقسمها وعاد الى هدوئه وسكونه .

مضى على ذلك عام ثم مرض الرجل مرضاً شديداً ، فعالج نفسه فلم يجد العلاج حتى اشرف على الموت ، فدعا زوجته وذكرها بما عاهدته عليه فاذكرت فما غربت شمس ذلك اليوم حتى غربت شمسه ، فأمرت ان يسجى بردائه ويترك وحده في قاعته حتى يحتفل بدفنه في اليوم الثاني ثم خلت بنفسها في غرفتها تبكيه وتندبه ما شاء الله ان تفعل ، وانها لكذلك اذ دخلت عليها الخادم واخبرتها ان فتى من تلاميذ مولاها حضر الساعة من بلدته ليعوده حينما سمع بخبر مرضه، فلما سمع حديث موته ذعر

ذعراً شديداً وخرّ في مكانه صعقاً وانه لا يزال صريعاً عند باب المنزل لا تدري ما تصنع في أمره ، فامرتها ان تذهب بـه الى غرفة الأضياف وأن تتولى شأنه حتى يستفيق ، ثم عادت الى بكائها ونحيبها ، فلما مر الهزيـع الثاني من الليل دخلت عليها الخـادم مرة أخرى مذعورة مرتـاعة وهي تقول : رحمتك وإحسانك يا سيدتي فإن ضيفنا يعالـج من آلامـه وأوجاعه عذاباً أليماً وقد حرت في امره ، ومـا احسبه ان نحن أغفلنـا امره الا هـالكاً ، فاهمها الامر وقامت تتحامل عـلى نفسها حتي وصلت الى غرفة الضيف فرأته مسجى على سريره، والمصباح عند رأسه فاقتربت منه ونظرت في وجهه ، فرأت ابدع سطر خطته يـد القدرة الإلهية في لوح الوجود ، فخيل اليها ان المصبـاح الذي امـامها قبس من ذلك النور المتلألىء في ذلك الوجه المنير، وان انينه المنبعث من صدره نغمة موسيقية محزنـة ترن في جوف الليل البهيم ، فانساهـا الحزن عـلى المريض المشرف الحزن عـلى الفقيد الهالك ، وعنـاها امره ، فلم تترك وسيلة من وسائـل العلاج الا توسلت بها اليه حتى استفاق ونظر الى طبيبته الراكعة بجانب سريره نظرة الشكر والثناء ، ثم انشا يقص عليها تاريخ حياته ، فعرفت من امره كل ما كان يهمها ان تعرفه ، فعرفت مسقط رأسه وسيرة حياته وصلته بزوجها وأنه فتى غريب في قومه لا أب له ، ولا أم ، ولا زوجة ولا ولد ، وهنـا أطرقت برأسها ساعة طويلة عـالجت فيها من هواجس النفس ونوازعها ما عالجت ، ثم رفعت رأسها وامسكت بيده، وقالت له: انك قد ثكلت استاذك وأنا ثكلت زوجي فاصبح همنا واحداً، فهل لك

ان تكون عوناً لي وأن اكون عوناً لك على هذا الدهر الذي لم يترك لنا مساعداً ولا معيناً ، فالم بخبيئة نفسها فابتسم ابتسامة الحزن والمضض ، وقال لها : من لي يا سيدتي ان اظفر بهذه الأمنية العظمى ، وهذا المرض الذي يساورني ولا يكاد يهدأ عني قد نغص عليّ عيشي ، وافسد عليّ شأن حياتي، وقد انذرني الطبيب باقتراب ساعة اجلي ان لم تدركني رحمةالله، فاطلبي سعادتك عند غيري، فانت من بنات الحياة ، وانا من ابناءالموت. فقالتله : انك ستعيش، وساعالجك ولو كان دواؤك بين سحري، ونحري قال : لا تصدّقي ما لا يكون يا سيدتي فانا عالم بدوائي ، وعالم بأني لااجد السبيل اليه ، قالت : وما دواؤك . قال : حدثني طبيبي ان شفائي في أكل دماغ ميت ليومه ، وما دام ذلك يعجزني فلا دواء لي ولا شفاء ، فارتعدت وشحب لونها وأطرقت إطراقة طويلة لا يعلم الا الله ماذا كانت تحدثها نفسها فيها .. ثم رفعت رأسها وقالت : كن مطمئناً فدواؤك لا يعجزني ، ثمأمرتهان يعود الىراحتهوسكونه،وخرجتمن الغرفة متسللة حتىوصلت الى غرفة سلاح زوجها فاخذت منها فأساً قاطعة ، ثم مشت تختلس خطواتها اختلاساً حتى وصلت الى غرفة الميت ، ففتحت الباب فدار على عقبه وصر صريراً مزعجاً ، فجمدت في مكانها رعباً وخوفاً ، ثم دارت بعينيها حولها فلم تر شيئاً فتقدمت لشأنها حتى دنت من السرير ورفعت الفأس لتضرب بها رأس زوجها الذي عاهدته ألا تتزوج من بعده ، ولم تكد تهوي بها حتى رأت الميت فاتحاً عينيه ينظر اليها ، فسقطت الفاس من يدها ، وسمعت حركة وراءها فالتفتت فرأت الضيف

والخادم واقفين يتضاحكان ، ففهمت كل شيء .

وهنا تقدم نحوها زوجها وقال لها : أليست المروحة في يد تلك المرأة اجمل من هذه الفاس في يدك ؟ أليست التي تجفف تراب قبر زوجها بعد دفنه افضل من التي تكسر دماغه قبل نعيه ؟ فصارت تنظر اليه نظراً غريباً ثم شهقت شهقة كانت فيها نفسها .

الضاد [1]

كان العرب الأولون أحراراً في لغتهم ، يضعون لكل ما يخطر ببالهم من المعاني ما يريدون من الألفاظ ، لا يتقيدون بقاعدة ولا شرط ، ونحن عرب مثلهم تجري في عروقنا دماؤهم ، كما تجري في عروقهم دماء آبائهم من قبل ، فسهمنا في الضاد سهمهم ، وحقنا فيها حقهم ، فلمَ يضعون الألفاظ للتفاهم والتخاطب ، ولا نضعها مثلهم لمثل ما وضعوا وحاجاتنا اكثر من حاجاتهم ، ومرافقنا اوفر عدداً من مرافقهم ، واوسع فصولاً وأنواعاً ؟

اين باديتهم الخلاء المقفرة التي لا يعمرها الا القليل من الخيام المبعثرة بين معاطن الإبل ومرابض الشاء ، من مدائننا الفاخرة الزاخرة الحافلة بصنوف الموجودات ، وأنواع الآلات ، وغرائب المصنوعات ، واكثرها مستحدث متطرف لم تتداوله السنون والايام ، ولم تعصف بـه عواصف

(١) الضاد : عنوان اللغة العربية .

القرون والاعوام .

أليس من الظلم المبين والغبن الفاحش، ان تضيق حاجاتهم عن لغتهم، فيتفكهوا بوضع خمسمائة اسم للأسد ، واربعمائة للداهية ، وثلثمائة للسيف ومائتين للحية وخمسين للناقة ؟ وتضيق عن حاجاتنا ، فلا نعرف لأداة واحدة من آلاف الادوات التي يضمها المعمل إسماً عربياً واحداً ؟ اللهم الا القليل التافه من امثال : المسبر والمبرد ، والمنشار والمسمار ؟

ايكون لسفينة البر ـ وهي لا تحمل الا الرجل ، او الرجل ورديفه ـ مائتا اسم ومائتان من الأسماء لأعضائها واوصالها ، ورحلها وكورها .. ولا يكون لسفينة البحر ـ وهي المدينة المتنقلة في الدأماء ـ القليل من ذلك الحظ الكثير ؟

كان لعرب الجاهلية الأولى مؤتمر لغوي يعقدونه في كل عام بالحجاز بين نخلة والطائف ، يجتمع فيه شعراؤهم وخطباؤهم ، ويتناشدون ويتساجلون ويتحاورون ، ويتطارحون ، ويعرضون أنفسهم على قضاة منهم يوازنون بينهم ، ويحكمون لمبرّزهم على مقصرهم ، حكماً لا يرد ولا يعارض ، ولقد شعروا بضرورة عقد هذا المؤتمر عندما أحسوا بتشعب لغتهم بين اليمن والشام ونجد وتهامة لصعوبة التواصل في تلك البقاع وبعد ما بين قاصيها ودانيها فكان مطمح انظارهم في ذلك المجتمع توحيد لغتهم وجمع شتاتهم والرجوع بها الى لغة قريش التي هي افصح اللغات وأقربها ماخذاً وأسهلها مساغاً وأحسنها بياناً .

أيقدر هؤلاء العجزة الضعفاء في جاهليتهم الاولى على ما نعجز عنه نحن ؟ ونحن الى مؤتمرهم أحوج منهم اليه ، لان تشعب اللغة في عصرهم لا يمكن ان يبلغ مبلغه في عصرنا بين لغة الادباء ولغة العلماء ولغة الدواوين ولغة المتصوفين ، ولغة المترجمين ، ولغات العامة التي لا حصر لها .

ان كان الجاهليون في حاجة الى مجتمع لتوحيد اللغات المتشعبة ، فنحن في حاجة الى مجتمعات كثيرة: مجتمع لجمع المفردات العربية المأثورة وشرح أوجه استعمالها الحقيقية والمجازية في كتاب واحد يقع الاتفاق عليه والإجماع على العمل به ، ومجتمع دائم لوضع اسماء للمسميات الحديثة بطريق التعريب او النحت او الاشتقاق ، وآخر للإشراف على الاساليب العربية المستعملة ، وتهذيبها وتصفيتها من المبتذل الساقط والمستغلق النافر ، والوقوف بها عند الحد الملائم للعقول والاذهان ، وآخر للمفاضلة بين الكتاب والشعراء والخطباء ومجازاة المبرّز منهم والمقصر ، ان خيراً فخير وان شراً فشر .

سياحة في كتاب

اعجب ما اعجب له من أمر نفسي أني احب الجمال خيالاً ، اكثر مما احبه حقيقة ، فيعجبني وصف الروض اكثر مما يعجبني مرآه ، ولا اطرب لمنظر الفتيات الجميلات ، طربي لمنظر القصائد الغزليات ، واحب ان اقرأ وصف المدن الجميلة ، وما كتبه الكاتبون على قصورها ودورها وسهولها وبطاحها وانهارها وجداولها .. وميادينها وتماثيلها ، وانديتها ومجامعها ولا يهمني ان اراها ، كأنني اريد ان استديم لنفسي تلك اللذة الخيالية واخاف ان تحول الحقيقة بيني وبينها واحسب اني لو كنت عاشقاً لاصبحت اضحوكة العاشقين .. واعجوبة الهازئين والساخرين ، ولكان مثلي مثل ذلك الرجل الذي احب امرأة فاستزارها فمنعته حيناً ثم زارته ، فلما رآها تركها وذهب لينام فعجبت لشأنه وسألته : ما باله ؟ فقال لها : اريد ان انام علني أرى طيفك في المنام !

جاء يوم شم النسيم فخرج الناس اليه يستقبلونه استقبال الجيش

المدجج للملك المتوّج ، ويرحبون به ترحيب العشاق بيوم التلاق ، بعد طول الفراق ، ويبسمون له ابتسام الرياض الزاهرة للسحب الماطرة ، وقد ذهبوا في شأنه المذاهب كلها : فمن صاعد الى رؤوس الجبال، وسارب في سهل الرمال ، وواقف موقف الإعجاب والإجلال.. بين جمال الأنوار، وانوار الجمال ، ومقلب طرفه بين حسن الزهرات وحسن الفتيات .. لا يعلم اتشبه القامات الغصون ، ام الغصون القامات .

ذهب الناس في ذلك اليوم تلك المذاهب،وما كان لي ان اذهب مذهبهم لأني لا اعجب بما يعجبون . ولا اهتف لما يهتفون ، فقبعت في كسر بيتي افتش عن ضالة خيال اجد فيها من السعادة والهناءة ما يجده الهائمون بين ثغر الحسناء وثغر الصهباء ، فلمحت بجانبي كتاب بلاغة العرب ، وهو الكتاب الذي ترجمه الاستاذ « كامل حجاج » ، وجمع فيه نفائس اللغة الفرنسية وزبدة ما جادت به قرائح كتابها وشعرائها .. فقلت : حسبي من الرياض هذه الزهرات ، ومن النسائم تلك النفحات .

خطوت الخطوة الأولى من سياحتي في هذا الكتاب فرأيتني واقفاً تحت نافذة قصر اللوفر في باريس ، ورأيت الناس وقوفاً في ذلك الميدان الفسيح وقد هاج بعضهم في بعض حتى ضاقت بهم رقعة الارض، ورأيتهم يمدّون اعناقهم الى تلك النافذة وينظرون اليها نظرة الفلكي الى كوكبه اللامع ، ويرقبون منها ما يرقب الروض من غادية السحب ، وانهم لكذلك إذ اطل عليهم نابليون الاول من نافذة قصره كما يطل البدر من

وراء الأفق يحمل بين يديه طفله الصغير كما يسميه الناس، وملك روما كما يسميه ابوه، فضج الناس لمطلعه ضجيجاً ملا مسمع الخافقين، وابتسموا لمرآه ابتساماً اضاء ما بين المشرقين والمغربين، وهنا سمعت الشاعر الكبير[1] يخاطب ذلك الملك العظيم بصوت يشبه صوت البحر الزاخر قائلاً له:

رويداً ايها الرجل المغرور بالتاج والسرير، والملك الكبير.. والجيش الخاضع، والشعب الطائع، انت تقدر لطفلك في مستقبل الايام ملكاً كملكك، ومجداً كمجدك، وعزاً وسلطاناً كعزك وسلطانك، غير عالم بما تكتمه ضمائر الايام من الحوادث العظام، والخطوب الجسام، فهل اخذت على الايام عهداً لنفسك فتأخذه لولدك؟ وهل وثقت بما في يدك فتثق بما في يد غيرك؟

ايها الملك المغرور: انك ستفارق عما قليل هذا القصر الكبير.. الى الكوخ الحقير، وسيحيط بك الجند في منفاك احاطة الإخضاع والإذلال.. لا احاطة الإعظام والاجلال، وسيموت ولدك محروماً هذا العرش الذي هيأته له بل محروماً بضعة اشبار من تربة فرنسا يضطجع فيها ضجعة الموت.

ايها الملك المغرور: لا تقل ان المستقبل لي فإنما المستقبل لله.

تركت هذا الموقف الفخم الجليل وقد امتلات نفسي عبرة بمصائر

---

(١) فيكتور هيجو.

الايام ، ومصارع الكرام ، وتقلبات الدهر ما بين رفع وخفض ، وابرام ونقض ، ومشيت حتى وصلت الى برية جرداء ،ودوية قفراء،لا يطرقها انسان ، ولا يدب بها حيوان ، فلمحت على البعد رجل يمشي على بعض الشواطىء فوق أرض رملية يخدع ظاهرها ، ويقتل باطنها ، ويدب ماؤها في احشائها ، دبيب الصهباء في الأعضاء ، ويكمن في صدورها كمون الاسرار في صدور الاقدار .

فما هي الا بضع خطوات حتى وقع نظري على رجل مسكين غاصت قدماه في الرمل فحاول نزعها فغاص الى ركبتيه ، فتحلحل ، فغاص الى صدره ، وما زال يساعد على نفسه بنفسه ويهبط شبراً كلما حاول ان يرتفع فتراً ، حتى لم يبق منه على ظهر الارض غير فم يصرخ بالنداء ، وعين تذرف بالبكاء ، ثم ما لبث أن غطاها الرمل فرفع يديه بالدعاء ، فلم يجد من رحمة في الارض ولا في السماء .

وقفت أمام هذا المشهد المؤثر المحزن وقفة أرسلت فيها بضع قطرات من الدمع على هذا البائس المسكين ، وقلت في نفسي : إنني عجزت عن اسعاده في نكبته ومعونته في شدته، فلا أقل من أسعده بقليل من الأسف على مصيره المحزن الأليم .

ثم فارقته ومشيت حتى بلغت منزل الشاعر لامرتين فرأيته جالساً في غرفته الصغيرة وليس معه من يؤنسه غير كلبه المقعى على عتبة بابه ؛ فسمعته يخاطبه ويقول له :

أيها الكلب الأمين ، قــد هجرني الناس وبقيت بجانبي ، وخانني الاصدقاء ووفيت لي ، فأنت في نظري أوفى الأوفياء، وأصدق الأصدقاء، ولولا أنك كريم الاخلاق متواضع ، تأبى إلا أن تعرف لسيدك منزلته من السيادة عليك ، وتحفظ له فضل مـا اسدى من النعمة اليك ، لأكبرت جلستك هذه عند عتبة البـاب ، ولأجلستك بجانبي عـلى فراشي ، لأنك صديقي ومؤنسي ، ولأنك أحق بالإكرام مـن كثير مـن اولئك الذين يفترشون الطنافس ، ويتوسدون الوسائد ، وحسبي منك هذه النظرات التي تلقيها عليّ بهدوء وسكون ، كأنك تقرأ فيها صفحة وجهي ، مـا غاب عنك من دخيلة أمري ، وكأنني أسمعك تقول : ما باله ، وما شأنه؟ وما الذي يبكيه ؟ ليتني أعرف دخيلة أمره ، وليتني أستطيع أن اكون فداءه ! فحسبي منك ذلك ، وهل يطمع الانسان ان يجد من اوفى اصدقائه اكثر مما اجده في لفتاتك ، وألمحه في نظراتك ؟

سمعت لامرتين يناجي كلبه بهذا النجـاء الرقيق ، فتسللت وذهبت لشأني وأنا أقول في نفسي: إذا كان لامرتين ـ وهو أشعر شاعر في فرنسا، وفرنسا مهبط وحي الشعر ـ لم يجد له صديقاً وفياً غير كلبه المقعى عـلى عتبة غرفته ، فأين يذهب سائر الشعراء ، ومتى يجدون الاصدقاء ؟

تركت منزل لامرتين وذهبت الى منزل « دى موسيه » فرأيته معتزلاً في غرفـة من غرف منزله يبكي بكاء مراً .. ويزفر زفيراً شديداً ، تكاد تنقطع له احشاؤه . فقلت : ليت شعري مـا أبكاه ؟ ومـا الذي دهـاه ؟ فسمعته يترنم بقصيدة مـن قصائده يشرح فيها تاريـخ وجـده وهواه ،

شرحاً مؤثراً مؤلماً حتى كان يخيل اليّ ان كل بيت من ابياتها جذوة نار ملتهبة . وسمعته يشكو من خيانة حبيبته « جورج صاند » ويعالج نفسه على أن يسلوها ، ويتناسى عهدها وزمامها فلا يجد الى ذلك سبيلا .. وما هو الا ان اتم قصيدته حتى تغير لونه وشخص بصره .. واضطرب اضطراب الأغصان اليابسة .. بين ايدي الرياح العاصفة ، ثم أخذ يهذي هذيان المحموم ، ويخلط في كلامه خلطاً شديداً ، فعلمت ان الرجل قد جن ، وان العالم الشعري قد فجع الى الابد . فمضيت لسبيلي ، وأنا أسأل الله العافية . وأقول : ان جمال المرأة احقر من ان يقتل اوفر عقل ، وأعجز ان يطفىء اكبر قريحة .

ولكنها الاقدار تجري بحكمها   علينا وأمر الغيب سر محجب

تركت منزل دى موسيه ، ومشيت في شارع من شوارع باريس ، فرأيت شيخاً رث الثياب ، زري الهيئة ، يمشي مشية هادئة مطمئنة ، ويجر في رجليه نعالاً بالية ، قد اطلت اصابعه من خروقها كما تطل الحيات من احجارها فاتبعته نظري ، فرأيته لا يرفع طرفه سكوناً واطراقاً ، ولا يكاد يحرك عضواً من اعضائه رزانة ووقاراً ، فقلت في نفسي : ان لهذا الرجل شأناً ، فمشيت وراءه حتى رأيته قد وقف على باب حانوت اسكاف ، فلم يجد صاحب الحانوت في مكانه ، فجلس على الارض ينتظره حتى يعود فيخصف له نعله ، فسألت بعض المارة عنه فقال : هذا « كورنى » شاعر فرنسا ، فأخذتني الدهشة وملكني العجب، حتى كاد يحول بيني وبين عقلي، وقلت في نفسي: ويح لكم معشر الناس.

أتضنون بقطعة من الجلد الأسمر ، على رجل يقلد اعناقكم الدر والجوهر. اعجزتم على أن تجمعوا امركم على ان تمسحوا هذه الغضون عن تلك الجبهة التي تجود عليكم كل يوم بما يفرج كربتكم ، ويخفف محنتكم ، ثم رجعت ادراجي وأنا اقول : كان قضاء حتماً على الدهر الا ينيل هؤلاء الأدباء من دهرهم ما يريدون ولا يمنحهم من العيش ما يشتهون .

ان في جلسة « لامارتين » منفرداً في منزله لا مؤنس له غير كلبه ، وفي عزلة « دى موسيه » في غرفته بين دموعه وأحزانه ، وفي جلسة « كورني » امام حانوت الاسكاف ينتظر ترقيع نعله ، لآية للمتفكرين ، وعبرة للمعتبرين .

* * *

الآن عدت من سياحتي في ذلك الكتاب اشكر للكاتب ما كتب ، وللمترجم ما ترجم، وأقول : من لي في كل يوم بسياحة مثل هذه السياحة في كتاب مثل هذا الكتاب ؟

دمعة على الأدب

مات بالأمس امام الشعر البارودي ، وامام النثر محمد عبده ، فجزعنا ما جزعنا ، وسكبنا عليهما من الدموع ما سكبنا ، ثم كفكفنا من تلك الدموع وخفضنا من زفرات الضلوع ، حينما سمعنا قول القائل : ان في الباقي عزاء عن الفاني ، وان الأبناء خلفاً من الآباء ، ولقد كر على عهدهما الشهر بعد الشهر ، والدهر بعد الدهر ، والأدب جاثم في مكمنه هامد لم يبعث من مرقده بعد ما قبرناه ولم ينشر من قبره بعد ما واريناه ، فتساءلنا : أين الباقي الذين يزعمون ؟ والخلف الذي يذكرون ؟

أين فطاحل اللغة الغربية ، لا السياسية ، وأرباب الأقلام العربية ، لا الأعجمية ؟

عذرنا المويلحي الكبير واليازجي ، لأنهما ماتا ولحقا بصاحبيهما ، فهل مات شوقي وحافظ والبكري والمويلحي الصغير ؟

ما مات منهم أحد ، وانما كانت حياة ذينك الرجلين ، حياة

الصناعيين ، وكان لوجودها سر من الأسرار ينبعث في الألسنة فيطلقها والأقلام فيجريها وكانت منزلتها من الأحياء منزلة الأم من مصابيح الكهرباء ، تشتمل المصابيح بتيارها ، وتضيء بأسرارها ، فإذا فرغت مادتها وانقضى اجلها ، عم الظلام واشتد الحلك ، والمصابيح - كما هي - جسم بلا روح ، ولفظ بلا معنى .

اما شوقي فقد طار في جو غير هذا الجو ، وهام في واد غير ذلك الوادي وما زالت تعبث به الانواء حتى اغرقته في شبر من الماء ، وأما حافظ فقد انقبضت حياته النثرية قبل انقضاء البؤساء[1] ، أما حياته الشعرية فلم يبق منها غير نظم المقالات السياسية من العام الى العام ، وأين هذه القيثارة البسيطة ذات اللحن الواحد من ذلك العود الأجوف الرنان الذي كنا نسمع منه مختلف الألحان وأفانين الأشجان ؟ وأما البكري والمويلحي فقد قضيا حق التاليف ، هذا بصهاريجه[2] وذاك بفتراته[3] ثم لحقا بالسابقين ، ومضيا على أثر الماضين :

أين سكانك لا أين لهم   احجازاً اوطنوها أم شآما

اين الروضة الغناء التي كنا نتفيأ ظلالها ، ونهصر اغصانها ، ونقطف ما شئنا من ورودها ورياحينها ؟ وأين البلابل التي كانت تنتقل بين

(١) هو كتاب لفيكتور هيجو الشاعر الفرنسوي ترجمه حافظ ابراهيم ترجمة فصيحة ولم يتمه .
(٢) هو كتاب « صهاريج اللؤلؤ » للسيد البكري .
(٣) هو كتاب « فترة من الزمن » المسمى « حديث عيسى بن هشام » لمحمد المويلحي .

اشجارها فتطرب بالأغاريد ، وتستهوى بالاناشيد :

فاسألتها واجعل بكاك جوابا   تجـد الدمـع سائلاً ومجيباً

انا لا اعجب لشيء عجبي لهؤلاء الادباء : يحزنون فلا يبكون ويطربون فلا يضحكون ، ويالمون بلا أنين ، ويعشقون بغير حنين .

ايطرب البلبل فيغرد ، ويشجي الحمام فينوح ، ويطرب الشاعر ، ويشجي الكاتب ، فلا ينطق لسانهما ولا ويهتز قلمهما ؟

لما اسنّ عمر بن ابي ربيعة ورأى ان شعر الغزل والتصابي غير لائق بشيبه ووقاره ، عزم على هجره فما استطاع الى ذلك سبيلاً ، وغلب على امره كما يغلب المرء على غرائزه وسجاياه ، فاحتال لذلك بأن حلف الا يقول بيتاً من الشعر الا اعتق رقبة ، فشكا اليه رجل حباً برّح به ، فحن واهتاج ، ونظم ابياتاً في شان الرجـل ووجـده ، ثم اعتق عن كل بيت رقبة .

فهـل نزر أدباؤنا ما نذر عمر بن ابي ربيعة ، وهم في شرخ الشباب وابان الفتوة ؟ ان كانوا فعلوا ذلك فاسأل الله لهم قصة كقصة عمر تهيج اشجانهم ، فتحنث ايمانهم ، والامة كفيلة لهم بوفاء النذور ، وكفارة الايمان :

وذو الشوق القديم وان تعزّى   مشوق حين يلقي العاشقينا